دار الشهد للنشر والتوزيع

واشتاقت إليك عيناي

رشا شمس

obeikan.com

اسم الكتاب: واشتاقت إليك عيناي.

اسم المؤلفة: رشا شمس.

المدير العام: نهى محمود .

مدير التوزيع: مصطفى عبد القادر .

تصميم وإخراج فني: همت العزب.

رسمة الغلاف: *"Tatyana Llieva"* رسامة ومصورة أمريكية.

تصميم الغلاف: دعاء السيد .

التصحيح اللُغوي: أولي النُهى للتصحيح اللُغوي (نهى محمود).

الطبعة الأولى: ٢٠١٧

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٧/١٣١٤٣

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦١٠-٠٥-٧

محفوظة جميع الحقوق

١٧ش حسن وهبة من شارع الهرم الرئيسي

خلف كايرو مول.

موبايل / ٠١٠١٤٦٢٤٢٨٨

البريد الإلكتروني:

Nohamahmoud.171186@gmail.com
elshahdpublishing2016@gmail.com

obeikan.com

oberkan.com

إهداء

(الحب لا خيرة لنا فيه بل هو من الأشياء التي يُساق إليها الإنسان اضطرارًا)

يوسف السباعي

إلى مَن صنعتْ كلماته تلك قناعاتي.

و نسجتْ عباراته عن الحب خيالاتي.

إلى معلمي الأول وأستاذي الفاضل الذي وضع الحب في كتاباته كلها في المرتبة الأولى من مراتب الحياة.

إلى فارس الرومانسية النبيل.

يوسف السباعي

أهدي روايتي...

obeikan.com

لعَيْنَيْكِ ما يَلقَى الفُؤادُ وَمَا لَقي
وللحُبّ ما لم يَبقَى منّي وما بَقي
وَما كنتُ ممّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قلبَه
وَلكِنّ مَن يُبصِرْ جفونَكِ يَعشَقِ
وَبينَ الرّضَى وَالسُّخطِ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى
مَجَالٌ لِدَمْعِ المُقْلَةِ المُتَرَقرِقِ
وَأحلى الهَوَى ما شكَّ في الوَصْلِ رَبُّهُ
وَفي الهجرِ فهوَ الدَّهرَ يَرْجو وَيَتَّقي.

المُتَنَبي

لو لم تكن المرأةُ وطنًا لعاش جميع الرجال لاجئين

رشا شمس

obeikan.com

أخبروني أنكَ

أخبروني أنكَ في منامي قد زرتني
و حدثتكَ وحدثتني
و أني قد ذكرتُ اسمك وذكرتني
أخبروني أنكَ كنتَ هنا وآتيتني
بُحتُ بإسمكَ وفقدتُ وعيي وعشقكَ قد أصابني
فأقسمتُ أني لم أركَ وأنكَ منذ زمن لم تأتني
كذبتُ فيكَ بلساني، لكن غرامي بكَ قد فضحني
لا أدري كيف بُحتُ بكَ وأنت سري ومأمني
هل امتلأ بكَ قلبي، ففاض بكَ، أم باح بكَ عقلي ولم يُراعني!!
أتراني أكثرتُ من غرامي بكَ، حتى سكَّرتني!!
كيف عرفوا أنك داخلي وأنكَ قد سكنتني؟
هل رأوكَ في عيوني، في جفوني، أم بُحتُ بكَ ولم أتيقني؟!
كيف يشمون عطركَ فيَّ، في كفي، في عنقي، في كُلي
و أنت أبدًا ما لمستني!!

obeikan.com

كيف يشعرون بكَ معي

وأنت قد فارقتني؟!

رحلتَ عني وتركتني!!

أهلكني فراقكَ وأضنيتني

لا أدري أين أخبئكَ منهم؟

وأنت حقا قد ملأتني..

رشا شمس

obeikan.com

و اشتاقت إليك عيناي

هنـاك نظـرةْ تختـصِرُ حَيـاة، وصَـوتٌ يختـصِر مَـسافة، وشخصٌ يختصِر الجميعَ.

هناك بعيدًا في حي الحسين، أحد أشهر وأعرق أحياء مصر القديمة، حيث ينتشي عبق التاريخ معانقًا الأصالة والجمال وروعة الصورة ودقة تفاصيلها، هناك تختلط رائحة المسك والعنبر برائحة الريحان والزعتر حيث يكبر الأبناء على حكايات أسطورية ساحرة يسمعونها صباحًا ومساءًا من الأمهات والجدات، تلك القصص والحكايات تتسلل إلى عقولهم وتقبع فيها دون أي جهد أو عناء، حكايات يبدو أبطالها وكأنهم مازالوا على قيد الحياة، أحياء، حاضرين، في أذهان رواتها وعقول مستمعيها، في حي الحسين نهار دائم وليل متصل، كل شيء ساحر يأسر القلب والعقل معًا لتبدأ الحياة كل صباح وكأنه أول صباح!

هناك في حارة الصنادقية، حيث يقطن أحد أفراد عائلة الطوبجي، متفاخرًا عمن حوله بأصله وحسبه ونسبه، وكأن الدنيا تتكاثف حوله وتُسقطه سيدًا على من حوله من الصعاليك والهلافيت في حين يراه الكثير منهم رجل حقير، فارغ الروح، مثير للأعصاب، لا ميزة فيه ولا فضل له.

obeikan.com

كانت أسرة الطوبجي من الأسر العاملة في الجيش العثماني وتحديدًا في سلاح المدفعية، كان عزيز الطوبجي متفاخرًا بأن المصادر التاريخية تشير إلى أن أسرته من أصول عثمانية، لها فروع في لبنان والشام، حيث حضر جده الأكبر محمد عبد القادر الطوبجي مع الجيش العثماني بعد معركة مرج دابق والتي سقطت فيها دولة المماليك في سوريا أمام الجيش العثماني بقيادة سليم الأول، وتم قتل السلطان قنصوة الغوري، ثم وجه سليم الأول قواته فيما بعد نحو القاهرة لتعزيز مُلك دولته وتأمين حدودها الجنوبية بالاستيلاء على مصر، تفاحة الشرق، ولصناعة خلافة عثمانية يتفاخر بها.

كان عزيز الطوبجي يتفاخر دومًا بجده الأكبر الذي كان يعمل مدفعجيًا في الجيش العثماني الذي غزا مصر في معركة الريدانية، بل إنه كان يمشي مزهوًا بأن هذا الجد الأكبر كان ممن أطلقوا المدافع ابتهاجًا بشنق طومان باي أخر أمراء المماليك على باب زويلة تنفيذًا لأمر السلطان سليم الأول.

كان عزيز الطوبجي يسكن في حي سكني عتيق مزدحم بالمارة وبعض الباعة الجائلين معظم ساعات النهار ولا يكاد يفرغ الحي منهم إلا ويمتلئ بطاولات القهاوي لتحتل بكراسيها

ورِوادها ثلث عرض الشارع منتهكة بذلك حرمة الطريق وسِعته، تُشرف شقة ابن الطوبجي بشرفتيها العريضتين على زقاق ذو سعة ينتهي الى حديقة صغيرة مربعة الشكل، تستقر الطيور على أغصان أشجارها غير الكثيفة، أما الشرفتان فتتمددا داخل شقة متوسطة الحال، يبدو عليها أثر ثراء قديم، أبناء ثلاث يحملون لقب الطوبجي (عدنان وعاليا وعلي) تأتي أصواتهم غامضة وهمهماتهم مبهمة.

ترعاهم أم طيبة رءوم تسير في أرجاء الشقة بوهن يُنبأ بضعف عام سكن جسدها النحيل، لا تسمع لها صوتًا كما لو أن صوتها بات محبوسًا في صدرها وباتت هي معه مُختفية في ركن مهجور من العالم تحت جناح ابن الطوبجي الجاثم فوق انسانيتها الوائد لأحلامها متسيدًا عليها متحكمًا فيها وبها، يتشدق صباح مساء بعبارته الكريهة: الأنثى أنثى والرجل رجل وأنا أكره أن يختلط الحابل بالنابل.

أما أحداث قصتنا فتدورعلى لسان عاليا، تلك الفتاة التي قد تراها عادية، كأي من فتيات تلك المنطقة، ربما لا تتوقف كثيرًا أمام جمالها الهادئ البريء، لكنك حتمًا ستتوقف طويلًا أمام ما تحمله لنا حكايتها التي ظلت لسنوات طويلة ما هي إلا مجرد

سطور خطتها على الأوراق بيد مرتعشة مرتعدة، يد خائفة من شيءٍ ما، يد كافحت كثيرًا رغبتها في استخلاص نفسها من آلام المعاناة والحرمان، يد عاليا الطوبجي الجميلة صاحبة الوجه الشاحب الصامت الرشيق.

عشقتُ القراءة والكتابة منذ الصغر، لعلي أجد فيهما مُتنفسي وملاذي، فالقراءة كانت تُشعل فيَّ نار الصبر وبالكتابة كنت أترجم مشاعري وأفكاري وبها أُنفث عن نيران غضبي فتُخمدها حروفي حين تستقر مرسومة على السطور، أثق أن ناري ستتوهج حين أحتاج توهجها، كانت رواية " زقاق المدق"، لنجيب محفوظ، أول ما قرأت، لأنها تحمل اسم أحد الأزقة التي أعشقها، ذلك الزقاق الذي أعبُره وتطأه قدامي يوميًا، أحببت حميدة وكرهتها، أحببت التفاف رجال الزقاق حولها، أحببت طموحها ولكني ما لبثت وبغضت هذا الطموح الذي انتهى بها بين أيادي ضباط الإنجليز وموت خطيبها الشاب على يد أحدهم.

عانيتُ فترة بعد انتهائي من زقاق المدق، فابتعدتُ عن الروايات لكني عانيت أكثر في فترة ابتعادي لأتخلص من حميدة وتأثيرها الصارخ على حياتي ثم عجزت عن مواصلة دربي دون

obeikan.com

قراءة، حدّثتُ أمي بما يعتمل في صدري فلم تُجب، ابتسمت ثم خرجتْ كعادتها لشراء احتياجات الدار وحين عادت دلفت إلى غرفتي مبتسمة تحمل بين يديها مظروفًا بنيًا مُغلقًا وضعته على طرف مكتبي قائلة: لكِ هذا فاحرصي عليه.

أسرعتُ إلى هدية أمي وفضضت المغلف ليستهويني ما وجدت، كانت رواية "إني راحلة" رائعة يوسف السباعي الذي لطالما حدثتني أمي عنه وعن رواياته الجميلة التي تحول بعضها إلى أعمال تليفزيونية وأخرى سينمائية، الرواية الهدية كانت جميلة جدًا، مليئة بمشاعر الحب الحقيقية، انفعلت بها ومعها وسكنني الشجن بعدها لليالٍ طويلة، واستقر في قلبي منذ ذاك الحين إعجابًا صادقًا بذاك الحب الشرقي الطابع الذي منح الرواية صدقًا بلا حدود وكأن العقبات الكؤود هي القدر المكتوب لأي قصة حب، أبهرني الكاتب بروايته عن جدارة، كم كان بارعًا في التعبير عن مشاعر الأنثى ولهفتها وقراراتها العاطفية المندفعة أحيانًا حين يتملكها العشق ويأخذها التيه في الغرام، تأثرت بها وصدقتها وانتظرت أن يحمل لي القدر حبًا كهذا الحب الذي حملته الرواية بين ضلفتيها، هكذا أعادتني أمي إلى القراءة فلم أعُد أفارقها أبدًا.

أما طفولتي، فقد تفتحتْ عيناي منذ الصغرعلى نار الغضب التي تتأجج باستمرار في صدر عزيز الطوبجي أبي، كانت نيرانه دائمًا مُستعرة تتملكه أغلب الوقت وتلتهم أمي المسكينة الطيبة أمامنا ولا أحد يجرؤ على الاقتراب أو التفاوض، ربما نحن الآن في لحظتنا الحاضرة في هدوء لكنه هدوء ظاهري مُتخم بالشظايا التي قد تتطاير هنا وهناك في أقل من دقيقة، نجد صعوبة هائلة في التركيز على الحاضر والاستمتاع بالهدوء المزيف في وجود ذاك الحذر والترقب الدائم للحظة الانفجارالوشيكة، كبرنا ورؤوسنا لا تهدأ من البحث عن إجابة لسؤال خالد في صدورنا " كيف لنا أن نتجنب ما نخشاه ونجتنب ما لا نريده؟

أمينة عبد الرحمن حافظ، أمي الحبيبة، السيدة رحيمة القلب، كانت من عائلة ميسورة نوعًا، تزوجت والدي وعمرها سبعة عشر عامًا فقط، تخيل والدها الحاج عبد الرحمن أنه بذلك يُهيأ لها حياة كريمة هادئة، فقد زفها إلى عزيز الطوبجي، الموظف الكبير في وزارة الثقافة، الابن الوحيد لأسرة مات ذكورها جميعًا ولم يتبق منهم سوى أبي، أحبَّت أسرته أمي حبًا جمًا وتعاطفوا معها وقدروا لها تحمُلها قسوة قلب ابنهم وفظاظته وغلظة قلبه وسلاطة لسانه.

أمر وحيد شغلني كثيرًا ولسنوات عديدة لماذا لم يتوقف جدي قليلًا أمام حالة أبي الاجتماعية حين تقدم للزواج بأمي الغالية، فقد كان مُطلقًا لثلاث نساء حينها، ربما لأنه لم يكن له أطفال من زيجاته السابقة؟ تساءلتُ كثيرًا: هل كان ذلك مُبررًا كافيًا لقبول عزيز زوجًا لأمينة، لماذا لم يتحرى جدي الدقة أمام الأسباب الحقيقية لتكرار الطلاق، فالأمر أسبابه بالتأكيد ولم يحدث من فراغ؟!

أمي أمينة، تلك المخلوقة التي تكاد ترى قلبها من فرط شفافيتها، لطالما تعجبت من رضوخها التام لما ابتلاها به القدر، أهو الرضا أم اليأس؟، أي ابتلاء ذاك الذي جعلها مُحطمة الأوصال؟، تريد قتل أحزانها فلا تستطيع، تستمر في رضوخها لتُجمِّل الواقع أو لعلها بسكوتها تُشحذ همتها للاستمرار وتحمل المزيد، لا أذكر أني رأيتها ذات مرة تشكي حالها في ضيق أو تبرم رغم أن زواجها وعيشتها كلها كانت دومًا على صحفة جمر مستعر الأوار.

عدنان وعلي شقيقاي اللذان تقاسما معي تلك الذكريات الأليمة لليالٍ سوداء مُضنية تُطاردني باستمرار، من بين كل ما شهدته طفولتي البائسة ظل مشهدًا مؤلمًا محفورًا في عقلي وقلبي، بل إنه كان يُهاجمني أحيانًا في يقظتي ويُطاردني في أحلامي.

obeikan.com

منظر (الصُرة)، ملاءة السرير التي ينهض أبي بعصبية وعنف ويجمع فيها ملابس أمي وملابسنا نحن أطفاله الثلاث، ثم يحزمها بإحكام ويُلقي بها من النافذة فتسقط على أرض الحارة بصوت قوي يُعلن للجميع ما يحدث، فيشهدوا جميعًا طردنا من بيتنا مرات ومرات وكأن أصوات أبواق الحرب قد اندلعت تُسمع في أنحاء الحي تصم الآذان وتوقع الرهبة في نفوسنا صغارًا وكأنها إشارة البدء لسيل لا يتوقف من الإهانات والسُباب الجارح بأبشع الألفاظ تُكال لأمي المسكينة التي لا تنفعل أبدًا جراء ما يحدث، لا ترد، لا تجادل فقط تنهيدة عميقة بعُمق الألم تأتي قادمة من أعماق نفسها المُهترئة وكبرياؤها المُتهشم، ترفع وشاحها المُنسدل فوق كتفيها لتُغطي به وجهها الذي يكاد يتشقق من الإحراج، تنهيدة كنت أتمنى أن تستبدلها أمي ذات مرة بصرخة احتجاج عالية تُطلقها نحو عزيز الطوبجي لتُكيل له الصاع صاعين ولكنها أبدًا لم تفعل!

لا أعلم تحديدًا سبب إصرار أبي على أن يتم الأمر كل مرة بهذا الشكل المُخذي والمُزري الذي يفضحنا ويجعلنا عبرة لكل من يعتبر، على الرغم من وجود بعض الحقائب في البيت حيث تستطيع أمي أن تجمع أشياءنا في صمت وتمضي دون إعلان يجعلنا فُرجة الحارة وحديثها على موائد الإفطار والغداء والعشاء.

هكـذا كنـا نخـرج مطـرودين مرتعـدين بـاكيين، مكـسروي الخاطر إلى بيت جدنا ونبقى فيه فترة طويلة ثم نعود إلى بيت أبي استجابة لطلب وإلحاح جدتنا التي تتعاطف مع أمي كثيرًا وتشفق عليها من حدة طبع ابنها وقسوة قلبه، فتعود أمي إلى بيت عزيز بعد أن يأخذ أبوها عهدًا عليه أن لا يتكرر هذا المشهد الفاضح ثانيةً، فلا يمضي وقت طويل حتى يتكرر الأمر بنفس تفاصيله المؤلمة، الصرة الملعونة وإعلان جديد لطرد فاضح من بيت أبي وحياته كلها..

لم يكن منظر الصرة الفاضح في كل مرة هو كل معاناتنا مع أبينا، ربما كان هو الإطار العام لصورة الحياة الشاقة، الأليمة التي تفتقر إلى أبسط قواعد الرحمة والمودة التي جُبلت عليها أسمى العلاقات الإنسانية، علاقة الأب بأبنائه، يبدو صحيحًا إلى حد كبير ما جاء على لسان جدي ذات مرة مُحدثًا به أمي وهي تبكي حالها وحال صغارها الذين يخرجون مطرودين كل مرة من بيتهم وهي تجرهم خلفها مُتعلقين بطرف ثوبها.

يضعف جدي العجوز ويأسف أمام بؤس حال أمي وعجزه عن أن يصد عنها هجمات زوجها و غاراته البشعة على آدميتها، غارات ما أكثرها و ما أسخفها، تسكنه الحسرة على حال أمينة و

تنسحب دمعات ساخنة تجري على وجه الطيب فتبلل لحيته حين يراها باكية أو ساهدة يجافي النوم عينيها و يخاصمها الشعور بالأمان، فإذا به يجالسها ذات مساء بجواره على سجادة الصلاة وينتحب قائلًا: سامحيني يا أمينة، لم أُحسن اختيار زوج لكِ، ربما بهرني عزيز بأصله وبعمله موظفًا في الحكومة، لم أرغب في أن أزوِجك أحد أبناء عمومتك وهم كُثر، لأنهم أصحاب حرف، أردت أن يكون زوجك متعلمًا، فيعرف قدركِ وقدر ابناءه، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه حبيبتي، ليست هذه هي المرة الأولى ولن تكون الأخيرة التي تُطردين فيها من بيتك بهذا الشكل المهين، فعزيز من الأشخاص الذين يفضلون أن يُشنق الجميع على أن يوجه إليهم أي لوم، أو يعترفوا بأي خطأ، أو يتراجعوا عن أي نقيصة، فرغم كل الماء العذب الذي تصبه السماء في البحر إلا أنه يبقى مالحًا، فلا تُرهقي نفسك في فهم زوجك فالبعض لا يتغير مهما حاولنا، حسرتي عليكِ تأكلني فيا ليتني حققتُ في أمر طلاقه لزيجاته السابقة، ليتني تحريتُ المسألة وتناولتها بالتدقيق والتمحيص، ليتني فعلتُ بُنيتي!

لم تُجب أمي بكلمات منطوقة، كانت قطرات الدموع التي تنهمر من عينيها بلا توقف هي إجابتها الوحيدة الصامتة.

obeikan.com

أما ما كان يكافئنا به أبي بعد عودتنا غير الحميدة إلى مملكته وحيز سلطانه، هو مزيد من الإهانة في صورة لوم وعتاب على ما اقترفته أمي في حق جلالته مما استوجب معاقبتها بالطرد المُهين، فلا تُجيب أمي ولا تعترض، ولا حتى تُدافع عن نفسها، أو تُبرر ما قد كان، فلا مجال لذلك، ولن يُجدي كلامها مع عزيز شيئًا، فليمضِ كما يشاء فيما يشاء، فقط تصمت وتتحمل حتى تعبر الريح بباقي غضبه وتهدأ العاصفة، فمن أين لها أن تواجه تلك القوة الغاشمة التي لا ترحم، فالكلام معه لن يُجدي ولن يفلح، دائمًا كانت تريد أن تُلجم ذاك الثور الهائج وتُبقيه بعيدًا عن صغارها قدر استطاعتها.

أما أخطاء أمي التي كانت تستوجب العقاب وتُعرضها للشجار ونار الغضب فكثيرة، فيا ويلها إن تأخرت دقائق معدودة في إعداد مائدة الطعام، أو لم يكن الطعام ساخنًا كما ينبغي، أو قرر أبي أن يرتدي قميصًا مُحددًا ولم يجده نظيفًا، مكويًا، مُعلقًا على شماعة، مُعطرًا مُسبقًا، أو كمثل أن يتجرأ أحد أقاربها ويزورنا مرة، فالزيارات ممنوعة في بيتنا، حتى جدي، فمن غير المسموح أن يزور ابنته في غير الجمعة الأولى من كل شهر، على الرغم من أنه كان كريمًا إلى أبعد الحدود، لم يكن يأتي إلى بيتنا

obeikan.com

إلا حاملًا معه كل الخير، أكياس كثيرة تحمل داخلها صنوف مختلفة من الفاكهة، الشائع منها والنادر رغم ارتفاع ثمنه، أقفاص من الخضر، أوراق من أفخر وأجود أنواع اللحم والطيور، حتى أبي فلا ينساه جدي الكريم أبدًا في زيارته، فقد كان يخصه بأفخر أنواع السجائر المستوردة، غير بعض القطع من الأقمشة الفاخرة صيفًا وشتاءً، ثم يدس جدي الحبيب ورقة مالية من العيار الثقيل في يد أمي لتبتاع لنفسها ولنا ما نريد أو ما ينقصنا دون أن يدري أبي حتى لا يشعر بأي إهانة أو مهانة.

حاولت كثيرًا أنا وعدنان وعلي أن نفهم سر رفض أبي للسماح لجدي إلا بزيارة واحدة شهرية، فالرجل عطوف، كريم، حلو اللسان، يحترم أبي كثيرًا ولا يوجه له أي لوم أمام أمي أو أمامنا، لكن أبي لا يُفهم له أمر ولا يُقبل له منطق، هكذا عاش وهكذا سيموت عزيز الطوبجي، فهو نموذج لا يُشبه أبدًا ما يُردده العقلاء وما تصفه القصص والحكايات الدارجة عن الأب وحنان الأب وحبه ورعايته لابناءه، لا أظن أن أحدًا مثله ولا أحدًا يُشبهه، كان أبي عزيز رجل قاسي إلى مدى بعيد، لا يُجيد إلا القسوة والصرامة، منطقه الجبروت وغايته التحكم في من حوله وإدارة حياتهم على النحو الذي يُرضيه، بل إنه يستمد رضاءه من

عذاباتهم، تُسعده آهاتهم وتُسكره دموعهم، لا يفقه عن الحنان شيئًا ولا يحب ولا أظنه قد حاول ولو لمرة واحدة أن يحب، حتى تيقنا ونحن صغارًا أنه لم يُحبنا أصلًا!!

في هذا الجو الكئيب عشنا طفولتنا وصبانا، كأننا ننفذ حكمًا صادرًا ضدنا بالمعاناة والحرمان لسبب نجهله، نتجرع الهوان مُرغمين دون إرادتنا، صابرين رغم حداثة أعمارنا على ألوان من العذاب، كالحرمان من الطعام والشراب، الربط بالحبال في السرير والضرب بالحزام لأتفه الأسباب، كأن يتحدث أحدنا بصوت عالٍ والأستاذ عزيز نائم، أو يتجاوز أحدنا ويكسر طبقًا من الأطباق دون عمد أو تعمد، أو يتأخر أحد أخوي في شراء احتياجات البيت أو إحضار السجائر لوالدي، وغير ذلك مما لا يُحاسب عليه الأهل أطفالهم الصغار، لم تستوعب طفولتنا فكرة أن يكون أبانا كارهًا لنا راغبًا في إتعاسنا رغم كل ما يُسدده لنا من طعنات قسوة غادرة دون مبرر،فكنا نفتش داخلنا عما يُعيبُنا أو يَنقصنا حتى يلفظنا أبونا خارج أحضانه على هذا النحو القاس.

كان شقيقي عدنان، الذي يكبُرني بثلاث سنوات، هو أكثر من يناله عقاب أبي، فقد كان يتحمل أوزارنا وأخطاءنا أمام عزيز، إن كانت أصلا تُعدُ آخطاءً، مُعرضًا نفسه للإهانة وجسده للضرب

حتى يحمينا ويحمي أجسادنا الضعيفة من سياط أبي الغاضبة، وأذكُر له ذات يوم أنني ذهبت لإحضار نظارة أبي الطبية من على الطاولة الموجودة في غرفة النوم، وغصبًا عني سقطت النظارة وكُسر زجاجها، فأدركتُ بقلب مضطرب ما سوف ألقاه من ضرب موجع، وإهانة مُبكية، فبكيت خوفًا وأنا جالسة مكاني على الأرض أجمع بقايا الزجاج، فسمع عدنان صوت بكائي الضعيف وأدرك ما أفكر فيه، فأنهضني من على الأرض بحنان وأسرع حاملا إطار النظارة الفارغ من الزجاج وأخبر أبي بأنها سقطت منه عنوة، فلطمه أبي لطمة سال معها الدم من فمه، وانهال عليه ضربًا بالحزام، لم يتراجع عدنان عن اعترافه، لم يُغير أقواله، لم يرتعد، لم يبكِ، جريتُ نحو أبي ورجوته باكية أن يتوقف، ولكنه لم يفعل، كان كتلة هائجة من الغضب والعنف يصفع عدنان هنا وهناك، لا شيء على الإطلاق يوقفه، منظره يثير الرعب في نفسي حتى سقطتُ أرضًا من شدة الخوف والجزع على شقيقي الحبيب مما يلاقيه صابرًا من بطش وعنف وسط بركة من ماء البول وجدتها تحتي رغمًا عني، فخجلتُ وارتعدتْ خلجاتي، وزادت نوبة بكائي وهرعتْ أمي إليَّ تحملني وهي تردد دون انقطاع (حسبي الله ونعم الوكيل)، فتنبه أبي لما يحدث وتوقف عن

ضرب عدنان، أما علي، شقيقي الأصغر فكان منزويًا في أحد أركان الغرفة يرتعد خوفًا وقد ابتلت تلابيب ملابسه بدموعه الغزيرة الساخنة.

نيران من الغضب وحمم بركانية مستعرة قد تندلع وتُصيب أحدنا أو تُصيبنا جميعًا في أي وقت ولأي سبب، هذه هي حياتنا، وهذا ما قد نتعرض له دون أي أمل في انقشاع تلك الآلام أو زوالها، وفي خضام تلك المعاناة ظلت سفينة حياتنا تُبحر بنا رغم أمواج الحرمان العالية، ليس حرمانًا ماديًا من ملذات الحياة ورغد العيش، لكنه أيضًا حرمان معنوي ونفسي من الحب والمودة والرحمة والعاطفة التي تجمع بين أبوين مُتحابين، أو حتى مُتظاهرين بالمحبة، مُتفاهمين على الأقل فيما يتعلق بأمر صغارهم، فينشئ الصغار تحت جناحيهما آمنين، مُطمئنين على أنفسهم وعلى مستقبلهم.

مرتْ بنا السنوات بطيئة، ووصل شقيقي الحبيب عدنان إلى الثانوية العامة، فرفض أبي وبشدة، أن يسمح له بتلقي اي دروس خصوصية رغم حاجته المُلحة إليها، فامتثل عدنان بكل أدب وطاعة لقرار عزيز بيه الطوبجي، الذي أصبح في ذلك الوقت مديرًا عامًا، واعتمد عدنان مُرغمًا ومُكتفيًا على المجاميع

obeikan.com

المدرسية، التي كانت تدبر له أمي نفقتها من مصروف البيت أو مما يدسه جدي في يدها أثناء زيارته الشهرية، كما اعتمد أيضًا على نقل أوراق وملخصات الدروس الخصوصية من زملائه الذين يتمتعون بعطف آبائهم، كان عدنان ينقلها بيده، ويستذكرها أثناء النسخ، وذات مرة عرض عليه صديقه المقرب زياد أن يستضيفه في بيته ليشرح له ما صعب عليه فهمه في الفيزياء، واستجاب عدنان لدعوته الكريمة على استحياء، ورجع للبيت بعد موعده الطبيعي، فرفض أبي أن يفتح له باب الشقة، واعتذر عدنان مئات المرات عن غلطته الشنيعة، وظل واقفًا أمام الباب قرابة الساعة يدقه بخوف وصبر، وأمي الحبيبة في الداخل تتوسل لأبي بدموعها الغزيرة أن يصفح عنه ويسمح له بدخول جنته لأن امتحاناته على الأبواب، أما أنا وعلي فكنا نبكي في صمت ورعب حزنًا على شقيقنا الحبيب وخوفًا من أبينا المُتجبر، وعيوننا متعلقة بالباب، لعله يفتحه.

وافق أبي أخيرًا على السماح له بدخول البيت، وعاقبه بحرمانه ذات الليلة من الطعام، رغم تأكيد أمي له أن عدنان لم يتناول شيئًا منذ خرج إلى مدرسته صباحًا، ولكن هيهات فجبروت عزيز لا حد له، فتسللت ليلًا إلى المطبخ وأحضرت له

obeikan.com

سندوتشًا أعددته له وأنا في حالة من الخوف والرعب أن يكتشف المارد الجبار أمري فيكون عقابي شديدًا لأنني تجاوزت الأوامر وخالفت سياسته الملكية، احتضنني عدنان بشدة وشكرني على تلك المجازفة التي أقدمت عليها، وطلب مني أن لا أكررها ثانيةً حتى لا أعرِّض نفسي لأذى سيؤلم أخي أكثر من ألمه من الجوع الذي يعتصر معدته وأمعاءه، وقصَّ عليَّ ما وجده في بيت صديقه العزيز " زياد زكي العلايلي"، الذي تعرَّف عليه هذا العام، والذي يعيش مُنفردًا مع أمه الحنون بعد أن دخل أبيه السجن ليلقى جزائه الرادع جراء القبض عليه في قضية مخدرات وانقطعت علاقته به منذ ذلك الحين، وأصبح هو وعدنان صديقين مقربين جمعهما القدر ليتخذ كل منهما الآخر صديقًا، وشريكًا في أحلام نسجاها معًا لمستقبل أفضل يستحقه كلاهما.

تكررت مشكلات أبي مع عدنان، الذي يستعد لامتحانات الثانوية العامة طوال فترة مذاكرته واستمرت حتى صبيحة يوم الامتحان نفسه، فقد تأخر عدنان الليلة السابقة عند زياد حتى انتهيا من المراجعة النهائية للغة العربية قُبيل بدء الامتحانات في اليوم التالي، تكرر نفس المشهد عند عودة أخي العزيز إلى البيت، استمر راجيًا متوسلًا باكيًا أمام الباب قرابة الساعتين، وأمي تبكي

وتتوسل وترجو أبي، ولكنه لا يُقدِّر ولا يستجيب ولا يرحم، بل تمادى في ظلمه وغيِّه، وأقسم أن عدنان لن يدخل البيت الليلة، وأنه سيقضي الليل على السلم، كان في استطاعة أخي أن يذهب إلى بيت جدي ليقضي الليلة هناك لولا جبروت من لا يرحم، فقد أقسم عليه أن يبيت على السلم أمام الباب وأنه لو غادر إلى أي مكان آخر سيقذف ملابسه من النافذة ولن يسمح له بدخول جنته مرة أخرى!! أشفق عدنان على أمه المسكينة التي كان يسمع صوت بكاءها ونحيبها من خلف الباب، فنفذ القسم الجائر رُغمًا عنه إكرامًا لخاطر تلك المسكينة.

لم تتحمل أمي التي صمدت لكل الأهوال الماضية أكثر من ذلك، وسقطت مريضة بالذبحة الصدرية صباح يوم امتحان عدنان الذي انصرف إلى امتحانه مضطربًا قلقًا وهرع "عليَّ " إلى بيت جدي ليُخبره بالأمر، فأسرع إلى ابنته مُصطحبًا الطبيب الذي أصر على نقلها إلى المستشفى حيث مكثت به شهرًا كاملًا.

و نتيجة لكل هذه المعاناة خرج شقيقي عدنان من بيت عزيز الطوبجي مُستجيرًا بجدي، ورفض العودة إلى جحيم أبي، رحب جدي بالأمر، واستقبل عدنان في بيته، وما إن فعل ذلك حتى غضب عليه أبي غضبًا شديدًا، وتشاجر معه في المستشفى أمام الناس هناك وعلى مرأى ومسمع من أمي المريضة الباكية دوما،

قاطع عزيز بيه جدي الشيخ الطيب، وحرم علينا أنا وشقيقي علي زيارته أو الإتصال به، كما أعلن أنه لن يسمح له بعد اليوم بتلك الزيارة الشهرية، ولن تطأ قدماه جنته مرة أخرى وهو الرجل الطيب الرحيم الذي طالما أوصى ابنته وأوصانا بتحمل جفاء أبي وحِدته وشراسة طبعه.

غادرت أمي المستشفى بعد شهر وعادت إلى بيتنا وحرصتْ جدتي لأبي أن تأتي إلى المنزل لرعاية أمي والإعتناء بها وبنا، وشهدت أثناء وجودها معنا معاناتنا مع ولدِها الذي لم يُكْبر لها وجودها في البيت وكان يتشاجر كعادته مع أمي ومعنا لأتفه الأسباب، لم يشفع لأمي مرضها ولا ما تتحمله من آلام وأوجاع وظلت تعاني جبروت عزيز وتعطشه الدائم للعدوان والشجار وتحطيم النفوس حتى سقطت جثة هامدة لا حراك فيها، ربما كان في ذلك خلاصها واستجابة لآه استغاثة أطلقتها نحو السموات العلى، فالكتمان كالنزيف الداخلي لايُرى لكن وجعه يظل يتسرب الى كل خلايا الجسد حتى يموت ببطء.

توفيت أمي إلى رحمة الله تعالى بعد شهرين فقط من خروجها من المستشفى، وحمّلتُ أبي مسئولية موتها، فهو لم يرعاها أو يهتم بها وبصحتها كما أمره الأطباء، لم يستجب لنصائح جدتي "سعدية" التي طالما رجتْهُ أن يتوقف عن الشجار مع زوجته

المريضة وأن يرحمها ويرحم قلبها الضعيف العليل، غيوم رمادية سكنت فؤادي حين رحلت أمي مازلتُ أتحسسها حتى الآن.

و جاء عدنان في هذا اليوم الحزين من بيت جدي مهرولًا باكيًا، يلتقط أنفاسه بصعوبة، يريد أن يرى أمي وُيلقي عليها نظرة الوداع، يريد أن يشاركنا مصيبتنا وآلمنا، فإذا بأبي يرفض، وبإصرار وتعنت غريب دخوله إلى البيت، مُذكرًا اياه بقسمه الذي أقسمه يوم أن غادر عدنان إلى بيت جدنا، أن بيت عزيز الطوبجي مُحرمًا عليه إلى يوم الدين، فاصطحبه زياد صديقه برفق إلى الشارع مواسيًا له، ووقف شقيقي عدنان في قارعة الطريق يكاد جسده أن ينصهر من الحزن، تحت البيت يبكي أمنا التي رحلت ولم تهنأ في حياتها يومًا، يبكي إخوته الذين حُرم من رؤيتهم ومعانقتهم رغم كل الألم الذي نتشارك فيه ويعتصر قلوبنا البريئة.

رفض عدنان أن يتحرك من مكانه وانخرط في بكاء طويل، فلم يتحمل شقيقنا علي الأمر، لم يطق صبرًا وتجرأ وخرج إلى شقيقه في الشارع، فتعانقا طويلًا وانخرطا معًا في بكاء مرير حتى بكى كل من رآهما من الأهل والجيران، لكن أحدًا لم يتجرأ ويعاتب عزيز الطوبجي على فعلته أو يلومه على ظلمه وقسوته، لم يرغب أحد في إهانة نفسه وتعريضها لسُباب جارح إذا ما حادث عزيزًا أو لامه على ما يفعل!

آثناء الشهور الأخيرة الماضية، وقُبيل وفاة أمي الحبيبة، كنتُ قد حصلت على الشهادة الإعدادية بمجموع متوسط نظرًا لما كان يعصف به بيتنا من مشاجرات ومشاحنات مستمرة بين شقيقي الأكبرعدنان وأبي سامحه الله، الذي قبلت أمره صاغرة بعدم التحاقي بالثانوي العام، وكان قد قدم أوراقي دون علمي أو رغبتي إلى الثانوي الفندقي، لقد رأى أنني لست ذكية ومجتهدة بالقدر الذي يؤهلني لاجتياز الثانوية بمجموع يفتخر هو به، كم آلمني الأمر، لقد رأى أبي الصورة بالمقلوب، رآها بما يتناسب مع حجم غروره وجبروته، فقط رأى عدم حصولي على مجموع كبير في الشهادة الإعدادية أمر كافٍ لإبعادي عن الثانوي العام، ولم ير أن ما كان يفعله مع أمي رحمها الله أو ما كان يفعله معنا جميعًا كفيل بأن أرسب في امتحاناتي وأن نجاحي في الإعدادية في خضام تلك الأحداث إنما يدل على قدرتي على تجاوز الصعاب!

و مضت حياتنا رتيبة، قاسية، جافة دون أمي الحبيبة التي كان دفء حضنها ليلًا حين تحوطنا بذراعيها يعوضنا عن كل ما نلاقيه آثناء النهار من غلظة عزيز بيك وجفاءه، وقد حاولت جدتنا العطوف تعويضنا عن مرارة فقد أمنا الحبيبة، ولكن هيهات، فالأم لا تُعوض أبدًا، أبدًا، استمرعدنان في السكن لدى

جدنا الذي آلمه بشدة فقده لإبنته الحبيبة أمينة، شعور جارف بالذنب احتل وجدانه تجاهها، فقد رأى الآن بعد رحيلها كم كان سلبيًا في التعامل مع ما كانت تلاقيه من هوان وذل، رأى هو بنفسه نموذجًا لذلك الطغيان يوم احتد النقاش بينه وبين أبي في المستشفى حين اتهمه بأنه يفسد عليه عدنان، هذا الإحساس بالذنب جعله يشمل عدنان بكل حب وعطف وحنان، علّه يعوض فيه ما قد كان.

استطاع عدنان استكمال تعليمه في جو صحي والتحق بإحدى الكليات العسكرية، وللعجب أن عزيز الطوبجي كان يختال فرحًا وزهوًا حين التحق عدنان بالكلية الحربية، وكأنه هو من أنعم عليه بذاك الفضل، وكنا لا نعرف من أخبار أخينا سوى ما ينقله لنا جدي الذي كان يخشى الاتصال بنا كثيرًا حتى لا يتسبب في أية مشكلات جديدة مع أبي، الذي فرض علينا مقاطعته تمامًا، ولكننا كنا نسرق من الزمن ما نقدر عليه وبمساعدة جدتي الطيبة حتى نزور جدنا الجميل في بيته أو في دكانه، نتحسس فيه روح أمنا الغائبة، نشم رائحتها فيه حين نعانقه، نرى في عينيه الغائرتين نفس نظرتها الحانية التي تمنحنا أكسير الحياة فنستطيع أن نواصل الدرب رغم وحشة الأيام ورغم ما تحمله صدورنا من لوعة.

مضت الحياة بنا في صمت مؤلم واستسلام شبه كامل لتنهيدات داخلية لا تتوقف، كم من مرة زارتني أمي في أحلامي مبتسمة، ممشوقة القوام كزهرة يانعة انتصبت على حافة جدول ماء نقي، تُجلسني بجوارها فتهرب كلماتي من فمي، أرتشف من حنانها فتُخبرني أن عليَّ أن أتحسس طريقي إلى النور، إلى الخلاص، إلى الفرح المنتظر، آمنت بما تخبرني به وبما تدعونني إليه دون أن أجرؤ على التحرك خطوة نحوه، فلقد صنع أبي لي رعبا رأيتُ نجاتي منه خطوة زائفة لا أصل لها، ابتسم للفكرة لكني أعود فأتجمل بالصمت، والصمت لا يعني بالضرورة الرضا فأحيانًا يكون الصمت وجهًا آخر للعجز والشتات، ولكن لا يهم، فما الفارق بين اليوم والغد؟ لاشيء سوى مزيد من الكسور والجروح.

كنت أقابل زياد في بعض الأحيان عند جدي الشيخ الطيب، فقد كان حريصًا على زيارته والتودد إليه للإطمئنان على أخباره والوقوف على أحواله وصحته التي أنهكتها أمراض الشيخوخة والإحساس القاتل بالذنب، كانت أسعد لحظات حياتي الجافة الخالية من أي مشاعر حين أقابل زيادًا، الذي رأيتُ فيه تعويضًا عن غياب شقيقي عدنان في كليته، ثم تبدل إحساسي به، فلم يعد كما كان أخًا أكبر، بل تسرب الحب رويدً رويدًا نحو قلبينا، كان

عشقًا خالصًا، عشق فطري من ذاك الذي يتسرب إلى الخلايا فيحتلها بهدوء وتجد نفسك أسيرًا له، لينًا، حريصًا على فرائضه، مؤديًا لها بشغف وفتون، تُفاجأك كتلة الحب والغرام التي احتلت كيانك وتعجز أن تجد معها تفسيرًا لأسئلة تبدو تافهة ولا تعني الكثير، متى وكيف ولِمَا أصبحتَ عاشقًا، حب لا يشغلك بتفاصيله وكينونته هو فقط يحتويك وكفى.

حب جمعنا دون تنسيق أو ترتيب، وتفاهم اجتهدنا للحفاظ عليه دون ارتباك، أمنيات الصبا البراقة باتت تلمع في أعيننا تحت نظر ورعاية جدي الشيخ الذي رأيناه سعيدًا مُباركا لهذا الأمر دون أن يتحدث عنه صراحة ولو بكلمة واحدة لكنه يباركه ويرعاه بنظراته الهادئة الحانية المُدركة للأمر، الراعية له دون مبالغة، فقط كان يدعونا إلى الاجتهاد في دراستنا حتى لا يكون هناك أي عائق أمام تحقيق الأماني في هدوء وحذر من انفعالات عزيز الطوبجي وما أكثرها.

كان زياد قد حصل على مجموع كبير في الثانوية العامة والتحق بإحدى كليات القمة، وواصل الاستذكار نهارًا والعمل ليلًا في أحد الشركات كحارس أمن حتى يخفف عن أمه المجاهدة بعض العناء ويشاركها تحمل مسئوليات الحياة دون الالتفات كثيرًا إلى تُراهات البعض حول العقوبة التي يقضيها

والـده جـراء تجارتـه للمخـدرات، كـم أخـبرني بـسعادة بالغـة بأنـه يحبنـي ويريـدني شريكة لحياتـه وأنـه ابـدًا لـن ينكسر ولـن يـصيبه الملل أو الفتور من كثرة العمل ولن يتركني وحيدة أواجه بـضعف وخوف بطـش عزيـز الطـوبجي، تـشاركنا في صـنع أحلامنـا وأردنـا تحقيقهـا معًا يد بيد، كـم كـان الحـب الـذي جمـع بيننـا خـير مُعين لكلانـا حتـى نتحمـل قـسوة الحيـاة ونقـاوم الظـروف الـصعبة التـي تطحننـا بـلا رحمـة، شـجعني بحماسـة لا تنقطـع عـلى اسـتذكار دروسي وعـدم الالتفـات إلـى تجربـة حرمـاني مـن الثـانوي العـام، فعليَّ إثبـات جدارتي وأحقيتي في فرص أفضل، يمكنني أن أصـنع مجـدًا وبالجـد والاجتهـاد يُمكننـي أن أُغـير النتيجـة إلـى صـالحي وأسجل بدل الهدف أهدافًا.

أما علي، شقيقي الأصغر، فلقد تغيـرت شخـصيته كثيـرًا منذ وفاة أمي، كأنما صقلته المحنة وصـاغه الحـزن مـن جديـد، أصـبح أكثـر صـلابة وقـوة في مواجهـة أبـي، أصـبح متفوقًـا في دراسـته، والتحق بالكلية التي أرادها هـو، ولـيس الكليـة التـي يرغبهـا أبـوه، وشجعني كثيرًا على عدم الاستسلام لإرادة أبينا في شأن مـستقبلي الفنـدقي، وقـف معـي أمـام أبـي الـذي طـالبني بالإكتفـاء بـشهادتي الثانوية، أخبره بضرورة إلتحـاقي بكليـة الـسياحة والفنـادق، خيَّـره

obeikan.com

بين استمرارنا في العيش معه تحت نفس السقف أو الرحيل عن دنياه إلى بيت جدي حال عدم موافقته على التحاقي بالكلية، صمد أمامه دون أن يرجف له جفن أو ترتعش له خلجة، أمسك بيده التي رفعها ليلطمه حين أخبره بذلك، ولأول مرة أجدني أقف خلف أخي الأصغر، احتمي به من لطمة قد تنالني من أبي الذي هاله الأمر.

شعرتُ وكأنه اهتز أو ارتجف من وقع الصدمة، مر الموقف والتحقتُ أنا بالكلية التي حلمت بها لعلها تُغير مسار حياتي، وبارك زياد موقف علي من أبي، ورأى أنه الآن فقط بوسعه أن يغادر إلى إحدى الفروع التابعة لشركته الدولية التي يعمل بها، ليحقق مزيدًا من النجاحات التي أبهرت رؤساءه في العمل حيث ينتظرون منه المزيد من التفوق، عله يستطيع أن يجمع مبلغًا من المال يكفي ليحقق لنا حلمنا الجميل في أقصر وقت ونصبح معًا إلى الأبد، وغادر زياد إلى إحدى دول الخليج، ودَّعته في المطار ودموعي تسبقه إلى حيث سيذهب، أمسك بيديَّ يحتضنهما بكفيه القويتين مُتحاشيًا النظر كثيرًا في عيني قائلًا: لن أطيل النظر في عينيك غاليتي، فقد حرم الله كل ما يُذهب العقل!

ثم تركني مُنصرفًا إلى داخل صالة المغادرين ووجدتني أُمسك مصفحي الصغير الذي لا يُفارق حقيبتي، أُمسكه في كفي

وأقبِله ثم أضعه فوق قلبي مباشرة ولساني يبتهل لله بدعاء لا ينقطع " اللهم اجعل حبه في قلبي مرفأ، واجعل حبي في قلبه مستودعا ما حيينا أبدا " ثم مسحت دموعي أدَّعي التماسك أمام نفسي ولملمت بعثرتي وواصلت حياتي الجادة، حريصة على الاستذكار، مُطمئنة إلى وجود علي معي في البيت، وفي تلك الأثناء كان شقيقي عدنان قد تخرج من كليته العسكرية والتحق بالعمل في إحدى الجهات الأمنية وغادر الحسين، والقاهرة كلها إلى العريش حيث يخدم هناك.

و صفعنا القدر صفعة جديدة حين توفيتْ جدتي "سعدية"، جدتنا الطيبة الرحيمة ولحقت بأمي وخلا البيت علينا ثانيةً مع عزيز بك الذي لم يهتز كثيرًا لوفاة والدته، فقط رافقها إلى مثواها الأخير، دثرها بالتراب، وضع على قبرها لوحة رخامية تحمل اسمها وأنها والدة عزيز محمد عبد القادر الطوبجي، وكأنه يتفاخر بنفسه على الأموات، سكان تلك المقبرة، استقبل العزاء فيها ليلًا، احتسى القهوة في الصوان، دخن السجائر برتابة واعتياد، ثم دخل إلى البيت وخلد إلى النوم وكأن شيئًا لم يكن، وفي الصباح طالبني بتحضير طعام الفطور كالمعتاد " طبق الفول بالزيت الحار والبطاطس المحمرة على أن تكون ساخنة جدًا"، تمامًا كما

obeikan.com

يحبه وتناول بعده كوب شاي بالنعناع كعادته، ثم غادر إلى عمله تاركًا مبلغًا من المال على المائدة وطالبني أن أجهز طعام الغداء في حدود هذا المبلغ، ونبهني إلى ضرورة الإلتزام بمصروف البيت وأن لا أطلب منه أي مبالغ إضافية خلال الشهر، وألا أطمع في ملابس جديدة صيفًا أو شتاءً، فكل شراء أو تجديد يطول منزلنا هو أمر يخضع لرؤيته وتقديره هو فقط دون غيره، وأن أحرص على تحضير الطعام في موعده وأن أنتبه إلى نظافة البيت ونظافة ملابسه وكل ما يتعلق به حتى لا أُعرض نفسي لغضبه وعقابه، ثم انصرف.

و انتبهتُ إلى حقيقة وضعي الجديد، لقد أصبحت مسؤولة عن بيت أبي كما كانت جدتي ومن قبلها أمي رحمهما الله، فأجهشتُ في بكاء طويل مرير كبكاء الأطفال.

كانت تصرفات أبي، عزيز بيك الطوبجي، كما يفضل أن يناديه الناس، كأنما تدفع شقيقي علي دفعًا للخروج عن طاعته، والانسحاب تمامًا من كل ما يجمعه به، كل ما يريده أبي أن يُقدم له علي كل فروض الولاء والطاعة، وكأنه لم يتعلم من تجربته السابقة مع عدنان، هو لا يهتم لشيء سوى إرضاء ذاته وخضوعنا جميعًا له حتى لو كان الأمر ضد رغبتنا بل ضد مصالحنا، لم يغفر

obeikan.com

أبي لعلي يومًا إلتحاقه بكلية الصيدلة بدلا من كلية الهندسة كما أراد، لم يُقدر اجتهاد ابنه وتفوقه الدراسي رغم معاناته وحرمانه من أي دروس، لم يُدرك أن هذا التفوق وهذا المجموع النهائي الذي حققه علي هو ثمرة جهده ومواصلة العمل والإستذكار دون أن يكون أبي قد وفر له أي شيء، لم يتلقى علي أي دروس خصوصية ولم يلتحق بأي مجموعات للمراجعة، إعتمد على الله ثم على نفسه، إمتلك روحًا قتالية وحماسة منقطعة النظير، أصقل الألم وقوة المعاناة مناعته ضد أفعال عزيز المُشينة.

لقد أبهرني بإصراره على التفوق، وكان له ما أراد، فعاقبه أبوه على تفوقه، وترجم الأمرعلى أنه تمرد ضد قراره، وكأنه يرفض أن تستقر سفينة أحدنا على الشاطئ الذي يبغيه، فمنذ التحاق علي بالصيدلة لم يمنحه أبوه مصروفًا قط، فكان شقيقي الأصغر يعتمد على ما يمنحه إياه جدنا الكريم الذي لم يستنكر فعل أبي بل توقعه وأخبر به عليًا قبل أن يحدث، تقبل شقيقي الأمر وللحق فقد فكر مرارًا في ترك المنزل والإنتقال للعيش عند جدنا، لكنه في كل مرة كان يتراجع عن الأمر حتى لا يتركني فريسة سهلة لعزيز الطوبجي.

أما أنا فرغم أنني كنت أجتهد كثيرًا في تنفيذ الأوامر السامية التي كان أبي يصدرها يوميًا من اعتناء كامل بالأمور المنزلية

وأموره الشخصية إلا أنني لم أسلم نهائيًا من النقد اللاذع الذي يصل إلى حد التجريح واستهجان لكل ما أقوم به من أمور لم اعتدها من قبل، وكثيرًا ما تعرضت لقصف عنيف من الإهانات لأنني وضعت إناء الأرز على النار حتى يتم نضجه لكنني ذهبت إلى الشرفة لنشر الملابس المغسولة واستكمال كي ملابس أبي المنزلية قبل وصوله إلى البيت، 'و نسيت إناء الأرز، فالتصق بعض منه في قاع الإناء، فلم يغفر لي أبي جريمتي وعاقبني بأن جعلني أتناول الأرز المحترق في قاع الإناء وانهال عليَّ بالسباب واللعنات لأنني فتاة فاشلة في كل أمور المنزل ولن أصلح أن أكون زوجة ولن أكون قادرة على القيام بواجبات الحياة الزوجية، وما كان أشد ألمي حتى فرت الدموع من عينيَّ حين تعرض لأمي رحمها الله ونالها منه سبابًا ولعنات لأنها لم تعُدني أن أكون ربة منزل ولم تُجهزني بما تُجهز به الأم ابنتها في هذا الشأن، انهرت تماما عندما لعن أمي وهي في قبرها وأسقط عليها كل فشل لي في إرضاءه، أسرعت إلى غرفتي وانا أكاد لا أرى أمامي من كثرة الدموع التي تملأ عيني، بينما ارتدى هو ملابسه بكل بساطة وذهب إلى حيث ذهب، وكم تمنيتُ ألا يعود!

لم أذكر لعلي تلك الواقعة حتى لا أزيد النار حطبًا، فلم يكن يتواجد في المنزل سوى سويعات قليلة ينامها حتى يستطيع الإستمرار في العمل كمساعد في إحدى الصيدليات ليلًا والدراسة بجد واجتهاد صباحًا، لم اشأ أن أكدر صفوه وأحمله ما لا يطيق، كذلك لم أكن أذكر لعدنان أوزياد عند اتصالهما بي ما أعانيه وأكابده من أنانية والدي وعدوانيته التي لامستها عن قرب حتى لا أرهقهما بأمري واشقيهما بالتفكير في حالي الذي لا مفر منه في الوقت الراهن، وأخيرًا حضر زياد في إجازة بعد غياب دام عامين، كم كنا متلهفين ومترقبين لتلك الإجازة، ولا نعلم متى سيمكننا التنعم بغيرها، تقدم للزواج مني على أن الحقه في غربته وأعود إلى الوطن لآداء الإمتحانات في نهاية العام الدراسي، رفضه أبي رفضًا باتًا قاطعًا، رفض أن يناقشه في شيء، بل إنه تطاول عليه وأهانه إهانات بالغة من الصعب أن يتقبلها من له كبرياء وعزة نفس، عايره بأمر أبيه، وبعمل أمه في إحدى المستشفيات كممرضة، لم يلتفت إلى أن هذه السيدة الشريفة لم تقبل أن تعيش مع زوج يتكسب ماله من الحرام، لم تكن تعلم أنه يتاجر في المخدرات حتى تم القبض عليه، وأثبتت التحقيقات تورطه، بل إنه كثيرا ما كان يخفي المخدرات في خزانة الملابس، رفضت

استكمال حياتها معه، رفضت أن تُطعم وليدها نارا في جوفه، حصلت على الطلاق بأمر المحكمة ونزلت إلى العمل تعتركها الدنيا وتلاطمها الأمواج من أجل ابنها الصغير ليقتات من حلال حتى وإن كان شحيحًا خيرٌ له ولها من أن ينبت من حرام فتكون النار أولى به.

لم يقدر تضحياتها ولم يُكبر لها قرارها بالإبتعاد عن الدنايا، أهانها وسفهها وشكك في عفتها وطعن في شرفها، لم يحتمل زياد ما سمعه عن أمه الحبيبة، الغالية، المجاهدة، المجتهدة في صمت، لطم أبي لطمة أذهلته وجعلت الدماء تقفز إلى رأسه وهي تغلى وأمسك بتلابيب حبيبي وسبَّه بأقذر الألفاظ وتشابكا ولولا تدخل علي وأحد الجيران حيث كانا في المجلس لكان الأمر قد انتهى على نحو آخر، انصرف زياد من بيتنا جريحًا، مجروحًا، مُهانًا، مطعونًا في نسبه وكرامته، لم استطع اللحاق به، لم أستطع دفع الضرر عنه أو حتى الإعتذار له، ودعته من نافذة غرفتي آسفة، حزينة، كسيرة، كل أملي أن لا يكون قد كرهني وبغضني من جراء ما أصابه من لعنة عزيز بيك الطوبجي، وما أشد لعنته وما أوقح ذِكره، علم جدي وعدنان بما حدث، قطع عدنان عمله واستطاع الحصول على إجازة ثمانية وأربعين ساعة فقط، حضر للقاء زياد

obeikan.com

والإعتذار له عن ما كان، ذهب جدي الشيخ الطيب إلى بيت زياد لنفس السبب، اقترح عدنان وعلي على جدي تزويجي من زياد دون موافقة أبي وليفعل ما يريد، تردد جدي في قبول الأمر، اشفق على شقيقي علي مما سوف يلاقيه من ويلات أبي، وحذر عدنان من أن أبي سيكون كالأسد الجريح سيمزق الجميع بأنيابه وأنه لن يتقبل منا تلك الإهانة، سيهيج وسيثور وستنالنا نيرانه وربما ابتلعنا بركان غضبه، إلا أن عدنان قد ذكره بما نال أمي الغالية من كمد وهم طوال حياتها مع أبي رغم إخلاصها الشديد له وحرصها الدائم على راحته، قبِل جدي بالمغامرة واعترته روح التحدي وأعلن مباركته زواجي ممن يريده قلبي رغما عن إرادة أبي، وليذهب عزيز بيك الطوبجي إلى الجحيم..

تساءلتُ كثيرًا لما يبقى أبي مغمض العينين إراديًا؟ لما الإصرار على أن يصم أذنيه ولا يستمع أبدًا لنداء ينبعث بداخلي بين الحين والآخر؟ نداء شوق وحنين واحتياج إلى كل ما قد يجمع الإبنة بأبيها، فارسها الأول وبطلها المغوار، لما يسعى بقصد وبدون قصد إلى كل سبيل ليبتُر علاقتي به؟ الآن يصفني بأنني غير مطاوعة له ولإرادته، أي إرادة تلك التي يُريدني أن

أنصاع لها إكبارًا وإحترامًا له؟ الآن يكررها بصوت عالي يُجلجل في آرجاء المنزل كله " عاليا عاصية، غير مُطيعة وسأكسر لها بدل الضلع ضلعين إن هي لم ترتجع وتنصاع إلى ما أريد "، لما لا يسأل نفسه ولو لمرة واحدة متى كانت عاليا غير مطاوعة؟ لا أذكر أنني كنت يومًا غير مطيعة، ترعرعت والخوف من غضبه وعقابه يغشاني ويُكبلني ليل نهار، لم تذهب مشاعري بعيدة عنه بين ليلة وضحاها، أبدًا يا أبي لم ابتعد بإرادتي، كنت أنت من يُبعدني ويلفظني ويُلقي بي إلى الفراغ، فقط كنتُ أنا أستجيب للبعد وأهرع للفظ وأقبل الرفض صاغرة وأنزوي في غرفتي أُحدِّث دُميتي وأبثها جزعي منك وشوقي إلى حضنك الذي لم أعرفه أبدًا!

وبالرغم من العواقب الوخيمة التي سيواجهها الجميع دون استثناء إلا أن الكل عقد النية على تزويجي بمن أحب وأرغب، إلا أن زياد استأذن جدي في مهلة للتفكير لن تزيد عن أربع وعشرين ساعة، استنكر أخواي الأمر وكادا أن يتشككا في حب زياد لي ورغبته في الزواج مني إلا أن حبيبي استدرك موضحًا أن الأمر لا يتعلق أبدًا بحبه الخالص لي وبرغبته في الزواج مني الآن قبل غدًا لكنه يريد أن يُحادثني على انفراد لنرتب معًا ما سوف يكون قبل الإقدام على أي خطوة قد تكلفنا الكثير، فالأمر

مصيري لكلينا ولا يمكننا أن نتناوله برعونة أو اندفاع، فلا يمكن أن يتزوجني كرد فعل لإهانة أبي له ولا حتى كرد فعل لرفضه الشخصي له.

في صباح اليوم التالي التقيتُ بزياد بعيدًا عن حي الحسين الذي نعشقه، التقينا هناك على صخرة المقطم حيث نرى القاهرة من أعلى نقطة، حقًا كم هي جميلة ومؤلمة في آن واحد كحياتنا تمامًا، فالابتسامات تتبعها الدمعات تكاد تغشاها، تغرقها وتمحوها، والحب سجين بين أسوارعزيز الطوبجي وقيوده الحديدية، كنا نستمتع بالنظر إلى بعضنا البعض وكأنها آخر النظرات، نستعذب الصمت ونجد فيه ملاذًا لنهر جارف من الأفكار المتلاحقة المتزاحمة في رأسينا، لم أستوعب الأمر ولم أجد مبررًا لما أشعر به من قلق وترقب مما سوف يُخبرني به مَن أحببته حبًا يفوق الوصف، حب لا أريد أن يفسده عليَّ ماضٍ أو يغتاله حاضر أو يمنعه مستقبل.

كان زياد متعبًا، ملامحه مُرهقة إلى حد بعيد، يبدو أن النوم لم يعرف إلى عينيه طريقًا في الليلة السابقة، تمامًا حاله كحالي، يشغله ما يشغلني، عشرات الأسئلة حاصرتنا طوال الليل فلم تترك لجفوننا فرصة للاسترخاء، تلعثم زياد كثيرًا في البداية، خانته

الكلمات ربما أيضًا تردد في ما يريد أن يقول، ثم أمسك يدي بين كفيه وأقسم قائلًا إنه بات ليلته وكأنه يتقلب على جمر النار، أخبرني أن حياته في الخليج ليست كما يعتقد البعض، أموره المادية ليست على ما يرام، صارحني بأنه يخاف عليَّ، يخشى أن يتركني بعد عقد القران وحيدة في مواجهة أبي وبطشه الذي سوف يستعر ويشتد إن علم بزواجنا دون رغبته، فجدي حقًا يُحبني ويريد إسعادي لكنه بلغ من العمر أرذله وأنه لن يستطع الصمود أمام تهكم الناس من حوله إذا انتزع الفتاة من بيت أبيها ليزوجها دون علمه وضد إرادته.

ربما لن يتحمل عواقب مواجهة أبي وربما تطورت الأمور وتعقدت بينه وبين عزيز سامحه الله، عدنان سيغادر إلى مكان خدمته لا محالة ولا يُمكنه البقاء هنا ليحميني أو ليصد عني هجمات أبي الشرسة وضرباته التي حتمًا ستتوالى، وسيتحمل علي نار غضب أبي وحيدًا وستنصهر كل شموع أبيه السوداء على رأسه، كل ذلك غير أن هناك العديد من الإجراءات اللازمة والأوراق المطلوبة حتى أستطيع السفر إلى الخليج كزوجة له، أولها استخراج جواز سفر خاص بي موقَّع بموافقة ولي الأمر حيث أني مازلت قاصرًا، اعتذر زياد عن كل ما قال، مسح دمعة

تسللت مني دون إرادتي، إلا أنني تفهمتُ الأمر وكان عليَّ أن أتقبله شئتُ أم أبيتُ فالأمر مُربك للغاية، كان زياد حنونًا وكلماته دافئة رغم قسوة واقعها إلا أننا تجاوزنا وقع الأمر وبتنا نفكر فيما سوف نُقدم عليه في قادم الأيام.

"عاليا حب العمر كله ليتك خاتمًا أرتديه بين أصابعي، فكلما افتقدتك احتضنتك، فيدفأ قلبي وتدب الحياة من جديد في أوصالي".

كلمات من نور ونار همسها حبيبي في أذني كان لها وقع آخر في قلبي الذي تسارعت خفقاته فكاد ينخلع من بين أضلعي.

في المساء أخبرنا شقيقاي بخطتنا، سوف أتظاهر أنا مبدئيًا بقبول رفض أبي لطلب زياد، واستسلم تمامًا لإرادته وأكون مطيعة كما تعود مني دائمًا، انصاع كليًا لكامل إرادته، وما عساي أفعل فلا إرادة لي غير إرادة أبي ولا رأي لي بعد رأيه؟؟ وليغادر عدنان إلى حيث عمله وكذلك زياد، ثم يجدد زياد طلب يدي من أبي بعد عام أكون خلاله قد أتممتُ سن الرشد واستطعتُ استخراج جواز سفر دون علم والدي أو موافقته فلن أكون بحاجة لها، على أن يرتب زياد وضعه في الخليج على ما سوف يكون، ويتمم الأوراق المطلوبة ويحصل على سكن مناسب لزوجين

حديثين خلفًا لمسكنه الحالي الذي يتشارك فيه مع ثلاثة من زملائه، وهكذا نكون قد جنبنا علي وجدي خطر أي مواجهة محتملة مع إرهاب أبينا وبطشه وكسبنا بعض الوقت لصالحنا.

رضخ الجميع لاتفاقنا وحاز زياد على تأييد الكل عن قناعة تامة واحترامًا لكل ما ذكره لهم من أسباب وكل ما طرحه من حلول واقعية للتغلب على كافة العوائق وتعهدنا جميعًا على تنفيذ الخطة الاستراتيجية بمنتهى الدقة والإلتزام فلا حكمة في مواجهة تحديات كثيرة وكبيرة في نفس الوقت ونحن لسنا على القدر الكاف من الاستطاعة لمواجهتها ولن نستطيع الانتصار عليها بل أننا سنتكبد خسائر عظيمة إذا ما وقفنا أمام القطار وأقدامنا مُكبلة بالأصفاد في قضبانه!

تعاقبتْ الأيام والأسابيع التالية لسفر عدنان وزياد إلى أعمالهما بطيئة ومزعجة، فقد حللتُ أنا للأسف محل أمي في الشجار الدائم مع الطوبجي لأتفه الأسباب، وحالتْ مشاغل شقيقي علي دون التقاءه كثيرًا بأبينا، فكان غالبًا ما يبيت في عمله أو عند جدنا الشيخ العجوز الطيب، وبعد فترة من الوقت قرر عدنان الارتباط بفتاة أحبها من ذات المدينة التي يعمل بها، وعاد إلينا ليُخبرنا بالخبر السعيد ويستأذن أبانا في أن يصحبه إلى

obeikan.com

العريش للتقدم لزهرة، فتاته الرقيقة التي أسعدت روحه ورطبت جفاف قلبه، لم يفاجأ عدنان باعتراض أبي على الأمر من أساسه ورفضه للزيجة بل أنه طرده للمرة الثانية من بيته، وأهانه وآلمه كثيرًا بكلمات جارحة عن فتاته اليتيمة التي لابد وأن تكون سيئة الخلق والسمعة.

تربت "زهرة" دون مراقبة رجل لها، دون حزم أب أو أخ أو حتى خال أو عم، فهي لقيطة يتيمة مجهولة النسب والهوية، سلمتها سيدة مسنة إلى قسم الشرطة بعد أن عثرت عليها في صندوق لجمع القمامة، تبكي من الجوع والألم، لا يستر جسدها النحيل الصغير سوى قطعة من القماش لطختها بعض بقع الدم، يبدو وكأنه دم المخاض، أسرعتْ بها السيدة العجوز إلى قسم الشرطة ثم سلمها القسم فيما بعد إلى إحدى دور رعاية الأيتام، هناك أطلقوا عليها اسمًا لا تعرف مدى صحته "زهرة عبد الله سالم"، أما زهرة فهو اسمها وكينونتها، أما عبد الله سالم، فهو اسم لشخص من محض خيال موظف مكتب الصحة الذي يحرر شهادات الميلاد، يراها عزيز الطوبجي فتاة رخيصة، سفيهة، زهرة التي سمحت لنفسها بالتعرف على شاب غريب عنها لمجرد أنه دلف ليلًا إلى الصيدلية التي تعمل فيها طالبًا بعض الأدوية، ثم

obeikan.com

توالت بينهما الأحاديث الودية وتمادت وربما يكون قد وقع بينهما ما وقع، فهي لا تخشى أحدًا، ولن يحاسبها أحد على شرف ربما قد تكون أضاعته مع عدنان أو غيره!

بكى عدنان كثيرًا أمام ظلم أبيه لحبيبته زهرة دون أن يراها، دون حتى أن يتيح لنفسه فرصة التعرف عليها عن قرب، ولكنه لم يتوقف أبدًا عند اعتراضه على هذا الزواج، ومضى في طريقه بلا تردد، فكان العقاب أن امتنع أبي عن حضور الزفاف، مع منعي أنا أيضًا من مشاركة شقيقي الأكبر فرحته في ليلة العمر.

أما علي، ذلك الأرعن كما يصفه أبينا دومًا فلم ينتظر أن يسمع رأي أبيه ولم يمتثل لأوامره وقراراته، رافق أخيه الطيب ولازمه كتف بكتف في أهم يوم في حياته، هو وجدنا العجوز الذي أصر على السفر إلى العريش حيث الزفاف بالرغم مما قد أصابه من أمراض الشيخوخة التي تمنعه من الحركة إلا في أضيق الحدود، احتضن جدي زهرة، وباركها وقبَّل جبينها، وقدم لها مبلغًا كبيرًا من المال كمهر لها، ربما يساعدها المبلغ في تدبير ماقد تحتاجه عروس شابة يتيمة لا أهل لها ولا سند، تمنى أن يعوضها ويعوض أخي الحبيب عن ما ينقصهما في عشهما الأنيق رغم بساطته ورقة حاله.

obeikan.com

بكيتُ كثيرًا تلك الليلة رغم أن قلبي كان يرقص فرحًا، كم تمنيت أن أعانق شقيقي وأطبع قبلة حانية يملؤها الحب والعرفان على وجنته، تمنيت أن احتضن عروسه الرقيقة وأخبرها أنها قد اكتسبتني أختًا وصديقة من الآن فصاعدًا لكني رأيت طيف أمي رحمها الله تزورني حين أغمضتُ عينيَّ من شدة ألم أصابهما من كثرة البكاء، ربتتْ أمي على كتفي واحتضنتني وغمرتني ابتسامتها، أفقتُ من إغفاءتي وآذان الفجر يشق سكون الليل توضأت وأقبلت على صلاتي، تتابعت صلواتي ودعواتي راجية دون انقطاع أن يسعد الله عدنان وزهرة ويجمع بينهما في الخير وأن يكونا لبعضهما البعض خير عوض عن جفاء أعوامهما السابقة، كما دعوتُ ربي كثيرًا أن يجمع بيني وبين زياد كما جمع بين زهرة وعدنان، ثم استقبلتُ صباح ليلة الزفاف صوت عدنان وزهرة في الهاتف المحمول الخاص بي الذي اشتراه لي زياد قبل سفره سرًا ولا يعلم به إلا جدي وشقيقاي.

اعتذرتُ كثيرًا لعروس أخي الرقيقة عن عدم حضوري، كانت الكلمات تخرج مني بشق الأنفس، كنت أحمل همًا ثقيلًا لا أقوى عليه، فكيف يمكنني الاعتراف لها بسبب عدم حضوري؟ أي سبب هذا يمنع شقيقة أن تحضر زفاف شقيقها

الأكـبر؟ مـا الحائـل دون أن أكـون إلـى جـوار عـدنان وإلـى جوارعروسه أُلبي لها ما تحتاج وأكون بحق أختًا لها وخاصة في ظروف كظروف زهرة اليتيمة التي لا أهل لها ولا سند؟

تنفستُ الصعداء وارتحتُ وهدأ بالي عندما ألقتْ زهرة بكلماتها البسيطة السحرية على مسامعي، وجدتها تعرف عنا كل شيء، تعرف عزيز الطوبجي جيدًا وكأنها رأته رؤيا العين، وتعرف الأسباب الحقيقية لعدم حضوري، تحدثتْ معي بكل عفوية وبساطة دون أن تسبب لي حرجًا، حدثتني بانسيابية جعلتها تحتل في نفسي مكانة وقدرًا وكأن روح الصداقة قد جمعتنا منذ سنوات حتى أنها في نهاية المكالمة أرسلتْ سلامها الخاص إلى حبيبي زياد مع تمنياتها لناأن يتحقق ما تحقق لها مع عدنان بالأمس، تمنت أن يجمعنا الله معًا قريبًا كما جمعها مع حب العمر كله.

كانت تلك المكالمات الهاتفية السرية التي تجمعني بحبيبي هي كل ما أعيش عليه ويؤنس وحدتي ويُخفف عليَّ شقائي في بيتنا الكئيب، فكلما كنت أوشك على الانهيار وتنضب بطاريات صبري كانت كلمات زياد السحرية ترن في أذنيَّ فيمتلئ صدري بالأكسجين بعد أن كنت أختنق.

obeikan.com

"عاليا تذكري دومًا أن لاشيء يبقى على حاله، حتى الشمس ستكسر القانون يومًا ما وتُشرق غربًا لتُعلن النهاية"، يالا روعة كلماتك حبيبي، إنها خلاصة الصبر حين يفوح منها عبير الأمل، بعدما تهتاج الذاكرة بتلك الكلمات التي يروض بها زياد شراسة يأسي أستطيع حينها فقط أن أقفز فوق مرارة واقعي.

فأعود وأستجمع شتات نفسي المبعثرة التي أكل منها الإنتظار وشرب، فالفراق لعين، إنه موت على قائمة الإنتظار، إنه صمت عميق يسكن خلاياك فكأنك تتجمد دون أن تعرف موعدًا للإنصهار.

و في ذات مساء، أخبرني والدي في حزم وصرامة وبكلمات مقتضبة أنه سيُحضرعروسه الجديدة إلى منزلنا بعد غد، ويتوجب عليَّ أن أطهو تلك الأصناف التي تحبها العروس إلى جانب الأصناف التي تُقدم عادةً الى عروسين جديدين في ليلة الزفاف، ثم أتوجه تلك الليلة إلى المبيت في بيت جدي الطيب، فالعروس تريد أن تكون على راحتها في تلك الليلة وحقها أن لا يشاركها أحد البيت في ليلتها الخاصة جدًا مع عزيز الطوبجي.

لم أُعقب على كلمات العريس الجديد، لم أناقشه، حتى أنني لم أبارك له، فقط استأذنت في الإنصراف إلى غرفتي، سبَّني والدي بلفظ جارح تبعها ببصقة سكنت أرض الغرفة، فكيف لا

obeikan.com

أبارك ولا أهنأ؟؟ كيف لا أفرح لفرحه؟ كيف لا أملئ الحارة بالزغاريد؟ كيف........................؟؟؟

أردتُ أن أعرف اسم العروس الجديدة، أردت أن أحذر تلك المسكينة مما هي مُقدمة عليه ومما سوف تلاقيه من أهوال في بيت سليل العثمانيين، ابن الطوبجي، ولكني تراجعت عن موقفي وآثرت أن أترك للعروس فرصة التعرف الكامل بمفردها على عزيز بيه مادامت قد تجاسرت واختارت أن تدخل بإرادتها الحرة الى عالمه البشع، سأتركها تكتوي بنار غضبه لعله يزأر في وجهها ذات صباح أو مساء، أو ربما يقذفها بالمزهرية فتصيب رأسها أو تشج جبينها كما أصاب أمي المسكينة ذات مرة حين أيقظه سعالها المتواصل الشديد من غفوة العصاري، لم يهتم بنوبة السعال تلك التي اقتحمت قفصها الصدري وكادت تنخلع معه ضلوعها، لم أنسى ملامح وجهه الشيطانية المفزعة، لم يثنه دمها المراق على الأرض، لم يفزعه، انهال عليها ضربًا ورفسًا في بطنها وشدها من شعرها خارج الغرفة، ألقى بها على أرضية الصالة وكأنه يتخلص منها، كنا نبكي ونصرخ رعبًا، حتى تجمع الجيران وأخذها أحدهم الى مستوصف قريب بينما توجه عزيز الى غرفة نومه مباشرة وقذف بجسده فوق السرير متابعًا لنوم قطعته " أمينة اللعينة" بسعالها اللعين الذي لا ينقطع.

رفضتْ أمي تحرير محضر بالواقعة، كذبت على الطبيب حين عالج جرحها الغائر بستة غرز سكنت ثلاث منها فروة رأسها واستقرت الثلاث الأخرى فوق جبهتها المرمرية، وظلت المسكينة مريضة عليلة بالإلتهاب الرئوي وآثاره فترة ليست بالقصيرة، استعدتُ كل مشاهد الذل والمعاناة ووجدتُ مرارة الحرمان اللاذعة تقتحمني فغضضتُ الطرف عن إخبار العروس بما ستلاقيه واكتفيتُ بوضع بعض ملابسي في حقيبة صغيرة وانصرفت الى بيت جدي الشيخ الطيب العجوز بعد أن حشيتُ الحمَام وحمرتُ البط وأخرجت برام الأرز المعمر من الفرن، انصرفت والحقد يملأني ويكاد يسد مسامي على العروسين.

سعدتُ كثيرا بتلك الأيام القليلة التي قضيتها في بيت جدي العجوز، مطرودة من جنة عزيز الطوبجي لأتركه يهنأ بعروسه الجديدة كما يريد، كم كان جدي حنونًا، عطوفًا، ودودًا، فرغم بلوغه الخامسة والثمانين من عمره إلا أنه كان شديد الحرص على تدليلي وتقبيلي كل صباح، يحمل صينية الإفطار إلى سريري ولا يبرحني إلا وقد أنهيت طعامي، أخبرني أنني أتمدد على سرير أمينة أمي، ابنته الحبيبة الغالية التي لم يفقدها يوم وفاتها، بل

فقدها يوم وهبها هدية غالية لمن لا يستحق، ابكتني كلماته في صمت إلا أنه احتضنني بقوة وحنان وهمس قائلًا: إنه يدعو الله ﷻ كل يوم أن يغفر له جريرته وأن يجمعه مع حبيبته أمينة في جنة الخلد، ولما لا؟ وقد تحملت المسكينة من الهم والغم ما يُكفِّر عنها ذنوبها وخطاياها، وأن الله تعالى يعِدنا بالفرج بعد الضيق، وأي ضيق أكثر إيلامًا من ضيق النفس وكدر العيش، وهو ما عرفته أمي المسكينة في بيت ابن الطوبجي لسنوات طويلة، أقسم جدي أنه يراها رؤية العين تلهو مع رفيقاتها في الجنة.

ما هي إلا أيام مرت كالطيف وعُدُّت بعدها إلى بيت أبي بعدما أرسل في طلبي، تعرفت إلى زوجته الحسناء الجديدة، دلال، أرملة في الخامسة والأربعين من عمرها ذات شعر أحمر غجري، بضة، لينة القوام، بيضاء مُتشربة بحمرة تخطف القلوب وتأسر العيون، ثرية، نظراتها قوية لا انكسار فيها، ضحكتها رنانة تجمع بين دلال الأنثى وفتنتها وقوتها، لا أعرف حقًا كيف لمن في مثل حالها أن ترضى بعزيز الطوبجي زوجًا، ولِمَا؟؟

بعد أيام قليلة من استقرار الحسناء دلال في دارها، أصبحتْ تديره بكل مهارة وإتقان وقل كثيرًا اعتماد أبي عليَّ في تدبير

شـؤونه، ارتحـت إلـى ذلـك وحاولـت الابتعـاد قـد اسـتطاعتي والإنزواء في حجرتي، عالمي الصغير، حتى لا أُفسد على الزوجين حياتهما، أصبح شقيقي علي لا يبيت في البيت معظم الوقت، إلا أن أبي سامحه الله طالبه ذات مساء بالرحيل نهائيًا عن بيته، فـدلال تريـد أن تـستمتع بحريتهـا في مملكتهـا، لا تريـد أن تقـع عينـا علـي علـى جمالهـا ومفاتنهـا البـارزة المثيـرة ومـا أكثرهـا!! ومـا أقـل مـا ترتديه من ملابس تكشف أكثر مما تستر!! وهـي عـروس شـابة تريد الإستمتاع بحالها وجمالها، يتمايل جسدها في انضباط ذهابًا وإيابًـا، تريـد أن تأسـر عينـا زوجهـا وتخطـف قلبـه وتُلهـب قلبـه وتشعل جسده.

انسحب "علي " بلا أي جدال إلى خارج جنة عزيز الطوبجي وكان أكثر ما يؤلمه حقًا هو استمراري حبيسة تلك الدار الملعونة.

اشتد كربي برحيل جدنا الحنون عن دنيانا بعد أسابيع قليلة مـن انتقـال علـي للعيش معـه، رفعـتُ الهـاتف المحمـول مُحدثـة زياد، كنت أبكي كما لم أبكِ من قبل، كان يـشد مـن أزري ويُقسم لي أن أمي الآن سعيدة مبتهجة، فقد جمعها الله تعالى بمن تحـب، ويؤكد لي أن أيام الغربة والفراق شارفت على الإنتهاء وأن الأمـل في دنيا جديدة جميلة تجمعنا معًا على وشك أن يتحقق.

ثـم انقطعـت أخبـار زيـاد ومكالماتـه لـي فجـأة، وأصـبح لا يُجيب أبدًا على الهـاتف، ذهبـت لزيـارة والدتـه والاسـتفسار منهـا عن أخباره، لعلهـا تطمـأنني وتـرد لـي راحـة البـال التـي هجرتنـي، وجـدتها لا تعـرف عنـه شـيئًا وتـسألني بلوعـة عنـه وعـن مـصيره، اتـصلت بعـدنان وعلـي واسـتعنت بهـما حتـى اسـتطيع التمـسك بالأمل واستبعاد فكرة أن مكروه قد وقع بحبيبي زياد في غربته؟؟

وسـط هـذه الأفكـار الـسوداء ذهبـت إلـى مـسجد الحـسين، استمعت إلـى خطيـب يـروي الحـديث القدسـي عـن أن الله تعـالى يقـول (.......... وإن أتـاني عبـدي يمـشي اتيتـه هرولـة)، خـررتُ باكيـة أردد: يـا رب أتيتـكَ هرولـة فـاقبلني في عبـادك الـصالحين، اعف عني يا الله وأتم نعمتك عليَّ وارزقني الخير حيث كـان) لـم أبـالِ بنظـرات المـصلين نحـوي إذ كنـت أنـاجي ربـي وأنـا أبكـي بصوت مخنوق لكنه مسموع، ولا أقوى على الحركة أو الوقوف، واظبت على الـصلاة مـن يومهـا، وأشـدَّ مـا أحـرص عليـه صـلاة الفجر، أضـبط المنبـه قبـل وقتهـا بنـصف سـاعة، أصبحتُ أعتنـي للغايــة بهــذه الــشعيرة، اســتفتح بهــا نهــاري فــشعرتُ أن الله تعالى يُناجيني كما أناجيه، واستشعرتُ سكينة الفؤاد التي لم أكـن أعرفها من قبل، وكلما استقر اليأس في أعمـاقي، وبـدأت أفكـر في

أي مكروه يكون قد وقع لحبيب عمري كلما ازددتُ تقربًا إلى المولى عز وجلّ فينزل عليَّ سكينته وتهدأ نفسي ويقرُّ بالي.

بعد أسبوعين تقريبًا من البحث والتساؤل بدأت الأخبار تتوالى عن طريق القنصلية المصرية في تلك الدولة التي يعمل بها زياد، عرفنا أنه قد أصاب مواطنًا خليجيًا في حادث سيارة على الطريق السريع وأن الرجل قد فارق الحياة في موقع الحادث، بينما زياد الآن حبيس السجن هناك ولا سبيل لنجاته إلا بدفع الديَّة لأهل القتيل إن قبلوا بها، سقطتُ مغشيًا عليَّ لا أعي ما أسمع ولا أقوى على الكلام، أسابيع مُظلمة قاسية كئيبة مرت بي أنا وأمه الملكومة في وحيدها، لا تعرف له أمل في النجاة، من أين لنا وله بمبلغ الدية ذاك العظيم فوق إمكاناتنا المتواضعة؟؟

ووسط كل هذا اليأس والألم والاحباط استقبلتُ مكالمة هاتفية من حبيب القلب، كان قد حصل على ترخيص بها من خلال المحامي الذي يتولى الدفاع عنه هناك، أتاني صوته مكروبًا باكيًا، مثقلًا بالهموم والآلام، طالباني أن أسمعه جيدًا وأعي ما يقول، فليس لديه الكثير من الوقت، فزمن المكالمة ثلاث دقائق فقط، أخبرني أنه لا أمل له في نجاة قريبة من مصير مُعتِم سيلقاه، فكل ما جمعه من نقود الغربة لا يعدو أكثر من ربع

obeikan.com

مبلغ الدية المستحقة عليه حتى مع تبرعات زملائه وتبرعات المصريين حيث يعمل، فالمبلغ المطلوب فوق إمكانيات الجميع، أخبرني كم يحبني، بل إنه يعشقني ولكن ليس بالحب وحده يعيش الإنسان، لابد للحب من قوة تحميه من بطش الدنيا ومصائبها.

طالبني أن أنساه وأنسى كل ما كان بيننا، وأن ألتفتَ إلى حالي وأنهي دراستي وأنال عملًا أستحقه حتى يهنأ عيشي وأتحرر وأنطلق بعيدًا عن دنيا عزيز الطوبجي وواقعه المرير، أوصاني أن أحب الناس وأحب الحياة وأن أتخير لنفسي زوجًا يليق بي، زوج يمنحني السعادة والأمل وراحة البال، لابد لي من سند حقيقي يحميني من عزيز الطوبجي ومن بطشه وجبروته، فلا جدوى من انتظار سجين كسير النفس سيظل حبيس الزنزانة لسنوات طويلة أو حتى تدركه رحمة ربه إن أدركته، فأصعب ما يمكن للمرء فعله هو إجبار مشاعره على اتخاذ طريق آخر يعاكس إرادته تمامًا، أقسم أنه يعشقني بل يذوب فيَّ عشقًا لكنه أدرك أن الإنتظار جحيم وأن حبًا لي يسكن قلبه يفرض عليه الآن أن يغلق عين القلب ويفتح عين العقل على مصراعيها لنرى حقيقة المأساة التي حلت بحب جمعنا إغتاله غدر الزمان، فالأجدر بنا الآن أن نتحلى بالشجاعة المطلوبة لنتعامل مع واقعنا الذي فُرِضَ علينا فرضًا.

"حبيبتي عاليا كتبت لك عشرات الرسائل مزقتها جميعا غير آسف عليها، فحبي لك لا تصفه كلمات ولا تُنصفه أبجدية، أنتِ يا عاليا أنثى خُلقت لتسكن قلبي دون غيرها من نساء العالمين، كم رجوت قلبي أن يكون منصفا معي، فإنه يسكن جسدي وينبض لك يا عاليا".

أجهشتُ بالبكاء وأختنق صوتي فلم تبرح حروفي الشفاة، أردفتُ: زياد، أرجوك احرص على قلبي فإنكَ فيه.

كانت تلك الكلمات هي آخر ما كان بيننا آنذاك فلقد أُغلق الخط وانقطعتْ المكالمة.

أدركتُ فداحة الأمر ولكني لم أستطع تجاوزه بسهولة أو التعامل مع توابعه وهي كثيرة متشابكة كلها تدفعني إلى الجنون، عانيت طويلًا من فكرة غياب زياد عني وعن كل ما حلمنا به خلال سنوات طويلة، تألمتُ كثيرًا كلما مشيتُ في الأماكن التي كنا نزورها معًا، كشارع المعز مثلًا، لكن أعظم ألمي ومعاناتي عايشتُها حين زرتُ "جزيرة المعادي"، إنها مكاننا المفضل ومأوانا الذي كنا نتجه إليه لاإراديًا كلما التقينا، جلستُ على نفس الأرجوحة ولكن مكان زياد فيها صار خاليًا، و صرتُ وحيدة،

obeikan.com

نصف تائه شريد بلا هدف ولا غاية، الناس كثيرون حولي لكن مكانه شاغرًا في الأرجوحة التي لا تسع إلا اثنين، صرتُ واحدًا وأنا التي لا تستطيع الحياة دون زيادها، لا استطيع التعامل مع الدنيا دون وجوده، ففكرة حرماني منه تُدمرني، فالأمر أكبر من أن يُختصر في كلمة واحدة، إنه الفقد الذي يحرق خلايانا ويُهشم أرواحنا ويسحق مناعتنا، إنه الحزن الذي يعبث بنا دون إرادتنا.

تذكرتُ ذات مرة حين عاتبت زياد على تفكيره في السفر دوني، كنت أحاول إثناءه عن الفكرة وسحبها بعيدًا عن شاطئ أفكاره، أخبرته بخوف يملأني وقلق يعتريني من الأمر برُمَّته، سألني حينها: لما كل هذا الخوف والقلق؟

: أخافُ أن أتوه دونك.

أجابتني حينها عينيه الباسمتين قبل أن يطبع قبلة حانية على كفي وأردف قائلًا: إذا تُهتُ منكِ فاسألي بوصلة قلبكِ، فأنا جهاته الأربعة.

مازالتْ رائحته في كفي، الآن عليَّ أن أدفع الأرجوحة بكل قوتي حتى تتحرك وحين أسقط لن أجد من يُسارع لينهض بي، راقبتُ أرجوحتنا الآن، رأيتها باهتة، لقد أصبحت حركتها بلا معنى، حركة عبثية، حركة لا تبعث على السرور كما كانت من قبل، إنما

حركتها مُملة رتيبة متكررة، حركة بلا روح، بلا طعم، فحتى الطفل لا يجد متعة في الجلوس إلى الأرجوحة إن كان بمفرده، فالبهجة الحقيقية لا تأتي إلا من مشاركة جليس ثان على الأرجوحة.

هاجمتني كل الأفكار السوداء وانهالتْ على رأسي الصغير تسحقه بلا رحمة، حتى أنني بتُّ لا أخرج من غرفتي ولازمتُ الفراش لأسابيع لا أتحدث مع أحد مطلقًا واكتفي بإشارات وإيماءات أُجيب بها من حولي إن هم حادثوني، أصبحتُ مريضة بعدم الاستطاعة وكأن سيارة صدمتني وسقطتُ أرضًا فارتج مخي وفقدتُ كل مهارات التواصل، أقع كثيرًا إذا سرتُ، وأتوه وأشرد وكأنني بلا خريطة، أو كأن المعالم كلها قد مُحيتْ تمامًا من عقلي، والأصعب من ذلك أنه لا يوجد أي معنى لأي فعل أو حركة!

أصبح الإستمرار في الحياة عبئًا ثقيلًا عليَّ، الأمر الوحيد الذي يُسرِّي عني ويجعلني أواصل التنفس هو استعادة ذكرى كل موقف لي مع زياد، رجوتُ الله كثيرًا وتضرعتُ إليه باكية ألا يحرمني منه وألا يحرمني من ذاكرتي وأن تظل كل مواقفه معي وكل كلماته التي قالها لي محفورة في عقلي وقلبي، تتردد آصداؤها داخلي، ممزوجة في وجداني إذا قُدر لي الاستمرار في الحياة، تمسكتُ بقدرتي على التذكر فهي كل ما بقى لي بعد ما صار.

obeikan.com

قدَّرتُ موقف دلال مني، إذ أحاطتني بشيء من الاهتمام وبادرتني بمودة لم أتوقعها أو أتعشم فيها، حاولتْ مرارًا كسر حاجز الصمت بيننا، ولكني لم أكن أقوى على شيء ولا أرغب في شيء، بيد أنها لم تستسلم لانصرافي عنها، يبدو أنها عنيدة إلى حد بعيد، ولكنه عِنْد تُحمد عليه.

وفي ليلة من ذات الليالي الطويلة التي يُجافيني فيها النوم ويذهب بعيدًا عن جفوني، وجدتُها قد دلفتْ غرفتي تحمل كوبًا من اللبن الدافئ المُحلى بالعسل، رفضتُ تناوله في البداية إلا أنها أيضًا لم تستسلم وسارعتْ إلى القسم والحلفان: اشربي وحياة زياد.

أفقتُ من شرودي حين رن اسمه في أُذنيَّ، زياد، يا لها من أحرف مُعطرة بريحان الجنة، لكن من أين لها بالأمر؟ كيف عرفت دلال اسم حبيبي!

طمأنتني بنظرة حانية وقالت: كنتِ تعانين من حمى شديدة وسهِرتُ إلى جوارِكِ أعالج الحرارة بكمَّادات الماء ونطقتي اسمه مرارًا.

ارتعبتُ وأردفتُ: هل سمع والدي ما قلتُه؟

: اطمأني لم يسمع عزيز شيئًا، ولم أُخبره بالأمر ولن أفعل.

شكرتُها، فابتسمتْ ثم تابعتْ حديثها وهي تناولني كوب الحليب.

: كنتُ مثلكِ ذات يوم، عرفتُ العشق وذُقتُ حلاوته وكوتني ناره فلا ترتابي مني ولا تخافي يا عاليا، فأنا لا أحمل لكِ ضغينة.

أمسكتُ بهاتفي الجوال وانطلقتْ نظرة شك وتوجس من عيني نحو دلال، نظرة تحمل رجاء خاص بكتمان الأمر، وكانتْ ذكية بالقدر الذي جعلها تُدرك ما أعني، أردفتْ: لن أخبر عزيز بأمر جوالكِ، أقسمتُ لكِ وسأحفظ قسمي، لا عليكِ، اطمئني.

ابتسمتُ ابتسامة باهتة ربما لا تحمل معنى، إلا أن دلال اعتبرتها ابتسامة عرفان وعربون صداقة، فقالتْ:- عما تفتشينَ في هاتفكِ؟

: ربما حمل لي رسالة جديدة من زياد.

: وإن لم يحمل، لا عليكِ، هوني الأمر على قلبكِ المتعب وطالعي إحدى رسائله السابقة.

لم تنتظر دلال موافقتي على اقتراحها النموذجي، سحبتْ الهاتف من يدي وفتحتْ صندوق الرسائل وشرعتْ تقرأ.

: (كيف حالكَ في الغياب؟)

: (مضطربٌ، كمدمن فقد جرعته الأخيرة! وأنتِ؟)

: (ضائعةٌ، تمامًا كجرعة ذاك المدمن!)

تعثرتْ دمعاتي في كلماتنا التي لامستْ شفتيَّ دلال وأردفتُ:

عجيب أمر الذكريات، مؤلمة وتوجِعُنا جدًا لكنها تكُن أحيانًا ملاذنا ومأوانا!

ساد السكون الغرفة للحظة، اقتربتْ دلال بعدها من سريري وربتتْ على كتفي برفق ثم جلستْ قُبالتي تُشاركني الغطاء ذاته وقد لفحها لهيب الذكريات، تحشرج صوتها ودمعتْ عيناها الواسعتان وشرعتْ تروي حكايتها.

كانتْ دلال بكرًا حين التقيا، أما هو فلم يكن، كانت صغيرة دون العشرين لم تعرف رجلًا من قبل إلا في خيالها، كأمنية أي فتاة تحلم بفارس أحلامها في صورته الطبيعية كزوج، أخبرتني كم كانت جميلة إلى حد جذب الأنظار النهمة وغير النهمة من الرجال إلى مفاتنها الكثيرة، راودها ابن عمها وابن خالها عن نفسها فقاومتْ بشراسة ولم تدع أحدهما يلمس منها مالا تريد، نهرتهما وهددتهما بفضح الأمر وشددتْ عليهما حتى أنهما لم يستطيعا تكرار محاولتهما البائسة معها، كانت أسرتها تعلو كثيرًا على المستوى المتوسط، تتمتع برخاء مادي وزهو اجتماعي معقول وأسلوب مُحافظ في الحياة منبعه اعتياد عميق على التمسك بالعادات والتقاليد أكثر من كونه تدين واعٍ عن قناعة.

أما " مصطفى الشيخ "، هكذا كان اسمه، فكان معتدلًا في كل شيء، لا عيب ظاهر يُشينه ولاعقبة تمنع الزواج به، إنه زواج فرضهُ الحب ووافقهُ النصيب والجميع يتوقعون له النجاح، اعترف لها بآفته الوحيدة وهي تعدد علاقاته غير الشرعية وأقسم لها أنه تائب منذ أن وقعتْ عيناه عليها، وظيفته تُبشر بمزيد من الإرتفاع في الشأن وسيعمل كل ما في وسعه ليضمن لها الإستمرار على نفس المستوى الذي تربتْ وعاشتْ فيه، فقد أحبَّ تلك الغجرية ولا غنى عنها في حياته.

انجذبتْ دلال لوسامته وحُسن حديثه وهدوئه، في البداية أعجبها ثقته بنفسه وآثرها اعترافه لها بماضٍ تشوبه الشوائب، كانت كالعطشان الذي يغمس فمه في النهر لينهل بنهم من ماءه العذب، كان حبه لها كالعسل المصفى وكان حبها له لبن طهور، كانت دلال فتاة متعطشة للحب، للدفء، للإحتواء، لمتعة المشاركة، ونعمة الأخذ والعطاء، والضامن الوحيد لكل تلك السعادة هو أن تظل تُحبه وأن يُغنيها بحبه عن الدنيا كلها وقد كان، تمتعتْ معه بحب متوهج عامًا كاملًا وذاقتْ حلاوته حتى أتمت دراستها الجامعية ثم تزوجا في هدوء.

مرتْ السنوات الأولى هانئة لا يُعكر صفوهما شيء، لم تتوقف كثيرًا عند كونه عقيم، لا أمل لها معه في الأمومة، تخطيا

الأمر معًا دون تحفظ يُذكر، أخبرته أن الابناء ليسوا بتلك الأهمية التي تجعلها تطلب الطلاق من رجل تحبه، احترمها أكثر، واحتوته هي أكثر وأكثر، باتتْ لا ترفض له طلبًا ولا تؤخر له حاجة، مرتْ خمسة عشر سنة كاملة من زواجهما دون مفاجآت ولا أحداث درامية غير وفاة والديها التي جاءتْ بعد أربع أعوام من زواجها في حادث تدافع للحجيج آثناء رمي الجمرات، ابتلعتْ دلال صدمتها ونحيبها وخشيت أن يضيق مصطفى بثياب الحداد كما يضيق بأي شيء يشغلها عنه أو يمنعه عنها، خلعتْ السواد وبررتْ الأمر لضمير يوخزها أن الحزن في القلب، وأن حفاظها على زوجها وبيتها هو خير لها وأبقى وسيسعد ذلك والديها الراحلين.

و حين عاد مصطفى من عمله ذات مساء وتحديدًا في الليلة التي وافقتْ مرور أربعين يومًا على وفاة والديها وجدها امرأة مرحة، جسدها يضج حيوية وأنوثة، لا يعيب جسمها الممتلئ نوعًا أي عيب، فالانحناءات تُزيدها أثاره وتُزيده شغفًا، فمصطفى يعشق صدرها النافر في غرور، عنقها الطويل وشفتاها المُمتلئتان ووجنتاها المُكتظتين، وشعرها الناري المتهدل على كتفيها في غرور، إنها أجمل لوحة عرفها، قرأتْ دلال الرغبة المُستعرة التي تأججتْ في عينيه فأغارتْ عليه غارتها النارية وتعالتْ في غرفتهما

سحابة شرهة من دخان سجائر الحشيش، وغدتْ تُدغدغ رجولته بضحكاتها الرنانة فيُسقطها أرضًا وينهال على جسدها البض بقبلاته الحارة وتوابعها ومضتْ ليلتهما في غيبوبة الحب والنشوة إلى أن أسقطهما الإجهاد في بئر نوم عميق، عانقتْ دلال زوجها ودفنتْ في أحضانه حزنها الهادئ على والديها، أما هو فقد حقق في جسدها المثير انتصاراتٍ عجيبة جددتْ إعجابه بنفسه وزهوه برجولته قبل أن يتهاوى هالكًا جوارها معانقًا لجسدها وكأنه كنزه الثمين.

واستمرتْ بهما الحياة على ذات المنوال، هي تعطي بحب وهو يأخذ بتَعَود إلى أن جاءت " الليلة السوداء"، كانت ذكرى زواجهما الخامسة عشرة، وأرادتْ دلال أن تحتفل بها بكل خصوصية دون صخب الأصدقاء وضجيجهم، رتبتْ مائدة الطعام وملأتها بأصنافه المفضلة من السمك والجمبري وأطباقة المحببة من الاستاكوزا وفواتح الشهية والمقبلات ورغم أنها لا تُحب النبيذ ولا تشربه إلا أنها وفي تلك الليلة تحديدًا أرادتْ أن تشاركه كل شئ فهيأت لزوجها كل ما يُحب واحتفالًا بالمناسبة السعيدة وضعتْ كأسين بجوار قنينة النبيذ لا كأس واحد، استعدتْ كعروسٍ في ليلتها الأولى، دهنتْ جسدها كاملًا بحمام من خليط الكركم والحليب لساعة ثم استحمتْ بصابونة من

الصبار و رطبتْ جسدها بماء الورد الممزوج بزيت الأطفال، فصار بضًا رطبًا ناعمًا في ترف و بهاء، ارتدتْ قميصَ نومٍ أرجواني أحاط جسدها الأبيض كما تحيط النار الحطب فتُشعله وبينما هما معًا في أكثر اللحظات حميمية فإذا بمصطفى ينتفض ويبتعد عنها فجأة صارخًا في وجهها: ما الذي اعتراكِ؟ ما كل هذا البرود؟، أنتِ أسوأ امرأة عرفتها في الفراش، لقد أصبحتِ معدومة الأنوثة، ولم يعد لكِ نصيب من اسمك، دلال، أي دلال هذا الذي تتمتعينَ به؟!

و استمر مصطفى في إطلاق كلماته النارية التي يصوبها نحوها بلا هوادة إلا أنها لم تعُد تسمع، لم تعُد تفهم، تداخلت الكلمات فأصبحتْ غير مفهومة بل أنها لم تعُد ترى أيضًا، لا ترى إلا سوادًا حجب الرؤية تمامًا، غاب وعيها وغاصتْ في الفراش، أفاقتْ في الصباح فلم تجده بجوارها، لقد قتلها و ذبح أنوثتها!

أحدثتْ تلك الهزة العنيفة شروخًا دامية في جدار قلبها فلم تعد قادرة على مسئولية احتواء إنسان بداخله تحت اسم الحب، أي حب هذا الذي حمله له قلبها طوال تلك السنوات، وبين سواد الحال وعتمة القادم استمرتْ بينهما المشاحنات والخلافات وأصبحتْ واقعًا ملموسًا يُلوث حياتهما ويضخ بها مزيدًا من العلقم والمرار، ومن كثرة ما تهدم داخلها ثار غبار التلوث يفسد

obeikan.com

روحها ففقدتْ تدريجيًا صفاءها وتلقائيتها، فقدتْ ثقتها في ذاتها وفي أنوثتها ولم يهدأ روعها فشرعتْ تبحث عمن يُعيد لها ما فقدته، أخبرتني دلال أنها كانت كتراب لا يقوى الهواء على حمله وإنما بعثره هنا وهناك بلا هدف!

هكذا تحولت دلال، لقد أدركتْ ذلك بنفسها واستشعرته، وكان كل التحول يسير في اتجاه واحد، وهو استعادة ثقتها بنفسها كامرأة قادرة على العطاء، قادرة على إسعاد رجل، قادرة على إثارته، قادرة على السيطرة على حواسه، أرادتْ استعادة نفسها ككيان أنثوي قابل للحب وقادر عليه.

لم ترغب وهي الذكية الفاضلة بطبعها أن تصبح امرأة خائنة، فالفضيلة تمنعها عن ارتكاب الرذيلة وذكاؤها يحميها من الإندفاع نحو ما يجعلها لقمة سائغة لندم قاتل، لم ترغب في أن تعاشر رجلًا غير زوجها مهما كانت الأسباب التي تدفعها دفعًا وقهرًا وحرمانًا الى ذلك، ربما كانت الخيانة استعداد موروث وهي لم تُجبل على ذلك، تمنعها تقاليد وعادرات محفورة داخلها من التدني، ثارتْ على مصطفى وتأففتْ من عيشتها معه، ترفضه إن طلبها وتفسد عليه لذته إن أجبرها ثم تسارع الى الاغتسال، تلقي بجسدها المنهك في البانيو لتتخلص من آثار

معركة عصرتها، يكاد جلدها ان يهترأ من كثرة الحك راغبةً في محو كل بصمة طبعها هو في مكان ما، كل أثر تركه بغرور على جسدها، وبمرور الوقت أصبح كل ما يخصه يثير الاكتئاب داخلها، عايرته أنه عقيم لا نسل له ولن يكون.

أهانتهُ وخدشتْ كرامته كرجل، بل انها أرادتْ أن تحطم كبرياؤه، طلقها بعد أن تنازلتْ له عن كامل مستحقاتها كارهة له، وعلى مدى عشر سنوات لاحقة تزوجتْ بثلاث رجال آخِرهم أبي، وفي كل مرة كانت تبحث في عيني زوجها الجديد عن حبه لها ومدى رضاه عنها كأنثى، وكثيرًا أرادتْ أن تسأل مباشرة: هل كنت سعيدًا معي في الفراش؟ إلا أنها أبدًا لم تفعل، ليس خجلًا ولكن خشية أن تصدمها الإجابة وتنقلب حياتها رأسًا على عقب.

تتزوج أحدهم وتظل معه عامين أو ثلاث وتحرص كل الحرص ألا تُنجب من زيجتها تلك حتى لا يربطها برجل ما لا تطيق، مخاوف مشتعلة تدفنها تحت ركام أنوثتها الطاغية، ثم تُهاجمها وسوساتها ولا تُعاودها ثقتها بحالها، تخاف أن يكون استمراره معها بحكم العادة والتعود وترتعب من فكرة أن يتركها زوجها أو يهجرها في يوم من الأيام لذا تُبادئ هي في هجره، تطلب الطلاق وتُصرعليه، دلال تكره الرفض وتخشاه، تُدرك أن

الحب مرتعه القلب اما الجسد فهو مرتع للذة والغريزة، تتذكر دومًا أنها وفي يوم من الأيام كانت صفحة بيضاء كتب عليها القدر أن تكون بلا قلب، فالحب فلسفة والفلاسفة قليلون، فلما تجعل من حياتها عبئا تحمله على وهنٍ؟ فكلنا نُدفَن في التراب فعلام الخسارة؟ إن حياتنا هي أعز ما نملك فلنستمتع قدر استطاعتنا ولا حاجة للآهات..

لا أعرف لما اعترفتْ دلال لي بكل ما قالتْ بل أنها تمادتْ في اعترافاتها حين أخبرتني أنها لم تُحب أحدًا من هؤلاء الرجال حتى عزيز الطوبجي، لم تُحبه لا قبل الزواج ولا بعده، تعرف مُسبقًا أنه سيكون مجرد اسم في قائمة الرجال في حياتها، أقرتْ أنها لم تحب عزيزًا ويبدو أنها لن تحبه ولا تشعر بدفء في علاقتها معه ولكنها لا تعبأ بالمسألة، فالرجل الوحيد الذي أحبته قد ذبحها، أيقنتْ أن لا طاقة للرجال على الحُب، بل أنهم لا يعرفونه ولا يصْدِقون فيه إلا القليل منهم، محظوظة تلك الأنثى التي تجد رجلًا صادقًا يُحبها، رجل صادق مع نفسه ومعها، أما هي فلم تعُد تبحث عن رجل تحبه، فقط تبحث عن رجل يُحبها، فلقد أصبحتْ امرأة عاجزة عن الحب، لكنها لاتزال صالحة للزواج، فلقد حرمها القدر متعة الحب فلتكتفي إذن بمتعة الجنس مادام حلالًا!

هزتني كلمات دلال وأربكني حديثها جدًا، أشفقتُ عليها مما تعانيه، أشفقتُ عليها من شراب اختارتْ بنفسها أن تتجرعه وهي تعلم أنه بلا حلاوة، تُدمن مرارته وتُدركها، وحين يستحيل شرابها فاسدًا تقرر عندها الانفصال وتطلب الطلاق، فلا مبرر للاستمرار في تجرع شراب رغم فساد مُحتواه ومذاقه.

حينها أشفقتُ على زوجة أبي إشفاقًا انخلع معه قلبي عليها، أشفقت على دلال تلك المرأة العاجزة عن الحب التي لا تُفارق زجاجة النبيذ طاولة طعامها..أخبرتني أنها لا تجد مبررًا ولا تستند إلى منطق لتُخبرني بكل ما قالتهُ، لكنها لم تستطع كبح جماح إرادة قوية تملكتها لتروي ما روته.

: لا أعرف يا عاليا لما صرحتُ لكِ بكل ما كان، ربما احتياجي لمن يسمعني، ربما رغبتي في التطهر من دنس أشعره في روحي، ولكن ظني الأكبر هو أني تمنيتُ كثيرًا أن يكون لي إبنة مثلك، عاليا صفاء نفسك ورقة قلبك استدرجاني ولكني غير آسفة على ذلك.

: لا بأس يا دلال، هوني عليكِ، لقد تكدستْ على قلبكِ الذكريات فلم يحتمل إلا أن يبوح، انسي ما قلتِ فكأنني أبدًا لم أسمعه.

وتعانقنا في صمت طويل دون أن نقول أي كلمة بعد ما قد قيل، صَمت يُذيب الجليد، ثم تركتني دلال وانسحبتْ خارج عالمي وتركتني أصارع أفكاري وأهزم انطباعاتي الأولى عن زوجة أبي، لم أكن أتخيل أن ثمة شيء قد يجمعني بدلال لكن الألم والحاجة يخرقان الواقع ليتحول معهما الغير ممكن إلى ممكن والمستحيل إلى جائز والمرفوض إلى مقبول!

مرت الأيام متعاقبة دون فرق يُذكر غير أن علاقتي بدلال باتتْ أقرب وأوضح، فأنا لا أراها بشعة أو صعبة المعشر كما كنت أعتقد، أدركتُ ذلك حين توقفت عن النظر إليها كزوجة أب أو كغريمة لأمي رحمها الله، أصبحنا نحتسي الشاي سويًا كل صباح بعد مغادرة أبي إلى عمله ثم تنصرف هي إلى تصريف شؤون البيت وحقًا كم كانت بارعة في ذلك، حكيمة ولبقة وذات شخصية قوية إلى حد بعيد، كانت دلال تخرج للتنزه قليلًا في الحسين كلما أرادت دون انتظارٍ لموافقة عزيز أو عدمها، فالأمر برُمَّته ليس أكثر من رسالة نصية تُرسلها هي من هاتفها إلى هاتفه ثم ترتدي ملابسها وتفتح باب الشقة مغادرةً بدون النظر إلى هاتفها، ولِمَا يتوجب عليها ذلك، لم تكن أبدًا في انتظار رسالة منه

obeikan.com

بالإيجاب أو بالنفي على رسالتها الصادرة إليه ولا تنتظر منه مكالمة على جوالها، سألتُها ذات مرة: لما ترسلينَ إليه إذن مادُمتِ في غنى عن الرد ولا تنتظرينَ الإذن منه؟.

أجابتْ بكل ثقة: فقط ليعلم أني لستُ في البيت، فالأمر لا يحتمل أكثر من ذلك.

كم عشقتْ دلال الغورية وأخبرتني أنها وقعتْ في غرامها ولا تدري كيف يمكنها أن تُخرجها من عقلها إذا ما فارقت عزيز يومًا، فلابد لها حينها أن تستأجر شقة في تلك المنطقة أو ربما باعت بعض أفدنتها لتشتري بدلًا منها بيتًا هنا في الحسين أو في الغورية أو حتى في الدرب الأحمر.

أما أنا فأصبحتُ شبه منعزلة عن البيت، مقيمة في غرفتي ولا أبرحها إلا عند زيارتي للحمام، تُحضر لي دلال مشكورة الطعام على صينية وتضعه بجواري لعلي أتناول بعضه حين تؤلمني معدتي من الجوع، ولأول مرة يستشعر أبي فداحة الأمر وأني حقًا أُعاني من شيءٍ ما، أو أني ربما على مشارف النهاية، أخبرتْهُ دلال أنني لستُ على ما يرام، بيد أنه لم يرغب وربما لم يقدر على الإقتراب مني ولا أن يكون لي سندًا وعونًا، لكنه ولأول مرة منذ سنوات يتصل هاتفيًا بشقيقي عدنان ويُخبره بأمري، بل يطلب منه

أن يحضر إلى القاهرة ليرى ما يمكنه أن يفعل، فعليه الآن أن يتحمل مسؤولية أخته العليلة بلا سبب واضح، فعزيز الطوبجي لا يريد أن ينشغل بشيء عن عروسه الحسناء التي أعادتْ له الحياة وجعلتْ الدماء تسري في عروقه من جديد.

لم يتأخر شقيقي الحبيب أبدًا، بل أنه حضر مع زهرة التي أصرتْ على الحضور معه لتراني رغم تعليمات الطبيب لها بالحركة في أضيق الحدود حفاظا على جنينها، لم يسمح أبونا لزهرة بالدخول إلى جنته،فانتظرتْ المسكينة عدنان عند جارةٍ لنا في نفس الطابق، لم ينس عزيز أنها تزوجتْ ابنه رُغمًا عن إرادته، كان مقتضبًا كثيرًا وجافًا خشنًا مع عدنان حين وقف يحادثه عن مرضي، ولم يتحمل عليَّ أن يراني أمامه مُمدة في سريري جثة هامدة لا أقوى على الحركة ولا طائل لي بالكلام، لم ينتظر رأي أبي ولا طلب إذنه أو قراره بشأني، حملني كما يحمل الأب ابنته وانصرف.

تبعنا عدنان يحمل عني حقيبة صغيرة كانت دلال مشكورة قد جمعتْ لي فيها كل ما يُخصني، وأخيرًا شاء الله لي أن أتحرر من ذاك البيت الملعون، حرية نلتُها ودفع ثمنها حبيبي زياد هناك في محبسه، وحيدًا، مغتربًا، لا أمل له ولا عون.

وانتابتْ عزيز الطوبجي نوبة عارمة من الغضب وانهال على عدنان بالسباب وسط الحارة ورفع يده ليصفعه على مرأى

ومسمع من المارة إلا أن عليّا قد أمسك بيده ودفعه إلى الوراء مدافعًا عن كرامة شقيقه الأكبر ورجولته، أخبراه أني أبدًا لن أعود إلى داره وناره وأني من الآن فصاعدًا مسؤولة منهما، فلا داعٍ لأن يشغل حاله وباله بي وبأحوالي، فعليه أن يتفرغ لزوجته الشابة وينهل معها من نهر العسل ما طاب له، فالتفكير فينا خسارة لا تستحق أن يُكلف نفسه بها، أقنع أبونا نفسه بالأمر، ربما لم يكن اقتناعًا بقدر كونه إدراكًا لواقع جديد عليه لم يعرفه من قبل.

ربما أدرك أنه لن يستطيع الآن أن يملك أولاده بالقهر والتسلط والإرغام والإجبار وقد صاروا كبارًا مسئولين عن حياتهم، وقراراتهم، أقنع نفسه أنهما قد عقَّاه، ومصيريهما النار خالدين فيها أبدًا، أما أنا فكنتُ أراه قد حرم نفسه منا ومن حبنا كما حرمنا صغارًا من حبه وحنانه بقسوته وتسلطه وجبروته، والآن أدركتني رحمة ربي الواسعة وآن الأوان أن أتحرر أنا أيضًا من إرادته وجبروته وأُحلق بعيدًا حرة طليقة إلى سماء رحبة واسعة لعلي أتنفس من جديد...فماذا ينتظر من يقسو على طيوره الوليدة سوى أن تشرد بعيدًا عن سمائه مُلتمسة الحنان والأمان والدفء في عش آخر؟؟؟

بعدما اطمأن عدنان على حالي، فبمجرد خروجي من نار أبي استطعتُ السير على قدميّ من جديد، رحل عني تيبسٌ سكن بهما فترة مرضي، زار عدنان خالته صفاء في مسكنها واصطحبها إلى بلدتها الصغيرة في إحدى ضواحي المنصورة، "الست صفاء" والدة زياد، تلك السيدة الصابرة المؤمنة بقضاء ربها التي لا تنقطع عن الدعاء لابنها، يلهث لسان حالها بذكر الله كي تطمئن روحها ويهدأ روعها، لا تنفك تدعو لوحيدها أن يُفرج الله كربه ويُهون عليه مُصيبته، فقد هاتفها زياد من محبسه راجيًا إياها أن تعود إلى المنصورة، موطنها الأصلي حيث أخاها الوحيد، فلتسكن إليه وتكون محل رعايته وعنايته حتى يطمئن بال زياد ناحيتها ويستطيع أن يتصبرعلى كل ما هو قادم إن هو عرف أن أمه الآن في حمى خاله، وأنها لن تحتاج إلى مساعدة أحد أو طلب العون من أحد، فالحاج عيسى خاله رجل طيب المعشر، كريم الخلق، يعيش وحيدًا بعد رحيل زوجته منذ عامين وزواج ابنتيه الكبرى في المنوفية والصغرى في بنها، أرسل زياد لعندنان توكيلًا مصرفيًا يتيح له سحب رصيده في البنك كما أرسل له المبلغ المتواضع الذي تبرع به زملاؤه في الغربة في محاولة منهم لدفع الدية إلا أنه لم يكن كافيًا، فاستأذنهم زياد على استحياء في إرسال المبلغ لوالدته عساها تنتفع به بدلًا عنه.

كل ما أراده زياد أن يُودع عدنان إجمالي المبلغ وديعة في البنك تضمن لأمه المسكينة عائدًا شهريًا يُغنيها عن العمل، فلم تعد صحتها تسمح بمواصلة الشقاء، احتج جسدها وأطلق ألسنة احتجاجه تصرخ هنا وهناك، فالدوالي افترشتْ ساقيها وأصبحتْ لا تستطيع الوقوف إلا قليلًا، أصابها قصور في القلب وأوجاع في الكُلى كمضاعفات لإرتفاع ضغط الدم الذي تعانيه من سنوات ليست بالقليلة، يعرف أن خاله عيسى رجل طيب لن يضن بشقيقته صفاء يومًا، لكن أحواله المادية لن تسمح له بتحمل التكاليف التي تحتاجها شقيقته شهريًا لتفادي حدوث مضاعفات غير محمودة لأوجاعها، كما أن المعايش أصبحت قاسية بالحد الذي يجعل الرجل يشقى بمن يعول ولا حاجة لزياد في إتعاس خاله ولا رغبة له في ذلك، ستعيش الست صفاء معززة مُكرمة في غياب زياد ولن تكون عالة على عيسى أو غيره.

نفذ عدنان كل ما أراده زياد حرفيًا، اطمئن على الست صفاء في المنصورة ورتبَ لها حالها وضمن سهولة وسلاسة حصولها على العائد الشهري لوديعة زياد، استودعها لدى شقيقها الحاج عيسى على أن يزورها كلما سمحتْ الظروف وكلما حصل على إجازة من خدمته في العريش.

مرتْ الشهور وتخرجتُ والحمد لله وحققتُ أول ما طلبه زياد مني وشعرتُ أنني أُهديه تخرجي ونجاحي، حاولتُ الإتصال به مرارًا لكنه لم يكن أبدا يُجيب، راسلتُه مرات ومرات أحكيه وأقصَّ عليه تفاصيل حياتي كلها، أردتُ أن أشاركه كل ما يحدثُ معي، ولكني لم أستقبل منه أي رد أو أي تعليق!!!

كان زياد محور حياتي ونبض قلبي وشرياني، إنه ذاك الذي يبقى في ذهنك كل الوقت قريبًا كان أو بعيدًا، إنه يملك من قلبي الكثير، بل يملك قلبي كله، نبضه وشراينه وأوردته، يبدو أني هالكة دونه، فوضتُ أمري إلى الله تعالى واستعنتُ بالصبر والصلاة وبحب أخواي وزهرة لي فأنا في غمار محنة قاسية وعشمي ألا يتركني ربي كسفينة فقدتْ شِراعها، تتلاعب بها أنواء الحياة، وبالتدريج استقرتْ السكينة في قلبي المُلتاع دون أي يلوح أي ضوء في حياتي المظلمة، تخرج علي أيضًا وكان من الصعب بل بدا له مستحيلًا أن يجد عملًا يتناسب مع وضعه الجديد كصيدلي حديث التخرج وسط زحام القاهرة التي باتتْ ترقد فوق أجساد ساكنيها فتكاد تخنقهم، كما أنه رفض أن يعمل كمندوب للمبيعات في إحدى شركات تصنيع الأدوية أو المستلزمات الطبية كمعظم رفاقه الذين لا يملكون رفاهية إفتتاح الصيدليات الخاصة بهم لهذا فهم يقبلون بذاك العمل كبديل مؤقت أو دائم.

استطاع عليٌّ وبمساعدة صاحب الصيدلية التي كان يعمل بها مناوبًا ليليًا أثناء فترة الدراسة أن يحصل على فرصة ثمينة قدمها له الرجل كمكافأة منه لصيدلي شاب مبتدئ يرى فيه خيرًا كثيرًا، طلب من علي أن يُراسل شركة لصناعة الأدوية ومستحضرات التجميل في الإسكندرية، ذكّى الرجل طلب علي وأرفق بالطلب بطاقة توصية للمدير العام لهذه الشركة، فهو زميل دراسة وصديق قديم لا يرد له طلبًا، أشاد الرجل بكفاءة علي ومهارته التي ظهرتْ جلية طوال الثلاث سنوات الأخيرة التي عمل فيها عنده حتى أنه كان يترك له تحضير تلك التركيبات الخاصة التي يوصي بها الأطباء لمرضاهم أحيانًا، كما أنه كان يترك الصيدلية ليلًا تحت تصرف علي الكامل ودون إشراف صيدلي آخر أكثر خبرة من شقيقي ثقةً في ذكاءه ومهارته وأمانته أيضًا، صحيح أنه بدأ العمل في الصيدلية كمندوب توصيل الطلبات إلى المنازل في الفترة المسائية لكنه أظهر نبوغًا وفطنة وحفظً سريع للأصناف الدوائية المتداولة في السوق وبدائلها، فتحمس الرجل له وساعده في الحصول على وظيفة تتناسب مع دراسته ومهارته في شركة للأدوية في منطقة السيوف بالإسكندرية، اجتاز عليٌّ اختبارات القبول بسهولة وتم تعيينه في مصنع الشركة

obeikan.com

هناك، طلب مني أن أصحبه إلى هناك، مدينة جديدة ربما تحمل لي بين جنباتها حياة جديدة، فلا يمكن أن يتركني هنا وحيدة في بيت جدنا الراحل، ولا يمكن أيضًا أن أسافر إلى العريش حيث عدنان وزهرة، كما أن عزيز الطوبجي لن يسمح لي أن أعيش بمفردي في بيت جدي، ليس حبًا في ذاتي ولا رغبةً فيّ، فأنا لا أعني له شيئًا ولكن حبًا في التسلط والتحكم في شخصي الضعيف، استقر الخوف من عودتي إلى بيتنا القديم في قلبي، فقررتُ الرحيل مع عليٍ إلى الإسكندرية، أتلمس الأمان فلا يمكن أن أعود دمية في يد عزيز الطوبجي يحركها كيف يشاء ومتى يشاء.

هاتفتُ دلال وطلبتُ رؤيتها على انفراد، ربما أردتُ مشاورتها في الأمر، لا أعلم، غير أني شعرتُ برغبة في لقاءها وتوديعها، فلا يمكنني الرحيل دون وداع أُخصها به، دعتني لزيارتها في البيت وستحرص على ألا يكون عزيز موجودًا حينها، لكني اعتذرتُ لها، فلستُ مهيأة نفسيًا لتلك الزيارة الآن ولا أريدُ دخول البيت ثانية فقد كنتُ حبيسته لسنوات، تفهمتْ دلال حالي وتقابلنا في حديقة الأزهر، لاحظتُ أنها كانت تبدوعلى غير عادتها، فارقتْ وجهها الصبوح تلك الضحكة الجريئة التي كانت تُميزه، كان وجهها صامتًا، فسألتُها

هل هناك شئ يعكر صفوها؟ هل أزعجها عزيز في أمرٍ ما؟ أجابتْ بفوضوية وهي تعبث بخصلة من شعرها الذي صبغته بحمرة غجرية قائلة: " إن في حياتي رجلًا آخر".

يبدو أن نظرة الإندهاش التي طلتْ من عينيَّ أربكتْها وجعلتها تتراجع عما كانت تنوي إخباري به، استدركتْ الأمر، وجلجلتْ ضحكتها الرنانة من جديد وتابعتْ قائلة:- لا عليكِ عاليا، لا تكترثي كثيرًا لما أقول، فإنها ثرثرة فارغة.

حاولتُ أن أُعيد دفة الحوار إلى ما كان عليه، أردتُها أن تحكي وتحكي، فضول وحماسة لم استطع معهما صبرًا لكنها أصرتْ على الإبتعاد نهائيًا عن بؤرة الأحداث، كانت سيطرتها على نفسها هذه المرة تفوق الوصف!

مر وقتنا سريعًا، أخبرتُها بما أنتويته من رحيل، باركتْ دلال سفري الى الإسكندرية وشجعتني عليه، أخبرتني أنها ستفتقدني بشدة، كانتْ متشككة في تصديقي لما تقول، لكني اقتربتُ منها واحتضنتها قائلة: أعرف أنكِ صادقة وصريحة، أنا ايضًا سأفتقدكِ جدًا وأفتقد ثرثرتكِ المثيرة.

حين خلوتُ الى حالي أخذتُ اتساءل " هل يستحق عزيز الطوبجي أن تخونه زوجته وأن يكون لها عشيق، هل يستحق أبي ذلك؟" لا أعلم!

obeikan.com

لكن على كل حال لا يمكنني أن أخبره بشيء وإن كان من غير المقبول أن أداري على خيانة زوجة أبي له، لكن أي خيانة أقصد؟ هل خانت دلال عزيزًا فعلًا أم أنها لم تفعل بعد، وحسبها أنها لن تفعل، أخبرتني من قبل أنها تكره الخيانة وتمقتها ولا يوجد ما يجبرها عليها أو يدفعها نحو أحضان عشيق غريب، بالتأكيد ستطلب الطلاق من عزيز كعادتها إن هي أرادتْ غيره، أو لعل الأمر برمته هو بمثابة الصفعة التي يجب على أبي أن ينالها كجزاء له على كل ما اقترفه في حق أمينة عبد الرحمن حافظ، أمي المسكينة التي لم تطب لها الحياة معه على الرغم من إخلاصها الشديد له وتفانيها في خدمته وإرضائه وعنايتها الشديدة به وببيته!

وللحق لمحتُ طرف سرور خلفتْه شماتتي في عزيز، وإن كان من غير الجائز أن أشمت فيه، لكنه هو المسئول قطعًا عن كل ما أشعر به نحوه من نفور ونكران، تهكم وسخرية شعرتُ بهما حين تخيلت "عزيز الطوبجي" وهو الرجل الحريص دومًا على أن يطوله الجميع باحترام شديد يكاد يصل إلى حد التبجيل، هو ذاته عزيز الذي ستتشدق الألسنة باسمه لو تم اكتشاف خيانة زوجته له إن هي خانته!

obeikan.com

أحببتُ الإسكندرية ووقعتُ في غرام تفاصيلها منذ الأيام الأولى لنا فيها، يبدو أن جلوسي أمام البحر واستنشاقي لرائحة اليود كان لهما أكبر أثر في نفسي وكأن الدماء قد ضُخت من جديد في خلاياي، تذكرت كلمات الراحل صلاح جاهين حين قال عنها: الإسكندرية ترنيمة الزمان ومعشوقة التاريخ، لا أدري إن كنت أسكنها أم أنها تسكن وتتوسد حناياي.

كم كان جاهين محقًا، فالأسكندرية كالمغناطيس تجذبك إليها وإلى كل تفاصيلها، تصبح أنت بين جنباتها مُلتاعًا، هائمًا، بين المد والجزر، بين النوارس والأصداف، تلك هي الإسكندرية، مدينة تبدأ فينا وتنتهي، يسري عشقها بين الشرايين والأوردة، حبها يسكن القلب ويسحر العقل، نتنسم فيها عبق التاريخ وجمال روحه وسحر عشقه، الإسكندرية خميلة الشعراء والمحبين، سكنتني روح جديدة منذ أن وطأتْ قدماي تلك الغجرية الساحرة، أردت أن أعرف وجوه جديدة وأستشعر أرواحًا خلاقة، وانغمست في حياتي الجديدة مُنكبة على كل تفاصيلها، وكأن القدر يُخبئ لي هناك روحًا لي لم أعرفها من قبل!

أردتُ أن أنسى أنينًا سكنني ومزق روحي، لم أفهم سر إقبالي على حياتي الجديدة التي بدت لي ملونة رغم غياب زياد

obeikan.com

عني، أردت أن أمتلك حياة أمزق فيها أوراقي التي سطرتها في سنوات عمري الماضية، شكرًا للإسكندرية التي شعرت فيها وكأني جنية جميلة تطير محلقة في سماء واسعة بلا خوف، بلا ألم، بلا ذكريات قاتمة تُغلق عينيَّ فلا أكاد أبصر، هناك في القاهرة انسدتْ الطرق تباعًا، شعرتُ وكأن روحي تأبى أن تستقر، أن تهدأ، ويأبى عقلي أن يسكن عن تفكير يسحقهُ، رأيت إقامتي في الإسكندرية كأنها تُزيل الغمام عن سمائي وتلطف الجو وتنعش الهواء حولي، فربما يأتي القمر في غير مواعيده هنا! أردت استرداد قوتي المهدرة وكرامتي المبعثرة وقدرتي على اتخاذ القرار، أردت أن أحتفظ بحب زياد بين جنبات قلبي بعيدًا عن عيون من حولي، بعيدًا عن أسئلة المتطفلين اللزجة واستهجانهم، أردت أن أُدلل قلبي الواجف فلعله يطمئن.

انشغل شقيقي علي بعمله في شركة الأدوية، أراد أن يحقق توازنًا هامًا في حياته،، توازن آمن هو بماهيته، كان حريصًا على إثبات جدارته واستحقاقه للوظيفة، كم طاقت نفسه ليُقنع رئيسه المباشر بقدرته على إنجاز ما يُكلف به، كان يتطلع إلى العمل على تركيبات جديدة لبعض صنوف الأدوية الباهظة الثمن

واستبدالها بأخرى تكون في متناول الفقراء والمرضى ذوي الحاجة، كما حرص على قيام علاقة حقيقية من المودة والألفة بينه وبين زملائه ومن هم أقل منه من العمال والمشرفين عليهم، أخبرني أنه يتوق جدًا أن يكون لنا هنا معارف وعلاقات حسنة بالجيران ومن حولنا ومن يتعامل معنا.

: لا أحد يعرفنا هنا يا عاليا، بمقدورنا أن نصنع لنا هنا عائلة وأهل ومعارف، لا أحد هنا يعرف عزيز الطوبجي وما كان يفعله بنا، لم نُصفع هنا أمام أحد، لم نهتز أمام أحد، لم نُهان، لم نُعاقب، فلتسعدي هنا يا عاليا، فلسنا بحاجة لاستعادة كل المشاهد القديمة، فلن يقذف عزيز هنا في وجهكِ صينية الطعام لأنكِ نسيتِ شيئًا.

فرت الدموع مني حين تذكرت بعضًا من مشاهد قسوة أبينا وجبروته، أردت أن أحبس دموعي فلا يراها عليٌ، لكنه سارع بمسحها بحنان، رأيته رجلًا يافعًا وليس ذاك الذي كان يختبئ مفزوعًا حين يسمع المفتاح يتحرك في مزلاج الباب معلنًا عن قدوم المارد الجبار.

حاضر يا علي لن أبكي هنا وسأحاول نسيان تلك السنوات الجافة بكل ذكرياتها المؤلمة.

مـرت أيامنـا الأولـى في محاولـة منـا لاستكـشاف منطقـة السيوف وما يحيط بنا في سكننا الجديد ثم تفرغ علي لعمله كما أنه كان حريصًا على إعداد معمله الخاص في غرفة صغيرة في آخر ممر طويل للغرف في شقتنا الجديدة ليُجري هناك تجاربه ويُعد تركيباته دون خشية أو خوف يملأ الصدر من أن يتعرض أبيه لمعمله وأدواته بالتهشيم أو يقذف بأنابيبه وقنيناته من النافذة، فتلك خزعبلات يراها أبونا سخيفة ولا حاجة له بها في بيته العامر.

أما أنا فقد انغمستُ في ترتيب عشٍ صغيرٍ أنيقٍ يجمعني بشقيقي الأصغر دون خوف أو رهبة من بطش عزيز الطوبجي الذي ما أن علِم برحيلي إلى الإسكندرية مرافقة لعلي إلا وانتابته حالة من الغضب والتخبط، كما خطط لإنتزاعي من دنياي الجديدة، إلا أن دلال مارستْ عليه كل ألوان الضغط الأنثوي الذي تجيده ببراعة حتى يتركني لحالي، كم شكرتُ لها هذا، وأدركتُ أن زواجها من أبي كان رحمة واسعة من الله تعالى لتغدو درعًا حاميًا لي، فلا تقع بيننا كثير من المواجهات وكما أنها أصبحت بالفعل تخفف عنا بعضًا من حدة طبعه وقسوة قلبه، "شكرا دلال"، عبارة قصيرة لكنها كانت من أعماق قلبي أنهيتُ بها المكالمة الهاتفية التي دارت بيني وبين الحسناء الغجرية ذات

الشعر الأحمر عندما أخبرتني بما كان ينوي عزيز بيه فعله وبما انتهى إليه الأمر بعدما حاصرت دلال غضبه وأخمدت بركانه.

شجعني جو الأسكندرية الممتلئ بعبير اليود المُختلط بماء البحر ونسيمه أن أستنهض همتي المُتداعية في محاولة لبعث رغبتي في الحياة من موت اعتراها، استغرق مني الأمر الكثير من الوقت، ولأشحذ همتي كنت أذكِّر نفسي دائمًا بأوقات سعيدة قضيتها فيما مضى، أمنح خيالي صورًا من الذاكرة أعيد نسج التفاصيل أو استرجع الحكايا والضحكات، ففي ذاك العالم الصور أجمل وأكثر فرحًا وخفة، فالخيال الصامت أرضه خصبة وماؤه عذب ونسيمه فواح بأريج الفانيليا الذي أعشقه، أرى نفسي هناك بين أحضان أمي الحبيبة التي مازلت أتنفس عبير مودتها وحبها لي، مازلت أشعر بنعومة يديها ودفأهما حين كنت أبكي خوفًا من جبروت عزيز الطوبجي، لذا ابتكرت عادة الرجوع إلى صوري الفوتوغرافية القليلة التي كان يلتقطها لنا عدنان بكاميرا صغيرة كان جدي رحمه الله أهداها له مكافأة على تفوقه في الشهادة الإعدادية، لم يكنْ أبي يعلم شيئًا من أمر تلك الكاميرا، فقط احتفظنا بسرها في صندوق الأسرار الذي كنا ندفن فيه كل ما نخشى أن تدركه يدا أبينا فنراه وقد أدركه التمزق أو التهتك.

كلما رأيت هذه الصور مع تلك التي يكتظ بها جوالي والتي تجمعني بزياد في حي الحسين الذي شهد مولد حبنا وأيام الأحلام الوردية، أو صورنا من أعلى نقطة في القاهرة، من برج القاهرة، أو تلك التي التقطناها بملابس تنكرية ارتديناها في مدينة الملاهي حين أصّر حبيبي على الإحتفال بعيد ميلادي الأخير، هناك ارتديت الملابس الخاصة بالأميرة سندريلا، اختارها زياد لي مبتسمًا وأقسم أن سندريلا لا تحمل نصف جمالي ولا رُبع رقتي، وارتدى هو ملابس أميرها، سألته: لما اخترت لي ملابس سندريلا بالذات؟

أجابتني ابتسامته المرحة قبل أن تصلني كلماته ثم أردف: ببساطة لأن كلمة سندريلا تعني (ذات الحذاء الزجاجي الصغير) وقدمكِ صغيرة حبيبتي ولم أر أصغر منها في حياتي، تبدو كقدم طفلة في الصف السادس الابتدائي، ويقال أيضًا أن سندريلا تعني (فتاة الرماد) نظرا لما كان يعلق بثيابها من رماد، أي كان الأمر فأنتِ سندريلتي، فهل تُمانعين أميرتي؟ أطرقت عيناي خجلًا فتابع: وما حبكِ إلا قمرًا أنار لي كل عتمة.

أفقتُ من خيالاتي وطالعت الصورة من جديد، شعرتُ وكأني أحيا من جديد في عالم آخر ينبض بالحب والجمال

والحيوية، بإختصار أختلس لحظات من الزمن تخالف تمامًا ما انتهى إليه الحال، أرفض أن استسلم لرثاء النفس، فقط استمتع بفرحة أفتقدها وأشتاق لمذاق الأمل الرائع فيأتيني صوت حبيبي من بعيد قائلًا: "أنتِ أرقى النساء، أنتِ إمرأة أختصرت النساء جميعًا في عيني ثم سكنت شراييني"..

أدركُ حينها أن القليل من أسباب البهجة قد يُسعدنا بحق إذا عرفنا له قيمة ودربنا أنفسنا على الاستمتاع به، عرفت ذلك هنا في مقامي الجديد كأن حواسي قد تنبهت لذلك وأردت الإحتفاء بالقليل الذي يُتاح لي من أسباب الراحة والهدوء على أمل ووعد للنفس بلحظات قادمة من الغد البعيد ستأتي تحمل معها نسائم الحب والسعادة.

ابتدعتُ لنفسي طقوسًا يومية وأخرى أسبوعية في محاولة جادة لاستهلاك كامل طاقتي وإفراغ محتوى بطاريتي من كل ألم أو يأس ينتابني، فغياب من نُحب تمامًا كغياب اللون عن الصورة، هو لا يفقدنا الحياة إنما يفقدنا طعم الحياة، لكني جاهدتُ نفسي في محاولة للسيطرة على آشلاء تؤلمني، فكنت أتمشى يوميًا في الصباح الباكرعلى شاطئ البحر، أشعر حينها أن رئتيّ تتفتحان من جديد كما تتفتح الزهور في الربيع، وفي طريق عودتي للمنزل ابتاع

بعض الأزهار من "عم ربيع"، المثال الحي لإنسان حاضر الذهن، سريع البديهة، يترنم بأشعار ابن الرومي ليل نهار، ينتشي بالكلمات والأبيات فتخرج من شفتيه نابضة بكل الحب، عم ربيع ذاك الرجل الذي ينبض بالحياة ويعزف بكل حيوية على أوتار الشوق رغم أنه يسكن وحيدًا بعد رحيل رفيقة دربه وحب عمره، "فردوس" الذي عاشرها خمس وأربعين عاما لم يتوقف فيها يومًا عن مداعبتها كطفلته الصغيرة ولم يتركها ليلة تبات وهي غاضبة منه كما قد يفعل بعض الأزواج، كما أنه لم يفارقها ولو يومًا واحدًا قبل رحيلها عن دنيانا، كان مُلازمًا لها في محنة مرضها الشديد الذي هاجم جسدها وافترسه افتراسا ولم يتركها إلا جثة هامدة، كم كان "عم ربيع" مُحبا لها، عاشقًا لتفاصيلها، حنونا، عطوفًا، يهديها " النرجس" زهورها المفضلة كل صباح.

أصبحتْ ترى الدنيا بعينيه عندما أهلك المرض عينيها وحرمها نعمة الإبصار، أحبته فردوس حبًا جمًا، نعم لقد حرمه الموت فردوسًا، لكنه لم يحرمه حبها الذي ظل نابضًا بين ضلوعه، آمن بها وأحبها مبصرة وضريرة، متعافية وعليلة، أحبها وردة متفتحة بكامل البتلات وذابلة جافة بلا بتلات، استطاع أن يمنحها حياة زاهرة بالحب فمنحته ذكريات زاخرة بالشوق، هيأ لها عيشًا رغدًا

بالأمل لا بالمال، كانت تتحسس وجهه كل صباح لتعينه على تحمل أعباء الحياة وتتحسسه كل مساء لتمنحه أملًا في غد أفضل.

كم من تنهيدة حارة كان يطلقها "عم ربيع" حين كان يسرح في ذكريات جميلة جمعته مع فردوس، المرأة الوحيدة التي كانت ومازالت وستظل معشوقة قلبه وتوأم روحه، كانت فردوس قصة عشق أبت الكلمات أن تصفها فانتحرت حروفها تحت قدميها حين ماتت.

عم ربيع: أي متعة تلك التي وهبتها فردوس لي في حياتها وتركتها لي بعد مماتها، لم تمنحني أولادًا أتذكرها كلما رأيتهم، لم يكن في وسعها ذلك، لكن فردوسي منحتني حب الحياة التي أظن أني لن أفقده أبدًا ولن يستطيع الموت أن يحرمني منه، فردوس كانت ومازالت حب العمر، الحب الذي يملأ القلب ويحتل فراغاته فيشطب كل ما قبله، ولا يسمح لآخر أن يأتي بعده.

: ألم تحبي يا صغيرتي؟... هكذا فاجأني سؤاله ذات يوم، نكأ جرحًا لم يندمل، فلم أجب سوى ببعض العَبَرات التي سقطت دون إرادة مني.

فأردف قائلًا: أتعرفين ما هو الحب؟؟ الحب وديعة يضعها الله في القلب فتتجلى منها كل المعاني السامية، الحب هو تلك

obeikan.com

القوة السحرية التي تنبت لكِ في كل يوم زهرة جديدة، الحب هو طاقة الأمل التي تُعينك على تقبل نوائب الدهر، الحب هو الإيمان بالله الذي يُعمر القلب ويدفع اليأس بعيدًا عن روحك الطاهرة البريئة، الحب هو الثقة دائمًا أن غدًا أفضل كثيرًا حتى وإن اجتمعت عليك مصائب الدنيا أجمع.

أتعرفين لما أسميتُ دكاني المتواضع هذا بجنة الفردوس؟؟

: لماذا؟

: عندما رحلتْ فردوستي عن عالمنا، أحسستُ أن فراقها أمر عسيرعليَّ، فقد كنت قد ارتبطتُ معها برباط وثيق، كنت أتظاهر أمامها أني مُتماسكٌ، قويٌ، أبث في نفسها العليلة حب الحياة لتتمسك بها وتحارب معركتها الأخيرة مع السرطان بشجاعة وثبات حتى في لحظاتها الأخيرة والوجع يعتري جسدها النحيل ووجهها الشاحب المتشرب بصفرة الموت، كنت وإياها نعلم يقينًا أنها الأيام الأخيرة وربما السويعات الأخيرة، لكنها سألتني مبتسمة: كيف ستعيش من دوني؟ فأنا لا أخشى الموت لكني أخشى عليكَ من الوحدة.

: سأراكِ كل يوم، هناك في جنة الفردوس، جنة سأحققها لكِ على شاطئ البحر في تلك البقعة التي شهدت ميلاد حبي لك حين

obeikan.com

رأيتك لأول مرة، أتذكرين؟ كُنتِ ممسكة بعصا طويلة تعبثين بها في الرمال وإلى الآن لم تفارق صورتك مخيلتي بشعرك الأسود سواد الليل ووجهك الأبيض بياض النهار!

ثم جذبتني حبيبتي نحوها، فاقتربتُ منها وقبلتُها بعمق احتجناه معًا على وجنتها الشاحبة، تشبثتْ يدها بيدي، فأمسكتُ بها وضغطتُ كفيها بين يداي وهمستُ لها: ألا ترين حبيبتي تلك السفينة التي تظهر وتختفي هناك في عرض البحر؟ إنها تلك السفينة التي سنعتليها العام القادم في رحلة حول العالم كما كنتِ تحلمين، آسف لقد تأخر تحقيقي لحلمك الغالي، لكني أعدكِ أن نحتفل معًا بعيد زواجنا القادم على متن تلك السفينة.

جذبتني فردوس نحوها أكثر وأكثر وقالت بهون وحروفها ترتعش فوق شفتيها: ضمني إليك، اربط ذراعيكَ حولي حتى تُجهِز على آلامي، فأنت ضمادتي تلك التي توقِف النزف.

احتضنتها بقوة وكأني أخبأها داخلي وانهلتُ عليها أقبِّل وجهها وعنقها وكفيها بلا وعي، فكلماتها أفقدتني قدرتي على التوقف.

فإذا بها تهمس لي: كثيرة هي ذكرياتنا حبيبي وكأننا عشنا ألف عام، اطمئن لن تكون وحدكَ، سأزوركَ في أحلامك كل مساء.

ثم ابتسمت حينها حبيبتي ابتسامة رقيقة عذبة، كانت ابتسامتها الأخيرة، تلك الابتسامة التي أحتفظ بها في ذاكرتي

وأتزود بها وأستعين بها على حالي حين أشعر أن اليأس يدق بابي.

قلتُ: أي جمال و روعة تلك التي أحدثتها فردوس في نفسكَ يا عم ربيع، كم أنتَ محظوظ بحبكَ.

ابتسم قائلًا: بل أنا محظوظ بحبها لي.

عندما خلدت إلى نفسي في المساء، جلست في شرفتي أراقب النجوم، استعدت كل ما سمعته اليوم من عم ربيع الجميل، العاشق الولهان، الذي يعيش في جو من المرح والسرور رغم كل ما به من ألم الفراق ولوعة الشوق ونار الوحدة، أحسست بنشوة وربما بتفاؤل زرعه عم ربيع دون أن يدري في روحي، كم من طاقة إيجابية شحذني بها الرجل دون أن يدري!

داعبني نسيم الخريف وشممت ريح زياد، زارني طيفه ولا أكون صادقة إن قلت أني تذكرته، فزياد لا يُنسى أبدًا، وأنا لم أنساه لأتذكره، استدعيت ثقتي بالله وسارعت بنفض هزة يأس اعترتني حين زارني طيفه، يأس ورجاء، خوف وأمل، شك ويقين كل ذاك ينطلق حولي يرفرف هنا وهناك وأنا أمسك دفتري الصغير لأسطر رسالة جديدة إليه في محبسه لعلها تخرجه عن صمته الصلب ويتحرر لسانه فيحادثني أو على أقل تقدير يتحرر قلمه فيخُط لي رسالة أحترق شوقًا انتظارًا لها.

obeikan.com

حبيبي زياد

أبحث عنك دومًا في كل الوجوه التي أقابلها لعلك تتوارى في أحدهم!

أمشي وحيدةً في طريق طويل، أكاد أموت حزنًا ليس من فراق حقير أصابنا في مقتل، بل من تجاهل عنيف تعاملني به، وانصراف خشن تعالج به لهفتي وحاجتي الملحة للإطمئنان عليك، فقد يجبرنا القدر على البعد، لكن لا شئ أبدًا يجبرنا على النسيان.

أتراك كنت حقًا تحبني؟ أتساءل وأنا أبحث عن جواب يريحني من حيرة أوقعني فيها صمتك رغم كل محاولاتي البائسة لاستردادك.

لو كنت قد أحببتني يومًا لكُنت أدركت الآن حجم نيران اليأس والشوق التي تلتهمني التهامًا، أيكفيكَ أن تعلم أن روحي قد فارقتني بوداعك وأن أحلامي قد سُلبت مني خيطًا خيطًا حين أقصيتني بعيدًا!

زياد، لقد قطعنا وعودًا كثيرة معًا وأطلقنا دعواتنا الحارة إلى السماء بأن نكون سويًا حتى آخر العمر، فلِمَا تمردتَ على وعودنا وأحرقت أمنياتنا؟ لِمَا؟ ألم تخبرني يومًا أني حلم بعيد المنال تسعى لتحقيقه، فلِمَا تقاعست عني حبيبي؟

obeikan.com

و رغم كل صمتك وتجاهلك وانقطاعك عني فأنا لا زلتُ أدعو ربي أن يحقِّقك لي يا أجمل وأغلى وأقسى أمنياتي، فأنا أراكَ في حنايا القلب منفردًا.

أحبكَ ولا يزدني صمتك إلا تمسكًا بك وأملاً فيك، وقد علَّمني غيابك كيف أحبكَ أكثر وأكثر وأدمن عشقكَ أكثر وأكثر.

أنتظركَ حبيبي فلا تبخل عليَّ بماء يروي جفاف أيامي.

مضت حياتنا أنا وعلي في الأسكندرية سلسة نوعًا ما، فمدينتنا الجديدة قد التهمت من وقت فراغي الكثير لاستكشافها، لم تتركني الأسكندرية أخلد إلى نفسي كثيرًا، فجمالها الساحر الآخاذ وروعة مبانيها وتنوع آثارها استحوذت عليَّ، كنت كثيرًا ما أتنزه أنا وصديقي الجميل عم ربيع، العاشق السكندري، كان يقص على مسامعي الأحداث التاريخية بكل تشويق وسلاسة جعلتني أعشق التاريخ ودروسه وفلسفاته وتعلمت منه أكثر مما تعلمت في سنوات دراستي الجامعية، فعم ربيع له أسلوبه الخاص الساحر الذي يجعل للتاريخ مذاقًا لذيذًا ممتعًا كقهوة الصباح.

شغلتني جارتنا الجديدة، "حنين الراوي"، تلك الجميلة الفاتنة التي تملك غموضًا يحركك نحوها منذ أن تقع عليها عيناك، رشيقة القوام، ذات عينين عسليتين واسعتين يملؤهما بؤبؤ أحسبه كان نضرًا لامعًا ذات يوم، أنفها صغير مستقيم وثغرها مستدير، شفتاها منبسطتان في تناغم ورشاقة مع وجهها الفاتن، أما شعرها فكان في لون القهوة، يُمازح كتفيها بحُرية.

كانت في البداية متحفظة بعض الشيء وكأنها تنزوي في عالم آخر يخصها وحدها، بيد أنها بدأت بعد أسبوعين أو ثلاث من استقرارها في عالمها الذي صنعته لتختبئ فيه شرعت تطل علينا أو بالأصح بدأت تطل على ما هو خارج عالمها، كانت إطلالتها حذرة ومترقبة، تغلف نفسها بغلاف من ثلج حتى لا ينفذ إليها نافذ، أعلن شقيقي الأصغر إعجابه بها، ببراءتها وغموضها، بل إنه أعلن إعجابه ببراعتها في الإختباء في مدينة تدعوك صراحة لتلقي نفسك فيها وتذوب دون أن تخُزك رتابة ولا يشغلك ملل.

قابلتها وجهًا لوجه في السوبر ماركت القريب من عمارتنا، حييتها بألفة وعرضتُ عليها أن نتمشى معًا حتى نصل الى حيث نسكن فرفضتْ معتذرة وانصرفتْ سريعًا، ما هي إلا أيام وفوجئتُ بطرق عنيف على باب شقتي، كانت عقارب الساعة قد

تجاورت الرابعة فجرًا بدقائق معدودة، أرتعبتُ من وقع الطرقات على الباب إلا أن عليًّا أسرع إلى فتحه لاستدراك الأمر، وما أن إنفرج الباب حتى سقطت حنين مُمسكة بأمبولة دواء ولم تستطع أن تتفوه بكلمة، حملها عليٌ مسرعًا إلى داخل غرفتي، وفك برفق قبضتها التي أحكمتها على أمبولة الدواء، ثم أسرع الى غرفته وعاد يحمل محقنًا ملأه بما كان في الأمبول وغرس الإبرة في وريدها، دقائق واسترختْ عضلاتها المشدودة وانتظم تنفسها وراحت في نوم عميق.

وفي الصباح أدهشها وجودها في سريري وأخجلها إقحامها لنا في أمر المغص الكلوي الذي ينتابها على فترات وتواجهه بالحقن المسكنة إلا أنه كان بالأمس شرسًا للغاية ولم يُمهلها وقتًا كافيًا لترتدي ملابسها وتسرع إلى الصيدلية بجوارنا لتعالجه بالمسكن، فتك بها دون رحمة، هوَّنتُ عليها الأمر وأخبرتها أن الجيران سند لبعضهم البعض، كانت تشعر بأنها مدينة لنا بالشكر والعرفان، وأن ما فعلناه معها أكثر من أن تستطيع رده، فالأمر لم يكن فقط تصرفًا إنسانيًا شهمًا في إطار إنقاذ فتاة غريبة وحيدة من ألم يفتك بها في الساعات الأولى من فجر لم يشرق بعد، لكنها تراه مشاركة غريب واهتمام بوحيد واحتواء لمريض، بإختصار

obeikan.com

رأته شهامة اختفت وندُر وجودها في دنيانا حيث يتوجس الناس الريب من بعضهم البعض، ويُلبس الخوف الجميع ملابس أسمنتية صلبة فلا يكادوا يتحركون إلا حسب ما تتيحه لهم قوالبها فتأتي حركاتهم نمطية!

وفي المساء حرصتْ حنين على الإعتذار لعَلِيٍ بشكل شخصي عما كان، هيأ له اعتذارها مساحة من الظلال تحميه من وهج عزلتها ونفورها السابق الذي كاد أن يصيبه باليأس والجنون، قبِل أخي اعتذارها شريطة أن تتناول معنا العشاء وإلا فإنه لن يتعرض لها بإنقاذ إن هاجمها الألم ثانية لا قدر الله، ابتسمت وكانت إبتسامتها صافية كصفاء الماء، لمعت عينا شقيقي وشعرت وكأني أسمع وأنا في مكاني قلبه يرقص فرحًا وطربًا.

ومنذ ذلك الحين أصبحتْ حنين جزءً أصيلًا من عالمنا الجديد، وتوطدت علاقتها بنا وأصبحت كأنها ضلع ثالث في سهراتنا أو نزهاتنا وإن لم تكن كثيرة، تلك المسافة التي اختصرها الألم والوجع وحاجة الإنسان إلى غيره خاصةً حين يُهاجمه المرض أو أي عارض آخر كان سببًا لعلاقة إنسانية جمعتني بصديقة أراها رائعة حقًا كنتُ بحاجة إليها وكانت في حاجةٍ لي، حكيتُ لها عن زياد كثيرًا حتى صارت وكأنها تعرفه، وذات يوم

وجدتُني أخلع عني بعض حيائي وأسألها عن قصتها وما كان معها في سالف الأيام، فأخبرتني بما لم أكن أتوقعه وأنا أُحدق إليها بثبات وأسمعها بكل حواسي المُتلهفة لأقترب منها أكثر وأعرفها أكثر وأكثر فقد باتت حنين أنثى يشغل حبها قلب عليٍّ ويتحرق شوقًا إلى الاقتراب منها ويهرع إلى كل ما يجمعهُ بها، وصار من الصعبِ عليه أن يبرح مكانًا هي فيه.

تخرجت "حنين "من سنوات قليلة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، الابنة الوحيدة لأبوين من أسرة عريقة، فوالدها أرستقراطي النشأة، قضى زهرة عمره في خدمة القوات المسلحة حتى ارتقى أكبر مناصبها، ثم تفرغ بعد المعاش لمشروع خاص يخدم أيضًا آبناء طبقته الأرستقراطية، يقضي في مشروعه معظم ساعات يومه ويستمتع بصداقات نُخبة من الشخصيات ذات المقام الرفيع والنفوذ البارز دون أن يساوره أدنى شعور بالذنب تجاه أسرته التي لا يكاد يراها إلا سويعات قليلة يوميًا، أما "يسرا الراوي" أمها، فهي امرأة أرستقراطية رزينة هادئة، تتسم بالتواضع وحُسن التصرف، صريحة وتكره الكذب والكذابين، أجابت ابنتها بما لم تتوقعه أبدًا حين سألتها ذات يوم: لِمَا تزوجتِ والدي يا أمي، أقصد هل أحببتِه؟

أفضتْ إليها يسرا هانم بمكنون صدرها دون أن تحاول إضافة بعض اللمسات الجمالية على الزيجة، قالت الحق دون مواربة، فحين كانت في السابعة أو الثامنة عشر أحبَّت جارًا لها يقطُن في الفيلا المُجاورة، يكبرها بخمسة عشر سنة، كان في الأصل موسيقارًا مُبدعًا، ثم انجرفت به الشهرة إلى طريق السينما فصار نجمًا محبوبًا، أحبَّته بجنون لكنه كان يُهملها إهمالًا تامًا بل بالكاد كان يشعر بوجودها، فالأمر طبيعي، فهو رجل مشهور وله الآلاف من المُعجبين والمُعجبات ولم يكن يبصر فيها أكثر من جارة صبية تلهو مع رفيقاتها وتلوح بحرارة مُشيرة له كلما رأته عبر ممر أشجار مُشْترك بين فيلتيهما، تعدو نحوه فرحة نضرة تعلو وجهها الصبوح ابتسامة أمل وتمتلئ أوداجها بالحياة كلما وقف ليُحدثها أو يُحيِّها أو يُجيب على تساؤلاتها حول أعماله الفنية ومشاريعه السينمائية القادمة، يؤمن أن موسيقاه وشهرته يدفعانها إلى الافتتان به ولا مجال ليشتبك معها في عبث أطفال يكرهه أو لهو مراهقة يطول اسمه بالسوء، ثم ما الذي يُغريه بالإقدام على الزواج من مُراهقة مثلها وهو الناضج المشهود له بالعقل والوعي والفطنة والتجربة؟ كانت يسرا في بداية عهدها بسنوات الشباب وتراه مخلوقًا نادرًا لا مثيل له.

تسلَّل "فؤاد الشناوي" إلى قلبها وسلبها صوابها وأضحتْ تُحاول جاهدة الفوز بقلبه، ولكن عبثًا فقد كان قلبه مشغولًا بأختها الكبرى، وانتهى بها حبه لأن تُصبح غريمة لنوال، شقيقتها الأرملة ذات الثلاثين عامًا، فقد كان فؤاد مُتيمًا بنوال وعاشقًا لها، أدركتْ يسرا أنه من الحُمق والأنانية أن تُنازع شقيقتها حبها وهي التي تُشفق عليها من ترمل يتصارع على سنوات شبابها الفاتن، لم تجد نفعًا ولا غاية ولا أملًا في الاستمرار على هذا الوضع المُهلِك.

أرادتْ أن تُخرج من صدرها تلك الجمرات التي تتأجج فيه وأن تقطع بيديها جذور عشق لا رجاء منه، فقبِلت الزواج من ابن عمها عادل حين تقدم لخطبتها علَّه يُساعدها على اقتلاع فؤاد الشناوي من قلبها، ولتُفسح المجال رحبًا أمام شقيقتها وتمنحها فرصة لتحيا وتُحب من جديد خاصةً بعد تجربة زواج لم تدم سوى شهرين، ترمَّلتْ بعدهما نوال حين توفى زوجها الشاب في حادث سيارة، أرادت يسرا أن تئِد حبها لفؤاد حين تنام في أحضان عادل الراوي، فالراوي للراوي خير شفاء، لذا أمسكت بيده في إعزاز ظاهر وتأبطت ذراعه ليسيرا معًا في زفة مُهيبة كانت حديث مُجتمعهما الراقي لأسابيع تلت حفل زفافهما الذي استمر للساعات الأولى من صباح اليوم التالي، أما فؤاد ونوال فقد

تزوجا بالفعل قبل ستة أشهر من زواج يسرا وعادل وكثيرًا ما كانوا يتجمعون مع أفراد العائلة على طعام الغداء أو العشاء في فيلا أحدهم.

حينها ينشغل الجميع بأحاديثهم الخاصة إلا يسرا التي كانت لا يشغلها شيء إلا مراقبة شقيقتها وزوجها لتجدهما دومًا في ابتهاج ظاهر وفرح واستبشار فتهدأ ويطمئن قلبها لصواب قرارها حتى لاحت الفرصة الذهبية لفؤاد للهجرة إلى أمريكا، الأرض التي لطالما رغبها واستهوته، باتتْ العائلة بأكملها تحسدهما على هذا التوفيق والنجاح، فما الذي يُعيقهما عن تحقيق الهجرة، أما شقيقتها نوال الراوي فقد خرجت بتلك الزيجة من بؤس الترمل إلى فضاء كاليفورنيا الواسع وصارتْ تتحرك وكأنها قطعة من الفتنة والغرور تُلمَح في حركاتها كل معاني الأنوثة، ولِمَا لا وعائلتها غنية موفورة الثراء وفؤاد فنان مهووس بذاته يرى نفسه عميقًا ولا أحد من مُخرجي السينما المصرية قادر على فك رموز عبقريته أو الغوص في أغوار عُمقه، يُعامل نفسه مُعاملة الملوك ويُعاقب من لا يستوعب غروره هذا بالنبذ والتجاهل الشديد.

أسس شركة إنتاج صغيرة قدَّم من خلالها بعض الأفلام التي رغم أنها لم تنجح جماهيريًا إلا أنها لفتتْ انتباه النقاد وأثارتْ جدلًا حول موهبته مما أثار خياله بشدة لإنتاج المزيد بيد أن

رفض معظم نجوم السينما مشاركته تلك المشاريع أحال أحلامه رمادًا وكادت تقضي عليه لولا أنه قد انتعشت كل ذرة فيه حين عُرض عليه دور صغير في فيلم هوليوودي وأضحى يُطالع رصيده من أفلام السينما الأمريكية والذي بالتأكيد سيكون ضخمًا في قادم السنوات وبات يتصرف على هذا الأساس، فؤاد الشناوي لورانس العرب الجديد، النسخة الجديدة من عمر الشريف، إيمانه بنفسه كان قويًا والأقوى منه إيمان نوال به، بالتأكيد سيقف زوجها الحبيب يومًا أمام نجمته المفضلة "فرح فاوست" أو نجمتها هي المفضلة "ميريل ستريب".

أما حنين، مُرهفة الحس التي سمعتْ كل ذلك وحفظته عن ظهر قلب والتي تربَّت على هدوء بارد يحُد علاقة أبويها ويُغلفها، و رأت سكونًا خانقًا يسود الحياة التي تجمعهما دون أدنى محاولة منهما إلى اقتراب أو إصلاح، يبدو أن المسافة بينهما أكبر من أن يُدركها أحدهما أو حتى يُدرك نصفها، أقسمتْ وهي الحذقة بالفطرة ألا يكون لها نصيب مثل نصيب والدتها، ولا ترغب في زواج تقليدي نمطي للتكاثر والإنجاب وتربية الأطفال، مرَّت السنوات دون أن يستهويها حب رجل أو يشغلها أمر غرام بهذا أو ذاك، أخبرتني وقد لمعت عيناها فجأة كيف أنها التقتْ في

سنوات دراستها بشاب مُهذب كانت ظروف حياته ونشأته مأساوية إلى حد كبير، فيوم ولادته هو نفسه يوم وفاة والدته التي رحلت عن دنيانا بعد خمس ساعات فقط من قدومه، أما والده فقد كان مُحاميًا، رحل هو الآخر عن الحياة وخلَّف " رامز " مراهقًا بلا سند سوى ما يجده من مساندة عمه الذي توقف عن تلك المساندة حين احتاج إلى كل مليم ليُزوج بناته مُمتثلًا لحديث زوجته الدائم..

" اللي يحتاجه البيت يحْرَم على الجامع "، فنشأ رامز وحيدًا إذ لم يكن له جذورعائلية كثيفة، ربَّى ذاته مُعتمدًا على عين نفسه، يقضي وقته في قراءة الكتاب تلو الكتاب، خاصةً كتب الأدب والتاريخ، عاشق للغات، علَّم نفسه الإنجليزية والفرنسية باستخدام برامج المُحادثة.

و حين التقتْ حنين برامز في الجامعة الأمريكية كان قد حصل على منحة مجانية لدراسة الصحافة هناك، ودون وعي أو إرادة تفجر ينبوع الحب في قلبه نحوها عزَّزه الحرمان والوحدة اللذان كانا قد سكنا قلبه منذ سنواتٍ مضت، أحبته حنين وبحدسها الذكي أدركت أن أصلها الأرستقراطي ومركزها الإجتماعي سيحولان بينهما ولا محالة، فرامز لا يستند إلى أسرة

عريقة ولا غنية، ولا مال موروث لديه ولا علاقات عائلية تُضاهي علاقات أسرتها العريقة، لكن ذلك لم يثنْ قلبها عن الاستمرار في حب تملّكها وجمع بينها و بين رامز وأرادا تحقيق حلم راودهما معًا.

تخرجتْ حنين في كُليتها وكذلك فعل رامز في نفس العام، و عن طريق حنين التي توسطت له ليعمل في جريدة خاصة يملكها عمها، استطاع وبعد عام واحد فقط من دفع مبلغ مالي كمُقدم لشقة مقبولة في حدائق الأهرام على أن يستكمل باقي الأقساط تباعًا، ورغم إشفاق حنين عليه من رفض مُتوقع سيُشهره والدها "عادل الراوي" في وجهه إلا أنه أصر على التقدم إليها ودخول البيت من بابه، فلا مجال للمماطلة ولا سبب لإخفاء الأمر.

ولم يُخيِّب الأب توقعات ابنته ورفض يد رامز الممدودة إليه بقسوة وذكَّره بأنه مُبتدئ ولا يملك مالًا ولا عقارًا، ولا أسرة عريقة قد تفتح له الأبواب المغلقة، ثم أهداه نصيحة مؤلمة بأن يبحث عن فتاة من مستواه الإجتماعي ليرتبط بها، فتاة تُناسبه ويُناسبها " شوفلك بنت على مقاسك ومتضيعش وقتك ووقتي"، مُتجاهلًا رغبة ابنته ومشاعرها تمام التجاهل!

عاد رامز إلى شقته المتواضعة مقهورًا مهزومًا، اعتذر لها عن عدم قدرته على الوفاء بما بينهما من التزام تجاه قلبيهما، إلا أنها

قاومت قرار أبيها وأعلنت تمسكها الكامل بمن اختاره قلبها، أعلنت أنها لن تتزوج غيره حتى لو لم تجمع بينهما الحياة، أخبرت أباها بأنها لا تقيس الناس حسب مراكزهم ولا تُقدِّرهم حسبْ قيمتهم الإجتماعية ولا حسبْ علاقاتهم بعلية القوم ولا تعنيها كفاءاتهم إن قُدِّرت بحجم مُمتلكاتهم أو ثرواتهم، لم ينصع "عادل الراوي" لرغبة ابنته، رأى أنها عنيدة وتتمسك بموقفها من رامز كتمسكها بأي رغبة تحتلها وتملُك عليها وجدانها وتظل مُنشغلة بها ولا ترى لها بديلًا حتى يُحققها أبوها لها، لطالما لام نفسه على فرط تدليله لها، لم يستجب لرجاوات حارة وتمنيات هادئة عبَّرت بها زوجته يسرا عن موافقتها بل تأييدها الكامل لرغبة ابنتهما الوحيدة، لا داعي لكسر قلب حنين وتحطيم أملها، فآمال الصبا وأمنياته لا يقتصد فيها المرء ولا يُحددها وفق العقل والمنطق والبرستيج، فحُب الصبا برَّاق حر بلا قيود ولا حدود، ولا داعي لإرباك الفتاة وتعجيز حبيبها، فهم ليسوا بحاجة إلى ذلك، يمكنهم مساعدته ببساطة وانتشاله مما يُعيبه وتحسين وضعه ليُصبح لائقًا بابنتهما، جديرًا بها من مفهوم يُرضي والدها، وهكذا تكون العقدة قد حُلت وطويت صفحة الشقاق دون أن يخسر أحد الطرفين شيئًا.

لكـن عـادل الـراوي لا يـستمع إلا لـصوت نفـسه، قـرر أن يتجاهلها كعادته، ففتَّش عن حيلة يُداعب بها خيال ابنته ويستحوذ على اهتمامها ويُلهيها بما هو أفضل من رامز، حجز لها رحلة إلى فرنسا التي تعشقها وتُرحب دومًا بزيارتها وقضاء الصيف في " نيس" أو "باريس"، أظهرتْ حنين قبولها بالبديل وفرحتها به حتى تُتمِّم ما استقرت عليه، هاتفتْ رامز على جواله وطلبت لقاءه على وجه السرعة في كافيتريا بجوار عمله، كانت مُنفعلة ومتوترة إلى حد بعيد، قبضت كفه ووضعتها بين راحتيها وأردفت: أن تُحبني يعني أن تُحارب الظروف من أجلي، فماذا أنت فاعل؟ أليس الحب سلاحنا على الظروف؟ كانت تلك كلماتكَ لي حين صارحتني بحبك ومن قبله ظروفك؟!

لم ينفعل رامز لكلماتها ولم يُؤمِن على ما قالت بل سألها بهدوء يشوبه حزن وضعف: هل جربتِ الفشل في حياتكِ يا حنين؟ هل تعرفين طعمه؟ أحسبكِ لم تفعلي وأرجو ألا تفعلي أبدًا، فاللفشل مذاق لاذع كالحنظل لن تتحمله رقيقة مثلك!

مناقشة حامية تلصصتْ عليها وتابعتها الأعين الموجودة في المكان، خاضتْ فيها حنين صراعًا طويلًا مع رامز أرهقها إلى حد بعيد اقتنع بعده أخيرًا بأن " الراوي" لن يُغير رأيه وقبِل بالحل الذي اقترحته حنين ورأته الوحيد المناسب لمثل تلك الأزمة.

تزوجا وتم اجتماع الشمل، واجها سيادة اللواء عادل الراوي ويديهما مُتشابكتين، استقبل الرجل الأمر بغضب شديد وحساسية مُفرطة وترجمهُ على أن رامز قد طعنه في كرامته وشجَّ كبرياؤه، كيف لهذا الصرصور أن يتحداه، رآه قد غرر بصغيرته وتلاعب بقلبها البريء وخيالها الخصب، صوَّر لها الحياة معه وردية وهو طامع راغب بكل تاكيد في التسلق على كتفيها بل على كتفي سيادة اللواء شخصيًا لينال ما لا يستحق، إنه أحرص ما يكون إلى الانتقال للطبقة الراقية وعِلية المجتمع، يطوق إلى ذلك بشغف ويستغل حنين بمهارة، إنها وسيلته إلى غايته الكبرى، لاحقها، شاغلها وأرغمها على الزواج منه وخدعها بمعسول الكلام، إن من واجبه كأب تجاه ابنته التي يعشقها أن يحميها وأن يُخلِّصها من ذاك المُخادع الغشاش.

لم تطل تجربتهما في الزواج أكثر من ستَّة أشهر، لقد تبدل معها رامز وانقلب مائة وثمانين درجة، أصبح عصبيًا، مُتقلب المزاج، يثور لأتفه الأسباب، ما إن يلتحق بعمل إلا ويتركه بعد فترة وجيزة، فقد كان حماه يُلاحقه في كل عمل يلتحق به، ضغط عليه كثيرًا وضيَّق عليه الخناق، وكادت روحه تُفارق جسده، انهار أمامها ذات مساء حين سألته عن سبب تحوله معها: هل تُعاقبني يا رامز على جريرة أبي؟! ما ذنبي أنا فيما يجري؟

: وما ذنبي أنا أيضًا يا حنين؟ لا ذنب لكِ ولا ذنب لي، أتعرفين فيما المشكلة؟ المشكلة أنني كلما نظرتُ إلى وجهكِ الباسم دومًا رغم كل ما نعانيه أجدكِ صابرة، مُقتنعة، تحمل قسمات وجهك كل أمل ورضا، تتحركين بحماسة وتتحدثين بهدوء بينما أنا أصارع ضعفي وحاجتي، أشعر أمامكِ بأني منافق كبير، أُحبكِ نعم وبكل جوارحي لكني أكره حبكِ لي وإيمانكِ بي وأتساءل كيف لكِ أن تُحبينني بهذا القدر وبتلك القوة، كيف؟! ألا تجديني حقًا مُنافقًا حين أبتسم في وجهكِ صباحًا، أُقبِلُكِ وأنا أفكر بما سأجيبكِ مساءً حين تقتُليني بسؤالكِ الساذج، " كيف كان يومكَ حبيبي؟ ثم تتابعين" هل وجدتَ عملًا؟ وكأنكِ لا تعلمين، بل أنكِ تتجاهلين حقيقة واضحة وضوح الشمس أن لا باب أمل أمامنا مُطلقًا!

: لا عليكَ حبيبي، لا عليكَ، لا ضرر إن أُوصِد أمامنا باب فسيُفتح غيره، أثق في ذلك، صدقني.

: من أين لكِ بكل هذه الثقة؟ من أين؟ فكل الأبواب موصدة، هلا أخبرتيني عن باب واحد فُتح منذ زواجنا؟! أريد ان أرى ذاك الباب، أريد أن أراه لأُقبِّل عتبته!

واستمر الحال هكذا بين شد وجذب، هدوء يسبق عاصفة

وعاصفة يتبعها هدوء، وذات مساء توقفت عربة فارهة ضخمة على بُعد خطوات من رامز وهو في طريق عودته من مقابلة مبدئية للحاق بوظيفة جديدة "إنترفيو"، كادت السيارة تصدمه إلا أن سائقها ضغط بعنف على مكابح السيارة ثم أطلَّ من نافذتها وتفوه بعبارات نابية في وجه رامز، غلى الدم في عروقه وفتح باب السيارة وخطف سائقها من على مقعده، كان الرجل قوي البنية وكأنه من أبطال كمال الأجسام، لكَم رامز لكمةً عنيفة في أنفه سال الدم معها وشرع يدفع برأس رامز يخبطها بهياج ووحشية في سور كوبري أكتوبر ثم قذفه أرضًا وهو يُحذره بل يأمره بالابتعاد عن حنين وإلا سيكون الثمن باهظًا.

واجهت حنين أباها بفعلته فلم يُنكر، أقسم لها أن رامز ليس الرجل الذي تظنه وسيُثبت لها الأمر بالدليل القاطع، ثلاثون يومًا فقط أعقبت المشاجرة التي جرت بينها وبين سيادة اللواء حين أعلنتْ له صراحة أنها لا تصدقه، فقلبها لا يخدعها وحدسها صحيح تجاه الرجل الذي اختارته عن حب وقناعة ولا يُعيبه في نظرها فقر مادي أو اجتماعي، اعتذرتْ لرامز وقلبها مُنفطر عليه، سمعها تدعو الله بدموع عينيها فلا غاية لها في الدنيا ولا حاجة سوى أن يرده الله عليها مُتعافيًا، تنام تحت قدميه وهو يرقد في

obeikan.com

سـريره وجـسده مُـنتفخ متـورم مـن اللكمـات، تكـسوه زرقـة الكـدمات، ضـلعه كُـسر وتهـشمت معـه كرامتـه تحـت حـذاء ذاك المتوحش الذي لقَّنه علقة ساخنة لن ينساها طوال عمره إن كـان في عمـره بقيـة، وبمجـرد تعافيـه ومـا أن وطـأت قـدماه الأرض واستطاع سيرًا حتى زار مبنى مجلة شهيرة قدَّمت لـه عرضًـا مُغريًـا لا يملك إلا أن يقبله بل ويُمسك بطرفه بيديه وأسنانه.

سافر رامز إلى إيطاليا في مهمة تسويق لمجلته الشهيرة، أخيرًا حصل على فرصة عمـل ممتـازة وعليـه أن يُثبـت ذاتـه فيهـا، فربمـا كانت هي أول الغيث، وأول الغيث قطرة، ومـن رومـا أرسـل لهـا ورقة طلاقها مع رسالة نصية ممهـورة بإمـضاءه ومازالـت كلماتهـا محفورة في ذاكرتها بحروف من نار.

"حين عرفتكِ حنين كنت غارقًا في بحر الوحدة كشجرة تقف وحيـدة مُنفـردة في صـحراء قاحلـة وقـد اشـتد علـيَّ الإحـساس بالـضياع والحاجـة إلـى رفيـق أو ونـيس، تزوجتـكِ ولا أُنكـر أني أحببتكِ لكني لم أجد لـديكِ مـا كنـتُ آمُـل فيـه مـن راحـة للقلـب وسكينة للعقل، جميلة أنتِ ورقيقة للغاية لكني في كـل يـوم عـشته معكِ كنت أتأكد من بُعد المسافة بيننا حتى وأنـتِ إلـى جـواري في الفراش نفسه، سامحيني"...... رامز

عادتْ حنين إلى فيلا سيادة اللواء الذي أجزم بانتهاء تلك الصفحة التعسة من حياتها، لكنها عادت جسدًا تُرتل روحه صباح مساء ترانيم اللوعة والقهر والعذاب، عادت يحمل قلبها كُفرًا بالحب وعقلها كُرهًا للرجال، عادت وكل ما تمتلكه قلبًا مُنهكًا وروحًا مُمزقةً وعقلًا مُشتتًا، تحسُّ كما لو كانت مُنومة مغناطيسيًا وتحتاج لمن يُفيقها من غيبوبتها على واقع يحمل لها الخير كما تتمناه، احتوتها أمها بعمق، ضمتها كثيرًا إلى صدرها المُنهك بالتبعية، المُمتلئ بالحقد والاحتقار لعادل الراوي الذي مزَّق بيديه أوراق حب يانعة كادت تُزهر وتملأ الدنيا بهجة وجمالًا، تألَّمت تلك الرقيقة بشدة وأصبحت تؤثر العزلة، فالعزلة لا تؤلم، اشتدَّ الأمر مرارة وقُبحًا حين عرفت أن رامز ذاك الذي أحبته بوتين قلبها قد قَبِل مساومة عرضها عليه حماه، صفقة أتمَّاها معًا حين كان راقدًا على سريره في عنبر العظام، صفقة ذات رائحة عطنة حصل فيها كلُّ منهما على ما يريده وانتهى الأمر، فالألم يكون أكبر وأعمق حين تأتينا الطعنة ممن إئتمناهم على ظهورنا مُطمئنين لوجودهم سندًا، فالنيران الصديقة أشد فتكًا وأعظم تدميرًا.

أَلَمَها إخبار أبيها لها بالصفقة بكل فخر وتحدي، أراد أن يُثبت لها عمليًا رأيه الصائب في رامز وحقارته ولم يُمعن النظر

فيما يُمكن أن يحدث لابنته جراء تلك المُصارحة، ما الذي يُمكن أن يحدث لعصفور صغير، رقيق الحال حين ينتف الصياد ريشه فجأة دون أن تأخذه به رحمة أو شفقة؟! ما الذي يُمكن أن يحدث لكائن رقيق يملؤه حب الحياة حين يتعرض فجأة لزلزال يهز كيانه من الأعماق بغير مقدمات؟! هل كان ذاك الذي حدث معها عقابًا عادلًا لها حين خرجت عن المألوف وأحبَّتْ غير الذي يتوجب عليها أن تحبه؟! وهل للحب موجبات ومناسك وطرُق وشرائع؟

هل كانت حكايتها مع رامز زيف ملائكي ذو أجنحة بيضاء سرعان ما احترقت بنيران الواقع والمفروض والمنصوص عليه؟ هل أحبها رامز حقًا أم كانت هي ذاتها جزء من خداع استراتيجي مارسهُ هو بكل حرفية ضد طبقته وفقره؟ إن كان بالفعل قد أحبَّها فلِمَا ضحى بها ولفظها بعيدًا؟ أليس الحب حقًا، والحق قوة؟

مُرهق الحب ولم ينالها منه سوى هتك عرض قلبها بقسوة حين مارسوا عليه رفاهية المساومة وعقدوا صفقتهم الظالمة على بابه غير آسفين عليها، مرَّتْ ثلاث سنوات الآن على تلك المأساة تشبعتْ خلالها علاقتها بأبيها بجفاء جارف، أصبحا يتحاشيان بعضهما البعض، لا يكادا يجتمعان في مكان واحد، انطوت هي على أحزانها تتجرعها دونما انقطاع، رآها أبوها ذابلة أمامه،

شاحبة شحوب الموتى، ربما اقتنع بخطأ إفساده لحياتها وسعيه الدائم للضغط على رامز لإطلاق سراحها ثم مشاركته له في جريمته النكراء للتخلص من زواج يراه نقيصة في حق ابنته وفي حق اسمه وكرامته، ربما أيضًا دفعته قناعاته المتعالية لإفساح المجال لحنين لتقود دفة حياتها كما تريد، أخبرتني أنها في الآونة الأخيرة لم تعد قادرة على النظر في وجه أبيها وخاصةً بعد تأزم وضع والدتها الصحي مما استوجب انتقالها للإقامة شبه الدائمة في مستشفى مُتخصص للأمراض النفسية والعصبية، يبدو أن أعصاب السيدة يسرا قد احترقت جمعاء ولم تعد قادرة على تحمُّل المزيد من هجمات زوجها وتعنتاته الاجرامية.

كرهتْ حنين الوضع برُمته وعافتْ نفسها أن تشارك والدها فيلته بل كرهت وجودها معه تحت سماء نفس المدينة، أسَّستْ لنفسها عملًا خاصًا بها عبر موقع التواصل الاجتماعي " الفيس بوك" تُديره من البيت ويُدر عليها عائدًا مُناسبًا يكفيها بجانب تلك الأموال التي تحصل عليها كعائد شهري من دروس مُحادثة ودورات لغة انجليزية تُقدمها حنين في مركز حديث للغات تابع للسفارة البريطانية، ارتحلتْ إلى الأسكندرية تجنُّبًا لكل ما قد يُذكِّرها بتجربة أليمة موجعة لاتزال تُعاني بعض هجماتها الشرسة

على ذاكرتها من حين إلى حين، تلك الهجمات التي تُصيبها في مقتل ويتعالى معها آنين قلبها وتتواتر معه دواخلها.

تؤمن في داخلها بأن حدسها لم يخنها في البداية، لقد أحبها رامز بالفعل لكنه لم يملك الشجاعة الكافية ليُدافع عن حبه ولم يكن بالقوة التي تؤهله لحمايته، مشكلتها تكمُن في أنها لا تنسى بسهولة، تتذكر التفاصيل الدقيقة، تحِنُّ لكل الحظات التي جمعتهما معًا، كان رامز فيما مضى كنزها، كان سببًا لفرحها والآن غدا سببًا لوجعها، يبدو أن كنزها الثمين كان خطيئتها الكبرى التي لا تُغتفر، وحين اجتمعنا ذات مساء وبالقرب من المدفأة التي تُزين غرفة القراءة التي حرصتُ على تأثيثها في شقتنا الجديدة، سمعتُها حين عصفت الرياح واشتدت نوبتها مُنبأة عن نوة الغطاس، إحدى النوات الشديدة التي تجتاح عروس البحر المتوسط كل شتاء، اقتربتْ حنين كثيرًا من النافذة، ضمت يديها إلى صدرها وأغمضت عينيها وتمتمت بعبارة أحزنتْ "علي" الجالس على الأريكة خلفها وقلبه مُنصرف معها إلى حيث سارت، يُراقبها بنظراته وعقله مشغول بها تمام الانشغال، أربكه حديثها إلى الله وأشعَرهُ بالحيرة بل بالعجز أمام حزن دفين لا يليق بحنين أرق ما في الكون.

obeikan.com

سمعها تُتَمْتِمْ:

(أتراني قوية إلى هذا الحد يا الله حتى إنكَ لم تُعطني أحدًا ليكون كتفي في هذا العالم؟!).

وهل يملكُ رجل مثل علي إلا أن يُحب وبكل جوارحه زُنبقة ماء برية رقيقة سلبته قلبه وعقله رغم ذبول يعتريها وفتور يُغلفها، ما هذا التيار الغامض الذي يسري في جسده منذ رآها، يتحرك حولها حائرًا يسأل نفسه المرة تلو المرة لماذا يشعر بهذا الضعف المُربك تجاهها؟ لاشك أنها نوبة جنون طاغية أو شغف حارق فكيف يقاومه؟ هل عليه حقًا أن يقاوم؟، يعتقد أنه لن يقدر وهل استطاع مخلوق من قبل أن يقاوم الطبيعة؟!

مسكينٌ شقيقي علي فلقد أحبَّ امرأةً تحمل على كتفيها أوتادًا من الشجن الثقيل،لكنها حنين تلك التي فاضت بها روحه.

مرَّت الأيام تأكل بعضها أكلًا وأنا أتحسس خبرًا عن زياد يُبشرني بقرب انتهاء الأزمة ولكن بلا جدوى، الشهور نُسخ مُكررة من بعضها البعض، بت أحفظ كل مايدور حولي بكامل تفاصيله الغير استثنائية، "علي" مُنغمس من رأسه الى أخمص قدميه في معمله وأبحاثه، يؤنب نفسه إن أهمل ولو قليلًا في حق أنابيبه

وتركيباته، لا يتحدث عن أحد غير حنين إلا نادرًا، ما أن تطأ قدماه البيت حتى يُسارع إلى تبديل ملابسه ثم يقف في النافذة التي تُقابل غرفتها يُدخن السيجارة تلو الأخرى، يُحدق بها وكأنه يتفحصها أو يحفظ ملامحها، أشعر أحيانًا وكأنه قد شرد هناك حيث تسكن حنين، تلك التي لا يُفارق فنجان القهوة يدها ليل نهار، تتجرعه بهدوء وترو وهي تراقب السماء وربما تَعُد النجوم، تُفرط في تناول القهوة ولا تستجيب لنصائح "علي" لها بالتقليل من تناولها، كم أخبرها مازحًا أنها ستدمر ما بقيَّ لها من جهازها العصبي، فتُجيبه بإصرار مُبتسمة: " لا تحاول يا دكتور أن تُفسد علاقتي بالقهوة، فأنا أتحصن بها ضد غدر الرجال"، فتؤلمهُ جُملتها لكنه يبادلها الابتسامات بضحكات مُجلجلة علَّها تُغطي على بُكاء قلبه.

سألها عليٌ ذات مرة: هل أنتِ سعيدة يا حنين؟

أمسكتْ بسيجارتها تُنفث دخانها في الهواء كأنها تهرب إليها من إجابة لا تُريد أن تنطقها شفتاها: لِمَا لا أكون سعيدة يا علي؟! لا شيء في حياتي إلا عملي والموسيقى، أملك حريتي كاملة ولا شيء ينقصني ولا حب يُنغص عليَّ عيشتي، إذن أنا سعيدة.

استغربتْ حنين سؤال علي: لما تسألني على سعادتي، هل أبدو لكَ تعيسة؟

: أشكُ في سعادتكِ ففتشتُ عنها، فنحن نتحسس الأشياء حين نشكُ في وجودها.

لقد انتصر عليَّ وهي فاشلة تعيسة، أفكارها تُمزقها وماضيها يحبس عنها نور الشمس.

هكذا الأمر بين حنين و علي، أما عم ربيع فهو في دكانه يهتم بزهوره ويعتني بنباتاته عناية فائقة وكأنه يهتم بفردوس فيها، يمسح على جبين فردوس كلما مسح على أوراق شُجيراته، يُقبِّل بشرتها بشفتيه كلما قبَّل أزهار النرجس ويُداعبها كلما داعب أعواد الريحان، فلا شيء يُمكنه أن يُمزق أوراق الحب، حين ألمحه يبتسم للياسمين الأبيض أدركُ أنه يبتسم لفردوسٍ يراها، ورغم كل ما يُحدِثه الفراق في النفس من لوعة وشجن مازال عم ربيع "عاشق مُتضرع في محراب معشوقته"، اللهم لا تؤاخذ العاشقين بعشقِهم، فلكُل عاشق قلب يحن ويئن.

أما عدنان فلا تنقطع عني اتصالاته ومكالماته كلما كان ذلك مُمكنًا، يأتيني صوتُه يحمل بين نغماته حنان أمي ودفء مشاعرها، حديثه يقطُر حنانًا وكأنه يُطبطب عليَّ بعذب كلماته، وكذلك زهرة فأحاديثي الهاتفية معها أو رسائلنا المتواصلة دومًا على "الواتس آب" قرَّبتنا من بعضنا البعض وتآلفتْ أرواحنا

obeikan.com

وصرنا وكأننا نشأنا معًا في حي واحد بل في طابق واحد، متاعب الحمل ومشاقه جعلتها تستقيل من عملها في " صيدلية السعد " الصيدلية التي قابلتْ فيها عدنان لأول مرة وكانت " وش السعد" عليهما معًا، اكتفتْ بعملها الصباحي كمُدرسة حساب في مدرسة من مدارس رياض الأطفال في العريش، لم ترغب في الإستقالة نظرًا لانشغال عدنان في عمله معظم الوقت وتغيُّبه في مُهمات عمل واستكشاف قرابة الأسبوع أو الأسبوعين فيخلو الدار عليها ويمر وقتها بطيئًا بطء السلحفاة كما تقول دائمًا وها هي قد أوشكت على أن تضع حملها ولقد وعدتُها أن أكون إلى جوارها آنذاك، أما دلال فكنت أتصل بها على فترات مُتباعدة نسبيًا، وفي كل مرة كانت تلُومُني قائلة: لا تُحاولي إقناعي بأنكِ مشغولة إلى هذا الحد، أم أنكِ تذكرتي فجأة أنني زوجة أبيكِ الكريهة!

أُقسم لها في كل مرة أنني فقط لا أرغب في إزعاجها بكثرة اتصالاتي ولا أود أن أكون سببًا فيما قد يحدث بينها وبين والدي من مشاحنات إن علِم أني أتصل بها ولا أتصل به، فحبل الود مقطوع بينه وبين علي وأنا بالكاد أتصل به كل شهر أو شهر ونصف، لكن دلال لا تتنازل عن صفة التمسك بقناعاتها ولا تنصاع لرأي آخر غير رأيها، وحدها تقتنع بما تُريد، تقبَلُ ما تريد وترفض ما تريد، لا أحد يُمكنه أن يُثنيها عن رأي أو انطباع،

فدلال عنيدة حد الموت، تخشى عواقب التورط في تصديق رأي غير رأيها فتندم، لكني أعِزُها وأقبَلُها كما هي ولا أسعى إلى تغييرها، ولا حاجة لي للانتصارعليها في أي مضمار، يكفيها أنها زوجة لعزيز الطوبجي وهذا في حد ذاته كافي لإنهاء أي صراع قد يشبُّ بيني وبينها، ففيها ما يكفيها.

أما خالتي صفاء فكانت اتصالاتي بها مُتواترة بعض الشيء، إذ لم يكن يُناسبني ذاك اليأس الذي أجده في صوتها كلَّما حادثتها، حقًا أردتُ أن أُحادثها كثيرًا كما أُحادث زهرة أو أزورها وأراها كثيرًا كما أرى حنين، أريد أن أصل فيها زياد، أراه فيها لكن ليتَ كل ما تتمناه النفس تُدركه، فكلما حادثتُها نمكث بعض دقائق على الهاتف صامتتينِ وكأن كلٌ منا تستجمع قواها وتُلملم شتات نفسها لتبدو بخير، تتعمد أن تخنق دموعًا تجري على وجنتيها لكني أستشعر لهيبها عبر الهاتف ويزداد الأمر تعقيدًا حين أسمع صوت أخيها الحاج عيسى يأتيني عبر الأسلاك مُطالبًا إياها بالتماسك والتوقف عن البكاء: امسحي دموعكِ يا صفاء واستهدي بالله، عليكِ بالصبر والصلاة، الصبر والصلاة يا أختي.

سألتها إن كان زياد قد خصَّها بخطاب طوال تلك الأشهر المنصرمة فأجابتْ بقهر: هو خطاب واحد يتيم وصلني منذ شهر تقريبًا.

: هل من جديد يا خالة؟

: الخطاب مُختصر جدًا يا عاليا، ليس أكثر من اطمئنان على صحتي، أعرف يا بنيتي أن كل حي آخره إلى زوال لكني أدعو الله العلي القدير أن يُطيل عمري لأراه أمامي ثانيةً بشحمه ولحمه، أحتضنه وأتشبثُ بتلابيبه ولو مرة ثم أفارق الدنيا غير آسفة عليها.

آه يا دنيا قد أشقيتينا كثيرًا بلا شفقة تُذكر وبتلذذ بشع وكان سهلًا عليكِ إسعادنا بالقرب ممن نُحب دون خوف ولا خجل ولا ترقب لمصائبكِ وتقلباتكِ.

وقبل أن تقتُلني سخافات الروتين وجدتُ عليًا قد فاجأني بحاسوب جديد وأنا التي كانت كل علاقتي السابقة به هو مراقبتي لأصابع حنين الرشيقة وهي تنتقل بخفة وسرعة فائقة على أزراره، فتسخُن حيرتي أمام مُحركات البحث الكثيرة التي تستعرضها صديقتي البارعة جدًا في التعامل مع الحاسوب وأجدُني مُكبلة بالعجز أمام قُدرتها وشموليتها، علَّمتني حنين الكثيرَ عن ذاك العالم السحري وهالني سرعته وسرعة استجابته لأوامري وأنا التي لم أعتد أن يُطعني أحد، طورتُ الكثير من مهاراتي الفندقية من خلال مواقع البحث وانتعشتْ ذاكرتي

واستعدتُ الكثير من المعلومات التي اكتظ بها عقلي خلال سنوات دراستي، ثم انبثقتْ فكرةٌ في رأسي، أفضيتُ بها إلى حنين التي احتضنتني قائلة: أنتِ محقة تمامًا، عليكِ البحث عن عمل، وهل يُعقل أن تظلي حبيسة الجدران دون تجربة ولا خبرة؟

"حبيسة الجدران" لفظ أثار بداخلي أشجان وأحزان لم تندمل يومًا، نكأتْ كلماتها جروحي الغائرة فعاودتْ النزف.

لم أكن يومًا مُتميزة، لا شيء من هذا القبيل، أؤمن بذلك جدًا، كنت أنثى عادية جدًا، لا شيء استثنائي، لا شيء يستحق التوقف، أفكار عادية لفتاة عادية مقهورة غالبًا، لا أملكُ ما يُلفت النظر أو ما يجذب العيون نحوي أو ما يحبس الأنفاس من أجلي، آمنتُ أني سأرحل يومًا ما دون أن أترك أثرًا أو أُخلد اسمًا أو أُحدث اختلافًا، لكني أحببتُ آخر بجماع قلبي واتصلتْ به روحي واتحدتْ معه أحلامي، كان لي دومًا كل شيء، وبالنسبة لي كان عشقه دومًا يكفيني وعن الدنيا وما فيها يُغنيني، روحه تشبه روحي، ملامحه تسكن تفاصيلي، كلماته مطبوعة في خلايا عقلي، أحببتُ رجلًا بمثقال كون بما حَوى، فيا خالق الكون وفالق الحب رُدَه إليَّ لتثمر في أرضه أشجار زهري، فروحه وطني وروحي داره، فرجل كزياد لا يسقط من الذاكرة ابدًا.

obeikan.com

أكادُ أموت قلقًا من فرط قلقي على زياد، قلبي ينفطر ولا يُنبأني بخير عنه، أراه في كوابيسي مُضطربًا واجفًا يصارع أمواج عالية كالطود، يبحث لاهثًا عن طوق نجاة فلا يجد، أفقتُ من شرودي على جرس جوالي، برز اسم عدنان على شاشته يُعلن عن المتصل، جاءني صوته وجلًا، يلهثُ وكأنه كان يعدو:- زهرة مُتعبة للغاية يبدو أنها على وشك الولادة، أكَّد طبيبها أن مازال أمامنا مُتسع من الوقت، البكرية مخاضها يطُول، لقد حجزتُ لكِ مقعدًا باسمك في الحافلة (السوبر جيت) التي ستتحرك إلى الغردقة بعد ساعتين، أرجو أن تلحقي بها وستجدي صديقي الرائد"يوسف حسين" في انتظاركِ في الموقف عند وصولكِ يحمل لافتة مكتوب عليها اسمي أنا، وسيركب معكِ سيارة أجرة توصَّلكما إلى العريش لتعذُر وجود حافلة من الأسكندرية إلى العريش مباشرةً اليوم، سلامي الحار إلى عليٍ.

لا أدري كيف جمعتُ ملابسي ومُتعلقاتي بسرعة البرق، ساعدتني حنين في لملمة ما يتبعثر مني أو يسقط خارج حقيبتي، أوصلتني بسيارتها إلى موقف الحافلة، وعدتني أنها ستعتني بأمور علي ولن ينقصه شيء إلا غيابي، قبّلتُها شاكرة وكُلي لهفة وشوق إلى رؤية زهرة وعدنان ومشاركتهما اللحظة السعيدة لتشريف ولي العهد.

وصلتُ إلى الغردقة وقلبي يكاد ينفطر من الخوف على زهرة، فأحوالها الصحية في الشهر الأخير لم تكن على ما يرام، في رأسي عشرات الأسئلة أبحث عن إجاباتها في وجوه ركاب الحافلة، استقبلني الرائد يوسف، صديق عدنان المقرب الذي التقَاهُ هنا وزميله في وحدته العسكرية، شاب يافع، قوي البنية حتى أني أحسستُ أمامه بالتضاؤل، حديثه هادئ ومتزن، لبق تنضح ملامحه طيبة وذكاء، خمري البشرة ذو ملامح مُريحة ووجه مُشرق بابتسامة رضا، حدثني ببساطة وود وكأننا التقينا من قبل، بساطته وتلقائية حديثه ساعداني كثيرًا على التخلص من حرج انتابني، طمأنني على زهرة فالوضع تحت السيطرة كما أن عدنان لا يُفارقها ولو للحظات.

لم أشعر بطول الطريق ولا أعرف إن كان سائق سيارة الأجرة يسير بالسرعة المطلوبة أم أن حديث يوسف شغلني وأزاح عني عبء الوقت وثِقل المسافة، أدهشتني قدرته على الحوار بسلاسة مع فتاة مثلي لم يرها إلا منذ ساعة تقريبًا، سرده للحكايا رائع يحمل تشويقًا يجعلك تنتظر الكلمات وتترقبها، يبدو أنه يتمتع بقدرٍ عالٍ من صفاء الذهن وسرعة البديهة يُصاحبه قدرة جميلة على الابتسام أثناء الحوار.

وحين وصلنا إلى المستشفى كانت زهرة لم تُغادر بعد إلى غرفة العمليات، ترقد في غرفتها ويفحصها الطبيب الذي أصرَّ على مُغادرة عدنان للغرفة، خرج شقيقي وظل يقطع الممر أمام غرفتها ذهابًا وإيابًا وقد امتلأتْ عيناه بخوف يختلط برجاء، ينظر لعقارب الساعة بلهفة وترقب، جاءت صرخة زهرة من خلف الباب مؤلمة فانخلع معها قلب عدنان، أطبقتُ على كفه لأطمئنه شعرتها مُثلجة يكاد الدم يتجمد في عروقها، خرجت الممرضة من الغرفة يعلو وجهها برود خلَّفه تعوُّد على مُجريات الأحداث فلا شيء استثنائي، عبارة مقتضبة ألقتْها في وجوهنا القلقة: لا داعي للبقاء هنا مازال أمامها بضع ساعات، البكرية تتأخر كثيرًا.

جلستُ مع عدنان في كافيتريا المستشفى، كان المكان ضيقًا نوعًا ما لكن الوقت مُتأخر على أي حال والمقاعد شاغرة، استأذن يوسف بالانصراف فعليه أن يُسلم نفسه للوحدة بعد ساعة، تصافح الصديقان وودعا بعضهما البعض بحرارة، من يدري فربما يكون لقاءهما هو الأخير.

: لا إله إلا الله.

: محمد رسول الله، مبروك ما جالك مُقدمًا.

عبارة صغيرة تعني الكثير، خشيتُ أن يشرد عدنان في شرود

و أردتُ أن اُلهيهِ عن قلقه، فبادرته مُستفهمة:- ألن تُخبرني بالتفصيل كيف التقيتَ زهرة؟ وكيف أحببتَها؟

:جميل أن يُحب الإنسان يا عاليا والأجمل أن يُحِب ويُحَب، فللحب يد حنونة تمسح على قلوبنا بعطف، أليس كذلك؟

أومأت برأسي: لكنه غريب يا أخي يقودنا إلى شاطئ الأحلام فنُمني أنفسنا بالخلود هناك ثم لا يلبث أن يتركنا ويرحل، نفشل حينها في العودة إلى واقعنا المرير ونفشل في البقاء على شاطئ غادر أحلامنا.

فَهِمَ عدنان مغزى كلماتي، فَهِمَ أني أحيا وأحب ولا أريد أن أموت، وغياب زياد عني يُميتُني ببطء، يدور بي في منعطفات خطرة، دواخلي تئن خوفًا وأفكاري يغشاها ذعرًا رغم أني أتنفس وأكل وأشرب وأتظاهر بالحياة، أضحك أحيانًا وأتظاهر بالمرح إلا أن داخلي مُهترأ وقلبي منفطر.

: هل من خبر عن زياد؟

: لا جديد يا أخي، ربما نسيني ونسي ما كان بيننا، يُقال أن (البعيد عن العين بعيد عن القلب).

:ليس زياد يا عاليا ولا يمكن أن تكوني أنتِ من يُنسى.

بعثتْ كلماته بعض الطمانينة في نفسي فهو صديق عمره على أيَّ حال وربما خصَّه زياد بشيء لا يريد أن يبوح لي به الآن، فربما لم يحن وقت البوح، فقلتُ:- دعنا من زياد الآن وحدثني عن زهرتك الحلوة.

: زهرتي قصيدة بلا كلمات وهي وعد الروح وجنة أحلامي.

: أصبحتَ شاعرًا يا عدنان.

: من يُدركه حب زهرة يصير أسعد الرجال وأنا أسعدهم، فلِمَا لا أصير شاعرًا، سأقص عليكِ قصة شاعر العريش صغيرتي، لقد جعل الحب عالمنا مُشتركًا، لا حدود ولا فواصل بيننا، كنا نقاوم دوارًا لذيذًا بعد كل لقاء وكأنها تضع كفها على قلبي فيصير طائرًا يُحلق في عوالم لم أرها من قبل، أما تفاصيل حكايتنا فكانت كالآتي، تدرين أن زهرة كانت تعمل في صيدلية بجوار شقتي في فترة مناوبة مسائية تبدأ من الثالثة عصرًا حتى العاشرة مساءً، سبق وأن رأيتها عدة مرات رؤية سريعة عابرة لا تسمح بأكثر من تحية تسبق طلب دواء عند الحاجة إليه حتى جاء اليوم الذي احتل الصداع فيه رأسي وإني حقًا أشكر ذلك الصداع والذي لم يُفارقني لساعات طويلة رغم تناولي للعقاقير المسكنة، حاولتُ الاستسلام للنوم لعل فيه نجاتي من ألم قاسٍ فأبى النوم وجافاني،

لم أجد بُدًا من زيارة الصيدلية للإجهازعلى ذاك الزائر السخيف والتخلص منه، هذه المرة أبصرتُها جيدًا رغم حاجز الألم، هي من ذاك النوع الذي لا يُبهرك ببريق ولا بضياء مُلفت، جمالها هادئ ساكن يشعر به القلب قبل أن تتكحل به العين، يزداد إحساسك بفتنته كلما طالت نظرتك إليه، لم اكن أتخيل أن يحدث لي ذلك.

زهرة أنثى من النوع الرقيق الدقيق الذي يفيض عفوية وعذوبة كأنه ينبوع يتدفق من الجنة، أخذتُ أتأملها في صمتها وحديثها، كانت ومازالت مخلوقة نادرة، مرت أيام لا أعرف ما حدث خلالها بالضبط غير أنها ملكتْ عليَّ حالي وتبدلتْ بحبها أحوالي، ذهبتُ إليها لأشكرها على جميل صنعها حين رشقتْ إبرتها في وريدي فاختفى صداعي، كيف استطاعتْ التسلل إلى قلبي، كيف استطاعتْ أن تسلُبني صوابي؟ لا أعرف، غير أني بتُّ أزورها يوميًا في الصيدلية، تحدثنا وتقاربتْ قلوبنا، عرفتُ كل ظروفها وكل ما مرَّتْ به في سابق أعوامها، لم تُخبأ عني أمرها ولم تُخفي عني حقيقة نشأتها، فلم يُزدني الأمر إلا حبًا لها وتمسكًا بها، كانت شديدة الخجل، جمَّة الحياء، سكنتْ واقعي وخيالي، وحين رفض والدنا زواجي منها وأكل لحمها غيبة دون شفقة كان

من الصعب عليَّ بل المستحيل التخلي عنها والتنازل عن حبها وقد شغفتني حبًا وكان ما كان يا جميلتي.

آسرني حديث عدنان عن زهرة وحبه المُطلق لها، هو رجل بكر لم تلمسه امرأة من قبل ولم تُحرك غرائزه امرأة فكانت زهرته هي الأولى في كل شيء، أيقنتُ كم خسر عزيز الطوبجي حين حرم نفسه نعمة وِد وحب تحمله زوجة ابن مثل زهرة لحماها، حاكمها على جُرم لم ترتكبه وارتُكِب في حقها وحق إنسانيتها وكرامتها ووجودها وهي لا تزال في اللفة بل إنها كانتْ لاتزال بمشبك السُرة وعمرها لا يتجاوز بضعة أيام، قفزتْ إلى ذاكرتي كلمته المشهورة عنا " الحلاليف"، تذكَّرتُ رفضه حضور عدنان لجنازة أمي وتماديه في غيِّه وطغيانه حتى رفض أن يُلقي عليها ابنها البكري نظرة وداع، تذكَّرتُ كيف كنا ننام في الليل مذعورين ونصحو في النهار خائفين من غضبه وشره.

فتحتُ عيناي ولا أدري كم من الوقت مرَّ وأنا أضع رأسي على طاولة الكافيتريا أتوسد ذراعيَّ، لم أجد عدنان جالسًا أمامي، أسرعتُ الخطى أهرول نحو غرفة زهرة، أبصرتُ عدنان في الممر المؤدي إلى غرفة العمليات، أخبرني أن الآلام اشتدتْ على زهرة

وتعالتْ صرخاتها مدوَّية، أخبره الطبيب بصعوبة وضع الجنين كما أن الحبل السري قد التف حوله وبات مُقيدًا، أسرعوا بها إلى غرفة الولادة بعدما حقنوها بعقاقير" الطلق الصناعي "، ومن خلف الباب كانت صرخاتها تأتينا لترتعد مع كل صرخة منها فرائس عدنان ولأول مرة أرى الدموع تتساقط من عينيه مُنهمرة ولا يُداريها وهو الذي اعتاد الصبر والجلَد وعُرف عنه قوة التحمل.

كانتْ زهرة تبكي وتبكي، تتألم بشدة وتتلوى، يكاد الألم أن يشقها نصفين، تكاد روحها أن تفارق جسدها المُرتعد ألمًا، المُمزق وجعًا، وعندما رأتْهُ، لمستْهُ، شمت رائحته، تحسستهُ، استحال ألمها فرحة ونشوة، رقصتْ روحها طربًا وبهجة، ارتعدتْ فرائسها ابتهاجًا بوصول من احتوته داخلها وسكن عشقه باطنها دون أن تراه، إنها الأم، رحمكِ الله يا أمي وطيَّب ثراكِ.

شهر كامل قضيته مع عدناني وزهرته الحلوة حتى تماثلتْ للشفاء وأصبحتْ قادرة على الحركة كما كانت واستعادتْ بعضًا من صحتها وأصبح من الطبيعي بالنسبة لي أن آخذ الصغير يوسف في حضني ليلًا حتى تستطيع أمه المسكينة أن تهنأ بالنوم لبضع سويعات، أطرقُ باب غرفتها برفق وأوقظها إذا شرع يبكي طالبًا لبنًا سائغًا يسد رمق جوعه، فتحتضنه زهرة بحنان وتنكب

عليه تلقمه ثديها وكلها رجاء أن يكون لبنها سخيًا حتى يُشبع الصغير، كان فمه صغير مُختصر وكأن شهد الدنيا قد تجمَّع في شفتيه الدقيقتين، نتجمع في سرير واحد، نتكور على بعضنا البعض وتبدأ الحكايات والروايات نُغالب بها النعاس ونطرد بها التعب حتى يشبع يوسف ويخلد إلى النوم في سلام فنُسارع بدورنا إلى القفز في بئر عميق نخطف بعض الراحة قبل أن يشتعل بُكاء يوسف مُعلنًا عن نوبة جديدة من السهر!

ليال جميلة قضيتُها أتسامر مع زهرة، تحدثنا فيها عن مواضيع شتى، كنت أتحاشى وأتجنبُ سؤالها عن طفولتها وسنوات الملجأ، لم أشأ أن أقتحم صندوق ذكرياتها وأنبش فيه دون إذنها أو دون إرادتها، فإذا بها تبادر هي بالحديث بسلاسة وتلقائية: لم يكن الأمر مفهومًا بالنسبة لطفلة صغيرة كيف يتركها أبواها بكل برود في سلة للقمامة وهي قطعة لحم حمراء لا ذنب لها ولا جريرة؟!، في بادئ الأمر كنت أفترض لهما الدوافع وأُقنع نفسي أنه لابد من ظروف قاسية أحكمتْ عليهما الحصار ففعلا بي تلك الجريمة، لابد وأنهما سيعودان ذات يوم لاعتذار مني وسيعوضاني عن بشاعة فعلتهما وسأنتقل إلى السكنى في داري وسأغادر ملجأ الأيتام الى الأبد، مرت السنون ومعها تبخر أملي في عودتهما أو عودة أحدهما وكبرتُ وفهمتُ أن اليُتم لعنة ورثتها

obeikan.com

دون إرادة مني لكنها لازمتني، هوَّن عليَّ أني لم أكن الوحيدة، فالملجأ يملأ بين جنباته أطفالًا بملامح مختلفة في أعمار مختلفة اتفقوا جميعهم في شيء واحد مرير، إنهم غرباء جاءوا إلى الدنيا دون رغبة منهم ولا رغبة فيهم وصار اليُتم هنا شرطًا أساسيًا للإلتحاق بهذه الدار.

لا أعلم لما أسموني زهرة ولم أهتم بمعرفة السبب قدر اهتمامي بمعرفة أكان أسمي أصلًا قبل قدومي إلى الدار أم أُطلق عليَّ فيما بعد، أردت أن أكون قد احتفظتُ ولو بشيء واحد عن والدايّ إن كانا هما من أطلق عليَّ الإسم، اعتدتُ الأمر فليس لكل الأسئلة إجابات، وبمرور الوقت صارت الدار داري ونُزلاءُها عالمي، تجيء علينا المشرفات وتروحن، وتتبدل المربيات ويتغيرن، بعضهن يحملن لنا في قلوبهن حنانًا والبعض لا يعرف غير الغلظة والشدة والتوبيخ على أبسط الأخطاء ويؤمن بالعقاب على أتفه الأسباب، كنا نبحث في وجوه بعضهن على مناغاة وابتسامات، نترقبُ الأنس والونس، نبغي الشوق واللهفة فيخيبُ رجاءنا كثيرًا فنواسي بعضنا بعضًا.

كبرتُ عامًا بعد عام وفهمتُ أن التعود يؤثر على الشعور ويقلل الإحساس بالألم واللذة، فكيف لطفل صغير أن يستمتع بعطف حين يكون هو نفسه مهنة لمُشرف أو مُربي، مجرد مهنة

يمتهنها آخر ويقبض ثمنها شهريًا؟! يا تُرى كيف تكون الأمومة وكيف تؤدَى حين تكون مهنة، مجرد مهنة، لازالتْ الذكريات ترتع في رأسي هنا وهناك فانتفض، ذكريات تلك الليالي التي كنت أشتاق فيها إلى حنان أم ورعاية أب والتفتُ فلا أجدهما حولي.

عشقتُ القراءة وانخرطتُ فيها أسكب فيها وحدتي، تفاعلتُ كثيرًا مع كتابات يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله، وفي المرحلة الثانوية أقبلتُ على روايات نور عبد المجيد وأحلام مستغانمي، اندمج بكل أحاسيسي مع بطلات تلك القصص والروايات، أشعر بمعاناتهن وأتألم لجراحهن وتفزعني مشاهد الفراق، أتسمر عندها وتنهمر الدموع حتى تتورم عيناي إذا كانت النهاية تعيسة لكنها الدنيا على أي حال، تلك الدنيا التي رأيتُ منها وجهها القبيح فقط ولم أعرف أن لها وجهً حسنًا إلا حين عرفتُ عدنان، عندها فقط أيقنتُ أن الله تعالى قد آثرني بحب يعوضني عن الدنيا وما فيها.

: أعرف أن عدنان حُبك الأخير، فهل كان الأول أيضًا؟

: إن كنتِ تقصدين الحب الذي لا نستطيع العيش دونه، فنعم عدنان حبي الأول والأخير.

: وهل هناك حب نستطيع العيش دونه يا زهرتي؟

: نعم يا عاليا، هناك حب تدفعنا إليه الحاجة إلى الحب، الحب الذي نقبل به حين نكون على قناعة تامة إننا ينقصنا شيء، فلا تهدأ لنا نفس حتى نجده، فنتشبثُ به وكأنه طوق النجاة ثم حين يستقر زورق عواطفنا وتهدأ حاجتنا نكتشف أنه لم يكن حبًا بقدر ما كان رغبة في الحب ذاته، والفرق شتَّان بين أصل الشيء وظله.

: هل تعنين حبي لزياد أم حبه لي؟

لم أقصد ذلك أبدًا، وأرجو ألا تُسيئي الظن بي.

: أمممممممم، آسفة.

: لا عليكِ صديقتي، كنت أعني ما كان معي أنا وباسم الشوبكي.

: باسم الشوبكي، لاعب الكرة الشهير؟ (قلتُها وكلي لهفة لمعرفة الحكاية)

: حين كنتُ في.............

يبدو أن حديثنا عن ابن الشوبكي أزعج الصغير يوسف وشرع في البكاء دون مقدمات مُعلنًا رفضه لاستمرارنا في الثرثرة أو تأكيدًا لحقيقة باتتْ ثابتة، لقد أصبح الصغير سيد الدار وصاحب الأمر والنهي فيها.

لم أتوقع أن أنشغل بقصة باسم الشوبكي إلى هذا الحد، لم أستطع النوم و أنا افكر ما الذي يُمكن أن يجمع بين فتاة في ظروف زهرة و لاعب كرة يُباع و يُشترى بالملايين؟ وفي الصباح انتظرتُ انصراف عدنان إلى وحدته وما كادتْ زهرة تودعه بقبلة حانية على وجنته وتغلق الباب خلفه مبتسمة متمنية له السلامة حتى سحبتها إلى الغرفة التي أنام فيها بعيدًا عن يوسف الذي يرقد في سبات عميق، أجلستُ زهرة أمامي وقلت:- ما حكاية باسم؟ ها أنا ذا كلي آذان صاغية.

ابتسمت زهرة والتقطت قطعة ملابس من كومة الغسيل التي تنام معي على سرير وشرعتْ تُطبقها وتُعيد هندامها: لا حكاية ولا رواية، كل ما في الأمر أن مجموعة من لاعبي كرة القدم كانوا في زيارة للملجأ ذات مرة لتصوير إعلان كدعم لحملة تبرعات تقوم بها إحدى الجمعيات الخيرية للأيتام مثلي، قابلتُه حينها وكان في مطلع شُهرته، بدا عليه ارتباك شديد وكأنه تلميذ يوشك أن يلقي قطعة محفوظات أمام رئيس البلاد، طمأنتُه وأخبرته أن الأمر ليس بهذا السوء وأنه لاداعي للإضطراب فالأمر يسير على كل حال وبإمكانه إعادة تصوير اللقطة إن لم يرض عنها.

انتهى التصوير وانتهتْ الزيارة كلها، وفوجئتُ فيما بعد

بتكرار زيارته للملجأ وكثرة تبرعاته واهتمامه بقضاء الوقت معنا، كنت أختلف عنه كثيرًا، فهو جريء صريح لا يُجامل أحد، صوته ذو رنة عالية، عيناه تنظران مباشرةً نحو ما يريد، أفكاره مُنحرفة نوعًا إذا ما تعلق الأمر بالفتيات، يتحدث مع زميلاتي بارتياحية ودون تردد أما أنا فتراوغه الحروف والكلمات إذا ما حادثني، وفي شهر واحد تكررت زيارته للملجأ أربع مرات وفي كل مرة كانت البنات تُقسِمن أن نظرته لي نظرة مختلفة متفحصة، لها مغزى وغاية، وفي إحدى المرات أخبرني أني السبب الوحيد لقدومه لهذا المكان وأنه والمعروف عنه غرامياته المتعددة وعلاقاته المتشعبة بالفتيات إلا أنه يريد أن يتزوجني الأمس قبل اليوم وسيحقق تلك الغاية في أقرب وقت ممكن.

أخجلتني كلماته جدًا لكنها داعبتْ أحلام مُراهقة كانتْ مختبئة داخلي، كنتُ حينها قد أنهيتُ الثانوية العامة وقدمتُ أوراقي للإلتحاق بالجامعة، لم أستطع الرد عليه وانسحبتُ مهرولة إلى غرفتي.

بعد عشرة أيام نادتني مديرة الملجأ وأخبرتني أن باسم الشوبكي قد طلبني للزواج وأنه سيأتي لزيارة الدار مع والدته غدًا صباحًا، شعرتُ بفرح وسرور وغبطة مصدرهم شعور داخلي

جارف بأنني استرددتُ حقي في هذه الحياة وكرامتي حين يفكر رجل كباسم في الزواج بي رغم كوني لقيطة.

مرَّت عليّ الليلة مختلفة و أشرق نور الشمس و وصل باسم و والدته ودخلتُ إلى غرفة الاستقبال وأنا في كامل هيئتي، بسيطة لكني أنيقة مقارنة بوضعي كيتيمة في دار للأيتام، احتضنُ قلبي وأشعر بقيمتي، وأقسم أني لم أكن أتذكرحينها ملامح وجه باسم جيدًا لأنها لم تكن قد حُفرت في ذاكرتي بعد، كان الوقت نهارًا وبعد فترة انتظار حمدتُ الله أنها لم تطُل، دلفتْ مديرة الدار إلى الغرفة برفقة باسم الشوبكي ووالدته، كانت سيدة في أواخر خمسيناتها، ممتلئة القوام، مُحجبة في ملابس ثمينة غالية لكنها تفتقر إلى الذوق وتناسق الألوان، قاسية الملامح، وما أن وقعتْ عيناها عليَّ حتى صاحتْ بغضب وبصوت حاد كفحيح الأفعى تقول:

: أتريد أن تتزوج زهرة، هل فقدتَ عقلك؟ هل أصابكَ مسّ شيطاني، تريد الزواج بهذه اللقيطة التي لا يُعرف لها أصل ولا نسب، تريد أن تزرع شجركَ في غير أرضه! أراكَ تقهر قلبي وتدفنني حية يا ابن عمري، لا والله لن أسمح لكَ أن ترتكب في حق نفسك وحقي تلك الجريمة النكراء مادمتُ حية، لن أسمح.

كلمات نارية وحمم بركانية ألقتْها السيدة والدة باسم في وجه

ابنها أمامي وعلى مرأى ومسمع من مديرة الدار التي حاولتْ تهدئة الموقف وامتصاص صدمتي وطالبتني بالانصراف إلى غرفتي وأعلنتْ انتهاء الأمر وعلى الجميع نسيان ماحدث، سقطتُ في فراشي أُخفي رأسي بين ذراعيَّ وكأن تلك السيدة الفظة قد صفعتني مرارًا ولم أحتمل صفعاتها، مشهد إهانتها لي وسخريتها اللاذعة من اختيار ابنها لِمثلي كزوجة صار عرضًا كاملًا بالصوت والصورة يتردد داخلي طوال الليل، تلك القسوة التي رأيتُها في هيئتها وكلامها يستحيل ان تُمحى من ذاكرتي، بكيتُ وبكيت حتى الصباح ولازلتُ رغم مرور السنوات أتذكر ذاك الوجع وتلك الغصة التي باتتْ في حلقي متشعبة فيه في تلك الليلة والتي لم أعد أبكي بعدها أبدًا لكن أحزانًا مبهمة ظلتْ تنمو داخلي في هدوء وصمت نحو مجتمع شديد العُهر يحاسب طفلة صغيرة ويُقرعها تأنيبًا لأن أمها وضعتها في خرقتها ولملمتْ ذيول جريمتها وتلفتتْ في الظلام تلفظها ثم ببساطة رحلتْ عنها للأبد.

: وهل انتهتْ الأمور عند هذا الحد؟ ألم يحاول باسم الاعتذار لكِ، ألم يحاول تبرير الموقف؟ ألم يُقْدِم على أي ردة فعل؟

: بلى يا عاليا، كانت له ردة فعل عنيفة جعلتني أكرهه وأشفق عليه في آن واحد، لقد تزوج من فتاة حسناء جمالها فتاكًا، الإبنة

الصغرى للاعب كرة قدم معتزل ذو شهرة ومال ونفوذ، يُرضيه حسبها ونسبها وتُساويه مقامًا،ويحترمها وتنبت له أزهارًا بلا أشواك، شعرتُ يومها بحنين جارف لأن أدفن خيبتي في صدر أمي، تلفتُ حولي فلم أجد إلا خيبتي وحسرتي ويُتمي مُنتشيًا بانكساري، لم أكن أحب باسم حينها كل ما في الأمر أني زحفتُ برعونة لذيذة نحو حلم المساواة، بعث حبه لي ورغبته فيَّ دفء شمس لم ألمسها من قبل ثم اكتشفتُ أني لم أكن سوى ممثلة اكتشفتْ فجأة أن ملابسها رثة ودورها مُضحك وأنها بحاجة إلى البكاء في صدر ما فلم تجد، فقد كان في مقدور السيدة والدة باسم أن تنهره وتُقرعه على اختياره لي دون أن تقطع تلك المسافة الطويلة من القاهرة للعريش، لكنها تعمدتْ إيذائي و تلذذتْ بإهانتي والسخرية من حالي أمام ابنها، أرادتْ أن تكسرني بل أرادتْ أن تشُقَّني نصفين بلسانها الحاد و قد تم لها مُرادها.

ليلتها وقفتُ طويلًا أمام المرآة لأُحصي كنوزي إن كانت لي كنوز وبإصرار بخيل وحرص بخيل وخوف بخيل حين يشعر أن عليه أن يدفع، أدركتُ حينها أن لا شيء عندي أستطيع دفعه لتسديد دين كوني لقيطة سوى ان احتمي بإيماني وأن أتربص بعقلي أُعيد ترتيب أولياته وأن أتذرع بالحكمة وأخلع عني ثوب

المراهقات فلا يحل لي دلالهن ولا رعونتهن ولا آمالهن العريضة، ولقد حكيتُ لعدنان كل ما كان من أمر باسم بلا غضاضة، لأني أحببتُه بل وجدتُ نفسي غارقة في حبه، أتجاهل معه كل نظرتي البائسة للغد، عرفتُ معه أن الحياة رائعة ومذاقها حلو مستساغ حين نتشاركها معًا، حين يتعلق مصيرنا بمصير من نحب فتقبل حينها الحياة القسمة على اثنين، عدنان حب العمر الذي تصرخ معه جوارحي أني سعيدة بل سعيدة جدًا، لهذا فإني حريصة ألا يشوب هذا الحب أي شائبة ولا يُنغصه أي منغص.

فعدنان هو حاضري الجميل رغم قسوة ماضيَّ، هو الحب الحقيقي وليس ظله، فلا يُمكنني أن أنسى حين أصابني التهاب رئوي حاد وحمى شديدة ارتجفتْ معها أوصالي كلها، وجدته ملازمًا لي، مرافقًا في الشدة والمرض دون خوف من عدوى ولا مهابة من مرض، يسهر بجواري يُمرضني وكأنه حارسي الأمين وأنا كنزه الثمين، يُرتِّل قرآنًا جواري ويهمس به في أذني ومتعته الكبرى حين افتح عينيّ ليُبادرني بابتسامة رضا تُطمأنني على حالي، كم من ليلة قضاها عدنان مُكورًا جسده في الفراش بالقرب من قدميَّ لأجده حين أصحو مُمسكًا بيدي فيهبط على قلبي السلام، يضمني إلى قلبه ويحتضنني بكلتا ذراعيه كما لو كنت

طفلته التي يحميها ويفديها بنور عينيه، لشدة ما كنت معجبة به، محبة له قبل الزواج وقد أثبتَ لي بكل الادلة وبكامل البراهين أنه رجل حقيقي بكل معنى الكلمة، كم تمنيتُ أن يكون لي بدل القلب قلبين حتى أحبه بكليهما، فلا قلب يُمكنه مهما اتسعت طاقته أن يحب عدنان كما يستحق هو أن يُحب.

وما كادت زهرة تُنهي حديثها حتى اخترق سمعنا صراخ يوسف الصغير مطالبًا بوجبة هنيئة من لبن دافئ رغم برودة الجو، فإذا بزهرة تختفي من أمامي في لمح البصر وكأنها لم تكن في الغرفة أصلًا.

ولأن الأيام الجميلة تمر سريعًا كما أن القدر يأبى إلا أن يدهس سعادتنا ولا نستطيع أن نهرب منه، فقد استيقظنا على انفجار مدو كالصاعقة، ارتجفتْ معه قلوبنا واهتزتْ بين ضلوعنا وكادتْ الأرض أن تتشقق تحت أقدامنا، اتصالات متكررة متلاحقة على جوال عدنان دون جدوى، بعثر الخوف والهلع كل أمل لنا في الوصول لعدنان والإطمئنان عليه، هرولنا الى التلفاز نفتحه طالعنا شريط الأخبار في التلفاز يُطل علينا بما لم نستطع معه صبراً.

(استهداف الكتيبة ١٠١ -العريش بقذيفتين هاون عيار ١٢٠ ملم)

(استشهاد ثمانية جنود وإصابة عشرة آخرين)

obeikan.com

بذهول ودونما تردد، انتزع الخوف زهرة ونشل عنها هدوءها ووقارها ودبتْ في عروقها قوة عجيبة، ركضتْ فجأة إلى خارج الدار لا ترى الناس الذين يرمقونها بدهشة، لا ترد على تساؤلاتهم، لا تكاد تسمعهم، لا أحد يهمها، تركض وشعرها يتبعثر خلفها، أزرار بلوزتها قد انفرجتْ وكشفتْ عن ترقوتها التي تتأرجح بين ارتفاع وانخفاض مخيف، تسقط ثم تقوم وتركض من جديد تكاد الأرض أن تتحطم تحت قدميها، كيانها مُبهم، قلبها مخلوع، حملتُ الصغير يوسف في حضني أحوط عليه لا أدري ما أقول ولا أعي ما يمكنني فعله سوى الركض خلف زهرة محاولة اللحاق بها، لا يوجد متسع للكلام ولا يوجد كلام يُقال، فالأمر أعمق وأنفذ وأبلغ من أن تصفه كلمات، فللموت رائحة تُزكم الأنوف وتُخرس الأفواه بل أنها تُلجِمُها.

(الشهيد الرائد يوسف حسين عبد العزيز- ٢٨ عامًا)

لحظة واحدة فارقة تشرَّف فيها اسم يوسف بلقب "الشهيد"، تلك اللحظة التي يفارق فيها الإنسان حياته وكل ما رتبه لنفسه من أحلام وأمنيات لينقطع كل ذاك فجأة ويصبح هو نفسه في عالم آخر.

إنها اللحظة التي صار فيها يوسف خير الناس مُنزلًا عند

الرحمن، سكنتْ روحه الفردوس الأعلى حيث يجري عليه عمله حتى يُبعث، حيٌّ يرزق هناك، صار دمه مِسكًا، روحه في جوف طير أخضر يرفرف ويردُ أنهار الجنة ويأوي إلى قناديل في ظل عرش الرحمن، هي لحظات لا يمتطي صهوتها إلا الرجال وقد كان يوسف رجلًا وسيظل حبه رابضًا في قلب صديقه الرائد عدنان عزيز الطوبجي إلى ما شاء الله.

: إنما يولد من هم مثل يوسف للشقاء، ابن موت من يومه، قلبه عجيب وسِع الناس جميعًا، إنه ذاك الشخص الذي يتفق عليه الكُل ويجتمع حوله الجميع، ربط بين قلبينا خيط خاص من الأخوة الصادقة لوجه الله منذ أن عرفته،خصني دون غيري بحديث لم يخرج من القلب إلا لي.

يوسف ذاك الصدّيق في زمن لا يعرف الصدق، اعتبرتُه أخًا لي، غلاوته من غلاوة علي، يوسف الرجل هادئ الطبع، كريم النفس، جميل الخلق، هو ذاك الصديق الذي تركن إليه في الشدة والضيق فيؤازركَ ويؤثركَ على نفسه ولو كان به خصاصة، إني أذكر جيدًا كيف أخبرني قبل أعوام بحبه لإبنة الجيران، كيف كان يُعيد ترتيب خصلات شعرها التي تطايرت آثناء اللعب فيُخيل إليه أنه يشمّ عبيرًا منعشًا كعبير الياسمين، تمامًا كاسمها، كان يعيد

ترتيب تلك الخصلات وهو يتمنى أن يجمعها بشفتيه ويدفن وجهه فيها، لم يكن يجرؤ على أن يصيح فيها حين كانت تنزع منه لُعبه أو تُفسد له كُرته التي يلعب بها لأنها شغلته عنها لبعض الوقت، لم يجرؤ أن يخاصمها يومًا أو ينازعها أمرًا، وفي مراهقتها كاد يُقبلها مرة لكنه لم يستطع رغم أن عينيها الخضراوتين كانتا تدعوانه بنداء حار لأن يفعل لكنه لم يجرؤ.

كبرتْ ياسمين وكبر معها حب يوسف لها وغرامه بها دون أن ينطق حرفًا، فاليد قصيرة والعين بصيرة، استمتعتْ ياسمين بحبه الصامت لها وحرصه عليها وحين اشترى عينيها الحلوتين شاب غني لم يجرؤ يوسف على الاعتراض ولم يسع إلى الشكوى، هنأها وتمنى لها السعادة، غابتْ من حينها من أمام عينيه واختفتْ عن ناظريه، رحلتْ إلى أرضها الجديدة لكنها ظلتْ في أعماقه جرحًا غائرًا تُزيده الليالي عمقًا حتى أقسم أنه لن يكون لغيرها، فالعشق مرض لا أجر فيه ولا عوض.

سكنتهُ ياسمينة بيضاء واحتلتْ قسمات روحه ولم تفارقه يومًا، كان دائمًا ما يقول " كلما لملمتُ قلبي زاره شوق قديم "، فقط كان يتمنى أن يضمها إلى صدره المتعب بحبها، المُثخن بهجرها ولو لمرة واحدة طوال عمره حتى لو كانت ضمة آخر

العمر، ضمة ما قبل الموت، ضمة في السبعين أو الثمانين من العمر، لا يهم، فالياسمين يبقى أبيضًا مهما خانته الفصول.

(وآه يوسفاه صديقي ادعو الله من كل قلبي أن تكون ياسمين حوريتكَ في الجنة).

أطلق عدنان عبارته تلك وهو يُطبق بيديه على قميص يوسف، ذاك القميص الذي أحضره له صديقه في المستشفى عندما اتسختْ ملابسه ليلة مولد يوسف الصغير، ولم يسترده فيما بعد ناسيًا أو متعمِدًا لا ندري، تشمّم عدنان القميص بشغف يُعانق فيه جسد يوسف بشدة، أطلق آهة تجمع فيها عذاب الفراق كله وقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤].

انهمرتْ دموعي وزهرة كالشلال على يوسف متبوعة بشهقات كادتْ تبلغ معها أرواحنا الحلقوم، ذاك الذي غدا شهيدًا في عمر الزهور لكن عدنان قاطعنا قائلًا بفرح: إنه يوم سعد يوسف وفرحه، يُزف الآن في السموات العلى، يسير عريسًا بين رياحين الجنة.

ثم أكمل حديثه بنشوة: أثق في كرم ربي وجُودِه، أكادُ أرى يده تعانق يد ياسمين الآن، إنهما يسيران معًا بين بساتين الجنة.

ثم أجهش عدنان في بكاء مرير ترتجف معه كل عضلات جسده الممشوقة.

رحمكَ الله يوسف وطيَّب ثراك.

و مضتْ الأسابيع حزينة تكاد تتفتت من حزنها على يوسف، زهرة تفعل كل ما في وسعها لتستعيد عدنان وتُعيده إلى الحياة ليمارسها بطقوسها الطبيعية، يتجاوب معها وينفعل بها، يضحك أو يبكي لا يهم، فالأهم أن يخرج من دورة حزن أزليه يقبع داخلها، يتحرك بآلية كعقارب الساعة، أو كأنه خفاش اعتاد ظلامه واعتاد السكينة إليه حتى أن الأضواء القوية باتت تُرهق عينيه، في صوته حُرقة غريبة ولوعة مبهمة، قد تجمدتْ العَبرات في مقلتيه ليس جبنًا ولا اعتراضًا ولا حزنًا، لم يكن شيئًا من ذلك كله فهو جندي شجاع على أية حال، لا يفر من معركته ولا يُدير لها ظهره، بل تمردًا واحتجاجًا على قسوة الحياة وخشونتها والتي تصرعنا دومًا فيمن نحبهم ولا تكتمل أرواحنا بهاءً إلا في وجودهم فتلعن بهاؤنا وتصفعنا بالفاجعة تلو الفاجعة وكأنها في معركة معنا ولا تهدأ مدافعها إلا بقصف حصون محبتنا و دكِ قلاعنا.

ثلاث شهور قضيتُها في العريش سجلتُ خلالها كل شعور رصدته وعايشته في بيت عزيزي عدنان في دفتري، أحببتُ

يوسف الصغير وعشقتُ غنّاته وابتساماته حين تُداعب أطراف أنامي قدمه المرمرية الصغيرة فتسري القشعريرة في جسده الصغير وتنكمش أطرافه.

عُدتُ الى الإسكندرية استجابة لرجاء حنين وعلي المهووس بها، اشتقتُ إليهما وكان لقاؤنا حارًا كحرارة البطاطا حين تخرج من الفرن ولا نصطبر عليها فنلتهِمها بنهم فتحترق ألسنتنا لكن لذتها تُراضينا فنستمر مُقدمين حريصين على هذه الرعونة رغم لسعتها.

وفي اليوم الأول لعودتي هرولتُ إلى عم ربيع، احتضنته بشوق فطَبع الرجل قُبلةً تفوح بشذى الأبوة والحنان وقال: أعجبتكِ العريش إلى الحد الذي جعلكِ تغيبين طويلًا وتنشغلين عني يا عاليا؟

اعتذرتُ لصديقي العجوز بقبلةٍ ودودة طبعتُها على وجنته البضة رغم تجاعيدها وقلت: سأعوضكَ بصينية قرع عسل بالمكسرات إن قبِلتَ اعتذاري يا ريعو..

هكذا ببساطة كانت علاقتي بعم ربيع، تصادقنا دون أن نتعمد، دون أن نختار، فصداقة الشاردين شوقًا المشردين شجنًا غير قابلة للاختيار، إنها حالة يفرضها نار الوجْد و حدّة الشغف.

obeikan.com

شوقي لحنين أيضًا كان عميقًا كبيرًا فاق تخيلي وربما إدراكي، باتتْ تلك الرقيقة تحتل من نفسي مساحة لا أستطيع أن أصل إلى مداها لكن أكثر ما استفزني حين عدتُ وأثار حفيظتي هو فرط استسلام علي لمشاعره نحوها وفرط انصرافها عنه رغم كل ما يُحيطها هو به من حرص واهتمام وهيام، تتغافل بإرادتها عن اهتمامه وحرصه، فلحنين نصيب وافر من الذكاء يؤهلها لفهم معنى اهتمامه والغاية منه، كما أن افتتنان علي بها يستحيل إغفاله وهي الفتاة التي حيكتْ كل ذرة من ذراتها بعناية لتنسج منها ذكاء على شكل امرأة، إن استنفارها لكل خطوط دفاعاتها الأولية ومشاعرها العدائية التي تتلبسُها مُباغتة حين يكاد قناع الجمود واللامبالاة يسقط عن وجهها الجميل وتكاد مشاعرها تركن إلى عليٍ وتوشك أن تستسلم يستفزني، حيَّرني أمرها وراودني خاطر أن أحادثها صراحة ودون مواربة وأبروز مشاعر علي أمامها فربما أجبرها ذلك على المواجهة إلا أن إصرار علي على تركها تنعمُ بحرية مشاعرها وتَرف تُجاهلها له آثار شفقتي عليه وإعجابي به في آنٍ واحد.

يوم جديد من أيام الشتاء الذي أعشقه؛ حيث تُغْلَب الشمس على أمرها فتُلملم ثنايا ثوبها وتختبئ هناك خلف ستار من

obeikan.com

السحب الداكنة، كانت الساعة تُشير إلى الحادية عشر صباحًا، يبدو أن النعاس قد غالبني بعد طول سُهادٍ، فتأخرت عن موعد استيقاظي الذي لا يتجاوز التاسعة عادةً، من المؤكد أن البيت خالي عليَّ الآن، هاتفتُ حنين على جوالها لنتناول قهوة الصباح معًا فلم تُجب، ثم تذكرت أنها أخبرتني بزيارتها لمكتبة الإسكندرية اليوم ضمن رحلة ثقافية نظمها أحد جروبات الفيس بوك الثقافية المعنية بالقراءة والمُهتمة بالآثار والتي تتابعها نينو بانتظام بل وتشارك في كل اجتماعتها و ندواتها وفعالياتها الثقافية، دعتني حنين لمرافقتها لكني اعتذرتُ بسبب نزلة البرد اللعينة تلك التي أصابتني منذ أسبوع ولا تزال تبعاتها تلازمني.

اشتقتُ إلى كوبٍ من النسكافية يُعيد إليَّ بعض قدرتي على التركيز والاتزان، عادتي الجديدة التي باتت تُلازمني، تقدمتُ مندفعةً نحو المطبخ فوجدتُ مظروفًا يحمل اسمي، يبدو أن عليًّا قد تركه على المنضدة التي تسكن وسط الصالة في مكان مميز لتقع عليه عيناي ببساطة، ارتجفتُ ولا أعرف لِمَا خفق قلبي فور رؤيتي تلك الرسالة، التقطتها بسرعة وبعفوية، انفرجت شفتاي قائلةً: زياد، إنه هو.

عانقتُ الخطاب بشوق وقبَّلْتُه بلهفة، بالفعل كان مُرسلًا

ممن طاقت نفسي لرؤيته أو سماعٍ عنه، خفق قلبي بشدة واندلعت مشاعري تفض الظرف بلهفةٍ وترقب ممزوجٍ بالخوف، فضضته بأصابعٍ مرتعشة وجرت عيناي فوق سطور الخطاب بكل لهفةٍ شوق.

حبيبتي عاليا:

غابت شمسكِ عن سماء حبي، فأصبح كوني كتلةَ ظلام، لا ملامح، ولا ألوان، ولا أصوات، عالمي فارغ مفرغ لا هوية له ولا كينونة.

هنا في محبسي كل شيء بطيء، راكدٌ ركود الليل، أصبحت الساعات قاتلةً والدقائق حارقة، أكتوي هنا وحدي بالثواني المُستعرة، تؤلمني الأيام وتلفحني نار الفراق، فالفراق حبيبتي كلهيب الشمس، يحرق، يُبخِّر الأمنيات، ويحرق الذكريات، فإني في أسوأ خيالاتي لم أكن أبدًا أتخيل أن زماني سيكون قاسيًا عليَّ إلى هذا الحد، جارفًا إلى حد أن ينتزع شجرة أحلامنا انتزاعًا بهذه الضراوة، فقد كنا دائمًا نحاول أن نسرق من أيامنا وواقعنا المرير لحظاتٍ جميلة ناعمة، تطول أو تقصر لا يهم، الأهم أننا كنا معًا، ولم يخطر ببالي أن لقاءنا لن يدوم، لم يدُر بخُلدي أن أحلامنا هشةٌ كالزجاج وأنها ستنكسر حين نلمسها، فهل كان طموحي جامحًا أكثر مما تتطلبه حياتنا.

وحدكِ أنتِ كنتِ أنثاي التي تستطيع العزف على أوتاري، تستطيع تمزيقي وبعثرتي، تستطيع تجميعي وتشكيلي كيفما تريد، لكِ كل اعتذاري فلا تُسعفني حروفي ولا تقوى كلماتي على سردكِ.

فأكبر الكوارث وأعظمها هي التي لا نستطيع أن نواجهها، ففي معركة الحياة والحب تفوز الحياة دائمًا، فلا قوة يملكها الحب ليصمد أمام تحديات الحياة، نعم، ليس لنا حيلة أمام تصاريف القدر وتقلباته، فقد رحلتُ مُجبرًا وغابت صورتك من أمامي، ولا أملك أن أعود؛ ليحتضن كفي كفك، ولتهنأ عيناي برؤيتك، وتُغرد أذناي بسماع صوتك، آسف، لم يعُد بوسعي العودة، فربما يكون نصيبي من الدنيا أن أحب امرأة كل الطرق لا تؤدي إليها، فالأمر جل خطير وأحكام القانون هنا قاسية، صارمة، لا رحمة فيها ولاهوادة أبدًا.

فذاك الحادث الأليم الذي تعرضت به دون عمد مني أو استهتار بأرواح المارة قد أدى إلى مقتل أب لثلاث قُصَّر،أكبرهم عمره الآن أحد عشر عامًا، نعم، قد كان الحادث غير مُتعمدًا ونية القتل غير متوفرة، لكنه خلَّف قتيلًا شابًّا ويتَّم أطفالًا وحرمهم من الأب والعائل والمُعين، وأقسم بالله العظيم أني أستغفر الله في اليوم لأكثر من ألف مرة وأتوب إليه صباحًا مساءً، وقد صُمت

بالفعل شهرين متتابعين كما أرشدني إمام مسجد السجن هنا، بيد أنه يلزم عليَّ دفع الدية مُسلّمة إلى أهل المتوفي، ولما كان هذا مُتعذرًا بل إنه مستحيل، فقد حُكم عليَّ بالسجن هنا عشر سنوات كاملة حتى يشُبُّ أكبر أبناء المتوفى ويبلغ رشده ويكون مسئولًا قانونيًّا عن تنازله وتنازل إخوته الأصغر منه عن الدية، عندها فقط أستطيع أن أنال حريتي وأغادر عائدًا إلى موطني.

لكني لست بتلك الأنانية والغرور؛ لأطالبكِ أو حتى أتوقع منكِ انتظاري عشر سنوات كاملة، لأعود إليك بعدها مُتبخترًا أجُرُّ خيباتي وأسجنكِ بإحباطاتي وأصبُّ فوق رأسك جحيم يأسي، أعود بلا شيء، فقد خسرتُ هنا كل شيء، لقد سقطتُ في غيبوبةٍ سحيقة وليس في استطاعتي أن أفوق منها ولا أسعى إلى ذلك، فالغيبوبة سلوان من الله لمن سُلب منه حياته مثلي أنا، أما أنتِ ففي كامل وعيكِ وإدراككِ وعليكِ التمسك بهما ما حييتِ صغيرتي..

أرجوك عاليا، استحلفكِ بكل ما قد كان، استحلفك بكل ما حلمنا به وما خططناه معًا، استحلفكِ ب "آسر ورؤى" أبنائنا اللذين اخترنا أسمائهما هناك على هضبة المقطم لا تنتظريني، عليكِ مغادرة كوكب وجودي إلى الأبد، لا تعقدي آمالكِ عليَّ ولا تعقدي نذورًا من أجلي، لا تذكُريني في صلواتك ولا تبتهلي

إلى الله من أجلي، فقط انسيني، فربما لا أعود إلى وطني مجددًا، فإني لا أستطيع احتمال نظرات الحسرة على حالي والتحسر على ما جرى لي التي ستلمع بها عيون من حولي، فقد تعرفتُ هنا في زنزانتي على مهندس شاب من المغرب، رفقته تُهوِّن عليَّ الكثير، حُبس في قضية تقصير وتبديد عهدة حيث تسبب في ضياع بعض الأوراق والشيكات الهامة من شركته هنا، وقد حُكم عليه بسبع سنوات، وقد انتويتُ عند انفراج غُمتي أن أهاجر إليه حيث يسكن في كازابلانكا وسأعمل معه هناك في مشروع خاص قد خططنا له من الآن، وسأحْضِر أمي الغالية إلى حيث أكون، أرجو أن يُمتعها المولى بالصحة وطول العمر ويُكافئني برؤيتها من جديد.

أعلم يقينا أن كلماتي أغضبتكِ، وأثارت حنقكِ، تتهمينني الآن أني لم أحبكِ، وليعلم الله كم أحببتكِ وسأحبكِ الى أبد الآبدين، أحببتكِ نعم، لكن زماننا لم يحبنا ولم يحب حبنا، سأصارع وحيدًا طوفان الحب الصادق الذي يجري في قلبي نحو مصب واحد هو جميلتي عاليا، التي عرفتها صبيةً مليحةً ذكيةً، رقيقةً كالنسمة وديعةً كالوردة، لينةً كثمرة التوت، تعرفين كم أحبُ التوت عاليا، أحبه؛ لإنه يُذكرني بكِ يا أجمل فصول حياتي، ليتكِ كنتِ فصلًا أبديًّا لا ينتهي، ليتكِ كنتِ كذلك!

بحق كل حرف كتبته إليك يومًا من محبسي هنا ولم أرسله؛ لأجنبكِ السواد الطاغي على نفسي، وحتى لا أجعل الحزن يلعنكِ والهَم يشتمكِ، أرجو ألا أستقبل منكِ مزيدًا من الخطابات، وستكون رسالتي هذه هي الأولى والأخيرة، وأرجو من الله تعالى أن يمنحني ويمنحكِ القوة والقدرة على احتمال الفراق وألمه ولوعته، وأتمنى أن أسمع عنكِ كل خير، وأن تمنحكِ الأيام السعادة التي لم استطع أن أحققها لكِ مع من هو أسعد وأوفر مني حظًّا، لا أريد أن أراكِ مجددًا، لا اليوم ولا غدًا ولا بعد عشر سنوات!

رجاءً انسيني...... زياد

هرعتُ إلى عم ربيع، تسبقني دموعي المُنهمرة، تُعلن عن ألمي وتعاستي، يسقبني إليه قلبٌ منخلع كان وما زال دائم اللهفة، دائم الشوق، دائم اليقظة، استقبلني عم ربيع بين ذراعيه بحنان لم أعرفه من قبل وعطف لم أتذوقه من قبل، استمع إلى كلماتي المتقطعة المتحشرجة، الممتلئة بالخيبة واليأس، المحشوة بالآهات والحسرات، أخبرني أنه يشعر بمقدار ألمي ويُقدِّر لوعتي، ولكنه قد أخبرني مسبقًا بأن عدم استجابة زياد لخطاباتي وتعمده عدم الرد على مُهاتفاتي هو عنوان لقرار مدروس اتخذه زياد بالانسحاب من دنياي، أما خطابه الوحيد لي بعد كل تلك

المدة والذي أفزعني وأدار رأسي وأوصلني إلى ما أنا فيه؛ فلأن ذاك الخطاب قد وضع الصورة القبيحة أمامي وكنتُ من قبل أتحاشى النظر إليها، فقد صدمني قرار زياد ورأيه المخالف تمامًا لما أتمنى وما أرغب، لكنه رجل شجاع، لا يتسم بالأنانية القاسية المعروفة عن التعساء، فالتعساء دائمًا أنانيون، مشغولون بمعاناتهم الذاتية عن تقدير معاناة الآخرين وآلامهم، ولا يستطيعون العطاء ولا يملكونه؛ لأن قسوة ما يعانونه تجفف منابع العطف على الآخرين داخلهم.

قرأ عم الربيع الخطاب ثم أردف: لا بد أن زياد قد عانى كثيرًا فوق معاناة الغربة المريرة والسجن المؤلم بعيدًا عن وطنه، وبعيدًا عن أمه المسكينة، وبعيدًا عن حبيبة الطفولة والصبا، عانى من التفكير العميق المتواصل في صراع داخلي اجتاحه بضراوة، صراع مُنهك بين حبه لكِ وحبه لسعادتكِ؛ لينتهي إلى تحريرك من كل الوعود والعهود التي قطعتموها معًا، ليصل في نهاية الأمر إلى قرار يراه صحيحًا وله ما يُبرره في النهاية، فلا بد أنه قد عانى من ألمٍ غير محتمل، ألم مُشتعل مستعر في صدره، ذاك الألم كالوحش الضاري ينشب مخالبه الحادة في جسمه وعقله ووجدانه، يتنازعه أمران؛ حبكِ ومستقبلكِ، لكن حبه لك لم

يشغله عن حبه لمستقبلك، فليس من العدل أن يُطالبك بتحقيق عهود هو نفسه قد أخفق في تحقيقها، حتى وإن كان إخفاقه مفروضًا عليه ومقدرًا له.

فليس من العدل أن نُطالب من تشتعل النار في ملابسه ويُصارع لهيبها بأن يشترك في إخماد حرائق الآخرين، وهو لم ينجح في إخماد الحريق المشتعل فيه هو نفسه!

فأي منطق يُجبر فتاةً شابةً أن تُجفف بيديها أوراق ربيعها الملونة وتُحيلها جافةً، رماديةً، لا حياة فيها ولا روح!

لقد أحبكِ زياد يا عاليا، أحبك بصدق وعقلانية، أحبكِ أكثر مما أحب ذاته، وتخلص من أجلك من أنانية التعيس وكان أكثر الناس رحمةً بك، فلا تكوني أقل منه إحساسًا وتقديرًا للأمور، ولا تضيعي تضحيته وتُسرفي في إرهاق نفسك بأمر قصة حب لم يتقبلها منطق الحياة رغم عبقريتها وصدقها، اقبلي تضحية زياد وهديته، فقد أهداكِ سنوات عمركِ المُقبلة.

صمت عم ربيع وصمت معه الزمن، أحسستُ بقلبي يدمي، لا أكاد أعي ولا أسمع ولا أرى، تسللتُ إلى خارج دكان الرجل وقد تملكتني ثورةٌ عنيفةٌ ترتج صيحاتها داخلي، وأحسست بإيماني بالحب يتبدد ويستحيل إلى سرابٍ مُحطِّم للأعصاب،

مُهدِم للقوى، سألتني حنين عما بي، فلم أجب وانهارتْ جميع دفاعاتي وانهار معها جهازي العصبي، يبدو أنه احترق بالكامل!

حبيبي زياد:

ضمني إلى صدركَ حبيبي، ضمني أكثر، فالموسيقى حارة مُغرية وأناملكَ الناعمة التي تلامس خصري أكثر حرارة من صيف أغسطس، راقصني بحرارة كما كنتَ تراقصني هناك على هضبة المقطم منذ أربعة أعوام حين احتفلنا معًا بعيد ميلادك الخامس والعشرين، اهمس في أذنيَّ بعبارات عشقكَ السخي، عبارتي المفضلة التي دومًا كنتَ تسكبها في عقلي فيرتج قلبي ويرقص فرحًا: " أحبَّ عبير شعرك الأسود وأحبَّ عينيكِ العسليتين "، أكاد انفلتُ من بين ذراعيكَ من فرط السعادة فتمسكني وتقبض عليَّ بيديكَ أكثر وأكثر، فأشعر أن الموسيقى تتسلل إلى جسدي وتُحركه فتغشاني لذة فطرية، فتزداد مني اقترابًا وتتسارع ضربات قلبي فتبتسم لي وتدفن رأسكَ في شعري، فأشعرُ بأن حضنكَ يمتصني، أضيع فيه وأتلاشى.

شتَّان الفرق بين الأمس واليوم يا زياد، أنا الآن كالدمية الخرساء، صامتة كالقبر، ربما فقدتُ رغبتي في الحياة لكني لم

أفقد قدرتي على الألم وليس بمقدوري أن أنجو، أبات أتساءل " لما تفعل ذلك بي حبيبي؟! لما وقد اشتاقتْ إليكَ عيناي؟! ربما انتزعكَ مني الفراق لكنه انتزاع إلى حين، لا يُحيِنِي ولا يُنجِّيني منه سوى انتظاري لك، فأنا دونكَ وحيدةٌ كالموت، متعبةٌ كالأنين، فروحي تحتضر بدونك، ورغم الوجع الضاري إلا أني ها هنا أكتب لك من جديد، أسطر أنينًا من اشتياق، أرسم كلماتٍ من عذاب.

أكتب وأمحو ثم أكتب وأمحو، ثم أكتب وأبكي، أبكي على عشقٍ لكَ سكنني ولم تُقدِرهُ حق قدره، تريد أن ترحل من **قلبي** دون أن أسمع صوت خطواتك، تفارقني مبتعدًا، أهي تضحية بي أم لي؟

مزقتُ عشرات الأوراق، شطبتُ عشرات الكلمات، تتوه مني المفردات وتتبعثر على ساحة دفتري كل معاني الكلمات، أكاد أُجن وأتساءل.. هل أحببتني حقًّا يا زياد؟ هل تمتلكَ الشجاعة لتعترف بحقيقة شعورك نحوي؟

أكثر من عشر سنوات مرت تنفسناها حبًّا وتدثرنا فيها غرامًا، كنتَ نبضة الحب الأولى في قلبي، ابتسامة العشق الأولى على ثغري، ثم رحلتَ دون إرادتي فرحل الفرح عني وأظلمتْ سمائي

فاستجمعتُ شجاعتي وانطلقتُ ألملمني وأُمنِّي نفسي بشروق شمسكَ من جديد فأجدُكَ الآن تودعني ببساطة وتدفعني بهمجية نحو باب الغياب، كيف وقد تركتْ أقدامكَ أثرًا في قلبي وكنتُ أنتظر أن أرتوي منكَ أمنًا واطمئنانًا وعدلًا؟!

أعرفتني منافقة يا زياد أم تراني ساقطة؟

هل أنا تلك الأنثى التي تمنح جسدها كل ليلة بسخاء لزوجها وقلبها مع آخر؟

ألم تخبرني أنك تحترق شوقًا لتلك الليلة التي تتعانق فيها أجسادنا على فراش واحد، تريد أن تضمني إلى صدركَ وتُلهب وجهي بأنفاسكَ، فكيف تريدني أن أكون لغيركَ وكلي معك؟ كيف؟

أقسم لكَ بكل ذرةٍ في كياني أني لن أكون لغيركَ إلى الأبد، فالموت هنا دونكَ أهون عليَّ وأشرف من أن أكون لغيرك، سأظل حيةً صامتةً كتمثالٍ مُعذبٍ هنا في عالمي المعتم دونكَ حتى يجودَ بكَ الزمان عليَّ، فقد طويتُ حبكَ في صدري وسأظل قابضةً عليه ما حييت.

الهالكة دونك

عاليـــا

لم أقرأ رسالتي ولم أراجعها، لم أرغب في أن أُغير فيها حرفًا، فقد كتبتها بإخلاصٍ ولم يكن في وسعي أن أسطُرَ أفضل مما فعلت؛ لأُعلم زياد بنيتي وقراري، رأيتُ مشاعري كالخطيئة، لا يُمكن محو إثمها بعد ارتكابها، كذلك الحب كالرصاصة لا يُمكن استردادها بعد إطلاقها، لذا لم أُبدل حرفًا مما كتبت لا في رسالتي، ولا في روايتي التي تُطالعونها الآن بشغف أو بفتور!

تسعون يومًا قضيتها كالسجينة المختبئة داخل جدران غرفتي، ضاقتْ بي الدنيا فأصبحتْ كصندوقٍ صغيرٍ شديد الظُلمة، وضِعتْ فيه روحي وأُحكم غلقه، سُجِنت فيه أنفاسي، فلا ثمة فرق بين شهيقي وزفيري، فكلاهما صامت للغاية.

أمعنتُ في تذكر كل تفاصيل اللحظات التي جمعتني بزياد عبر سنواتنا معًا، أتحسس أدق التفاصيل، بل أفتش عن التفاصيل المتناهية في الصغر، أردتُ أن أحاصر بها ذاكرتي فلا تفر مني كلمة ولا لفتة ولا نظرة ولا ابتسامة، نسيتُ ما دون ذلك حتى اسمي كدتُ أنساه، لم أحس يومًا ما بألم الخذلان ولا مرارة الفراق كما أحسستُ بهما تلك الفترة.

بَلَتْني حنين بمحاولاتها المستمرة للاستحواذ عليَّ واستردادي من حالة اللاوعي التي حبستُ فيها نفسي بإرادتي، لم

أعرفها ثرثارةً إلى هذا الحد، فشلتْ محاولاتها البائسة بالرغم من ضجيج الموسيقى التي تصدح في غرفتي بضغطة إصبع من حنين، بالرغم من عشرات الحوارات الذكية والغبية التي تنطلق من فمها مباشرةً إلى رأسي لكنها أبدًا لا تنفذ داخله، متقوقعة أنا داخل دهاليزي بالرغم من عشرات المحادثات التي تأتيني من عدنان وزهرة فأكتفي بضغط زر إلغاء المكالمة وحسب، بالرغم من ملاحقة شقيقي علي لي ما أن تطأ قدماه شقتنا، وضجيج الصحون والملاعق والكؤوس الذي يُحدثه في المطبخ كل مساءٍ بعد انتهائه من طهو العشاء بالأصناف التي أفضلها، ولكني بالكاد أكتفي ببضع لقيماتٍ يُقمن صلبي، فقط صوت زياد يرن في أذني مُصاحبًا لصوت الأمواج القادمة من البحر ولا يعلوعليهما صوت، يطفو زياد فوق سطحي بعدما احتل حبه أعماقي.

: ألو عاليا، أفتقدكِ كثيرًا.

: ما بالكَ زياد، صوتكَ على غير العادة حبيبي؟

: ها أناذا وحدي في الغرفة الآن، لقد خرج شريكي فيها إلى المطبخ يُعدُّ طعامه.

: لا تتهرب من الإجابة على سؤالي، أصدقني القول حبيبي، ما بك؟

: لا تخافي، لست مريضًا ولم يمسسني سوء صغيرتي، لكني وجدتُ نفسي في الفراش أصارع الأرق رغم إرهاق اليوم، أغمضتُ عيني لأنام فرأيتُكِ، وحشتيني، أريدكِ هنا الآن معي.

: بسيطة، اغمض عينيكَ جيدًا، ناديني من أعماقك، هل تسمعني؟ ها أنا ذا أمامك.

: بل أنتِ بين أحضاني، ورأسي يتوسد صدركِ و...

: زياد تأدب، أنت سيء وشرير.

: لستُ شريرًا ولا سيئًا، أنا فقط مُنهك وأريد أن أنام بين ذراعيكِ.

حاولتُ أن أغَير مجرى الحديث فقُلت بتحدي:

: أيها الشرير،هل تتذكر متى كان لقاؤنا الأول؟ أتحداكَ لو تذكرت، فالمهندسون لا يتمتعون بتلك الرومانسية.

فأجابني بثقة: في الخامس عشر من فبراير، في دكان جدكِ الطيب، أأخبركِ بماهو أكثر، كنتِ حينها ترتدين بلوزة زرقاء كلون البحر وتنورةً سوداء كلون الليل وتربطين وشاحًا أحمر حول عنقكِ الجميل، كنتِ كأميرةٍ شرقيةٍ ساحرة هاربة من خيام ألف ليلة وليلة، تُظللها غيوم الشتاء الرمادية فتزيدها إجلالًا وبهاءً

obeikan.com

وحُسنًا، عاليا أنتِ النعمة المُقيمة داخل أضلعي فكيف أنسى تفاصيلكِ؟!

يحب زياد التفاصيل ويُتقن الاحتفاظ بها، موهبة لا يتقنها معظم الرجال، لكن حبيبي كان وما زال مُختلفًا، تمس رجولته دائمًا شغاف قلبي.

لَكَم ألوم نفسي في كل مرة أحاول فيها تذكر ما كان يرتديه حبيبي حينها فأفشل، كيف لا أتذكر؟! كيف تغيب عن ذاكرتي تفصيلةٌ تخصه؟! لا أعرف!

تتوالى عليَّ الصباحات كئيبةً، فالأحداث الجارية تحُثُني على التشبث بالتفكير فيما صارت إليه الأمور، تصدمني حقيقة أن ثمة ما هو أكبر من الحدود الجغرافية يفصلني عن زياد، لما لا تضمني وحبيبي حدود واحدة، فنتشاطر الجو ذاته، نذوب بمطره ونلتهب بشمسه؟، تغضبني حقيقة أني حُرمت رؤيته حين أشاء، وكأن فراقه أفجعني، وكأنني ما اعتدتُ غربته سلفًا ولا اكتويتُ بنيرانها أكثر من ثلاث سنوات سابقة.

عانيتُ إحباطًا وانزواءً قاداني إلى يأسٍ سيطرعلى أوتادي، ومرارةٍ أفقدتني رغبتي في الحياة، ما قيمة حياتي كلها إذا لم

يشاركني فيها الرجل الأوحد في قلبي؟ ما قيمة أيامي، حزني، ألمي، عذابي، أو حتى فرحتي؟ ما قيمة انتظاري إن لم يكن زياد مكافأتي؟ ما قيمتي أنا شخصيًّا؟ أنا لا أعرف!

لا أدري إلى متى سأظل عالقةً بين السماء والأرض، كل ما أعِيه جدًّا أنكَ يا زيادي ستظل في قلبي وبين ضلوعي ساكنًا، وأدرك تمامًا أن من حقي الحيلولة دون احتراق شموع عمري هباءً.

لم يكن يهمني أن أنسى، بل كان يهمني أن لا أنسى!

استيقظتُ ذات ليلة وقد خُيل إليَّ أن يدًا تهزني، فتحتُ عيني فلم أجد أحدًا لكن غمرني إحساسٌ عميق بأني أسمع زياد يُحدثني وكأنه هنا، جلستُ في فراشي معتدلةً أبحث عنه في غرفتي فلم أجده، نهضتُ إلى الباب افتحه بهدوء، وقفتُ خلفه أطل برأسي فقط، وعند نافذة المكتبة كان عليّ يقف كعادته بقامته الفارعة، فهمتُ من نظراته الأفلاطونية أنه يتأمل حنين ويغلف قلبه حزن مُهلِك، ربَّتُ على كتفه برفق، وقلت: هل تُحبها إلى هذا الحد المؤلم؟

: إنها تضرب بحبها في أعماقي، ولا يعنيني من الكون سواها.

: لكنها لا تهتم لمشاعرك يا علي، ربما تشعر بكَ لكنها لم تتعب بعد من ماضيها، تتمسك به ولا تفر منه، تجد نفسها هناك، تُعاقبكَ بذنبٍ لم تقترفه يداك يا أخي.

: ربما الآن، لكني أثق بحبي، ستأتيني حنين يومًا طواعية، ستشعر بصدق حبي، سيفتِنها إصراري عليها رغم كل هذا الصد وهذا المنع، ستأتيني يا عاليا، لا أصدق أن تلك الجنية الجميلة ستظل نفسها وحيدةً، سجينةً في قفص الألم وقلبها غارقٌ في ظلام الصدمة، لكن ما أعرفه عن ظهر قلب أنها امرأة سكنتْ تفاصيلها روحي، أحبُّ غضبها قبل هدوءها، زمجرتها حين تدرك فجأةً أنها نسيتْ سيجارتها مشتعلة فاحترقت قبل أن يسري نيكوتينها في خلاياها، مقاطعتها لحديثي حين تستشعر به هيامًا أو عذوبةً مقاطعة شرسة، أعشق إشارتها العدائية الحاسمة التي تُشهرها في وجهي إذا أبديتُ إعجابًا بها أو إطراءً عليها، أتباركُ بخجل يشع من عينيها المُسكرتَين إذا انعطف بنا الحديث نحو الحب فتشتد خصوماتها لي حينها وتكاد تنهرني علنًا، ثم ينتصر فيها طبعها الجميل وأدبها الجم فتنسحب من أمامي لعل إنسحابها يُخرسني، أدركُ أنها لم تتخلص بعد من عذابات الذكرى وويلات الفجعة، ما زالتْ تبتلع علقمًا صبَّه اللعين رامز في جوفها يمنعها تذوق حلاوة الحب، أدركُ كل هذا ويقيني أنها ستستجيب في النهاية وستستنشق جوارحها رحيق حبي، فلما العجلة، سأنتظرها حتى تبرأ تمامًا، سأنتظرها مبتسمًا وذراعاي مفتوحان لها على قدر اتساعهما، فما أحلى انتظارنا للحب ياعاليا! أليس كذلك؟! فالحب

كالحياة ليس سهلًا، ولأننا لا يمكننا أن نتوقف عن الحياة رغم كَدرِها فكيف نستطيع أن نتوقف عن الحب؟! ستشعر بي وستأتيني.

رجلٌ أنتَ يا عليّ، ومن أرجل الرجال الذين رأيتهم وسمعتُ عنهم، فالرجل الحقيقي هو من يمنح كل مشاعره لامرأةٍ يحبها ويؤمن بها.

هالني ما رأيتُ من عشق يملكه عليّ لصديقتي المتمردة حنين، كلماته عن الانتظار المحمود لمن نُحب حتى يتحسسَ و يُدركَ عمق مشاعرنا دفعني إلى أن أسطر ذلك، وأنا المُحطمة، المُهدمة، مُشتتةُ الفكر، فاقدةُ الفرصة، الباكية على قسوة الزمن و رعونته معي فتأتيني كلمات عليٍّ فتُنعش فؤادي.

جلستُ أكتبُ أفكاري وسط ركام التجربة و أمل في التغيير، قاطعني رنين هاتفي الذي أهملتُه فترة، فلا حاجة لي بإجراء مكالمات، لكن إصرار المُتصل هشَّم أفكاري، التقطتُ الهاتف، فإذا بصوت دلال يأتيني: أنا هنا يا عاليا، في قلعة قايتباي، هل يمكنني رؤيتكِ الآن؟

أسرعتُ إلى حيث دلال تسبقني لهفتي لرؤيتها و التمتع بحديثها ذي النبرة القوية، فلعليّ أستمد منها بعض القوة و

obeikan.com

الحرص على مواصلة الحياة، والتمسك بكل فرصة ممكنة للنجاة و للاستمتاع بما هو متاح!

لكني رأيتها رمادًا، أو جمرةً استحالتْ رمادًا تذره الرياح، خبا فيها بريق عينيها وخمدت حرارتها، فقدتْ بعضًا من وزنها عن آخر مرة رأيتها فيها، خذلني مرآها فلم أكن أتوقع أن أراها كما رأيت، قد بدتْ العروق خضراء بارزة في كفيها الناعمتين، كما بدا عليها شيئًا من شرود الذهن، رأيتُ الصمت قد طال بيننا فلم أجد بُدًّا من الحديث؛ لأزيل عنها شرودها لعلي أقف على أسباب اعتلال صحتها واختفاء ضحكتها الرنانة، فقلتُ: افتقدتكِ يا دلال وأوحشتيني، فاجأني حضوركِ للاطمئنان على صحتي، لكنها مفاجأة سارة على كل حال.

: أردتُ لقاءكِ يا عاليا، فلا يكفيني الاطمئنان عليكِ هاتفيًّا، وربما أردتُ أكثر من ذلك، تعرفينني فأنا طماعة.

أدهشتني رنة الحزن الواضحة في صوتها وهي التي لم أرها قط غير مازحة ضاحكة مُسيطرة على مجرى الأمور.

: ما خطبكِ دلال، دومًا كنتِ أنتِ من تشد أزري.

: لا عليكِ صغيرتي، أنا هنا لأني أفتقدكِ وحسب.

: الأمر أكبر من ذلك، ولو كان لي عندكِ خاطر فأصدقيني القول.

: صدقتي يا عاليا، فالأمر مؤلم وأكبر من محاولتي إخفاءه، فلم يعد عزيز رجلًا!

طلتْ من عيني علامة استفهام كبيرة، فتابعتْ دلال حديثها والحسرة تُغلفه قائلةً: لم يعد قادرًا على منحي ما أريد، ولم يعد هناك مبررًا لاستمرار زواجنا، أشفق عليه، نعم، لكن لم يعد لي حاجة بمعاشرة رجل لا يقوى على منحي أنوثتي، لا أنكر أنه يحاول قدر استطاعته، لكن كيف السبيل وهو لم يعد يستطيع لكنه يكابر في تعنت!

أخبرتُه ذات ليلة أن عليه أن يفعل شيئًا، فزيارة طبيب متخصص لن تُكلفه عناءَ أكثر مما يتكلفه حين يذهب لشراء الأفيون مخاطرًا باسمه ووظيفته، فصرخ وبكى ولعن الأرض بأكملها، اشترى الحبة الزرقاء وعرف للحشيش طريقًا وبالأمس عاد لي وفي جيبه تركيبة جديدة من العطار ودهان سحري جديد خصَّه به الرجل، أنفق مبلغًا محترمًا على وجبة وصاية من الجمبري الجامبو وإناث الكابوريا، أقسم أن الأزمة ستنتهي وأننا سننعم بليلة دخلة جديدة، فلم يزده الأمر إلا إخفاقًا وانكماشًا، فجن جنونه، ومزق ملابسي كلها وسبني بأقذر الشتائم، وعندما نهرتُه طالعني بملامح شيطانية، وتطاير الشرر من عينيه، وشد عني

آشلاء الملابس وحين وقعت عينيه على جسدي عاريًا بصق في وجهي ولطمني بعنف فسال الدم من فمي، هرولتُ خارج غرفة النوم فجذبني من شعري وانهال عليَّ ضربًا، أوجعني بلكماته وتوالتْ صفعاته ولم أشعر بنفسي فسقطتُ أرضًا، استيقظت على ألم مبرح يعتري جسدي المغطى بزرقة الكدمات والسجحات، الآن عرفتُ كم عانيتم مع هذا البشع، فلا كلمات يمكنها وصف الألم والمهانة التي تعرضتُ لها بالأمس وأنا التي لم يجرؤ رجل يومًا عليَّ.

هزتْ دلال رأسها اعتراضًا ورفضًا لما نالها من عزيز، وقد لاحتْ لي دموع صغيرة تحرق وجنتيها المتورمتين.

ها هي دلال ترى الوجه القبيح لعزيز الطوبجي، تسقط أمامه فيدهسها بحذائه ويركلها بقدمه، لكن دلال ليست بأمينة، لن تحتمل نيرانه، لن تقبل بها ولن تستسلم لها، لن تختبئ حين يثور، لن تُرضيه حين يغضب، دلال ليست بتلك الحالة من العجز والعطب، ما من ثمة شيء يُجبرها على تحمل انكساره وذبول رجولته وقسوة جبروته.

لن تقبل أن تضيع منها أنوثتها ولا أن يلفظها عزيز بعيدًا عنه وقتما يشاء ويجذبها إليه وقتما يشاء، يركلها حينًا وينام فوقها حينًا!

لن تسمح أن يضيع منها الزمن مثلما ضاعت منها مشاعرها في سنوات مضت، سقطت تلك الستارة التي كانت تفصلها عن عالم عزيز الوقح، لم يعد عزيز رجلًا تُلهيها رجولته عن مساوئ أخرى تعرف محتواها لكنها كانت تقبلها كنوع من التغليف الرديء لواقع أردئ.

احتضنتُ دلال وشعرتُ بقلبها تقرع فيه طبول الحسرة والضعف وقد ضاقتْ بها الحياة، أحُثها على التماسك وابتلاع ما قد كان ومحاولة نسيانه ولتفكر جيدًا وتحسب خطواتها القادمة ثم لتفعل ما تريد، فدلال ليست بحاجة مُلحة إلى عزيز ولا يُرغمها عوز أويُضعِفها عجز لتستمر في مالا تُطيق، ولا ترهبها استكانة ولا يلوي ذراعها أطفال لتجترع حنظل ابن الطوبجي أو تتناول حَسَكَه، لا شيء من ذلك كله، لا شيء يُجبرها على اختصار الوحشة والقهر داخلها، وهي التي تستطيع أن تخطف من الدنيا حظًا أفضل، كوني قوية يا دلال من أجلكِ أنتِ، كوني قوية..

تعجبتُ من نفسي كثيرًا، فكيف تجرؤ أن تقول لأحدهم كُن قوي وأنت تتهاوى من فرط وهَنِك، تقول له لا تيأس وجذور الحياة ضاربة في أعماق قلبك..

أخذ مزاج السماء يتبدل وبدا لي كل ما حولي بائسًا، سيطرتْ عليَّ رغبة مُلحة في سماع صوت زياد وكسر جمود الموقف بيننا، فربما لان قلبه ورقَّ إذا اختصرتُ أنا المسافة بيننا وحطمتُ حاجز الانتظار، فصمته لا يعني أبدًا نسيانه لي ولا يعني أيضًا رغبته الجامحة في النسيان، أعرفه جيدًا وأحفظه عن ظهر قلب، يكون الصمت رفيقه حين يُصدم، حين يتألم، ومهما زاد صمته سأبقى أنا الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أُخرجه عن صمته، أن أهُز كيانه، أن أُرافقه في رحلته، أن أخترق معه وبه حاجز الصمت!

قررتُ أن أرسلُ له بعض من أوراقي التي سطرتُ عليها ألمنا ومُعاناتنا، "أعِدُكِ سنبقى معًا إلى الأبد " قالها زياد وهو ممسكًا بيُمناي على كورنيش النيل، سأسأله لما قالها إذ لم يكن مُتيقنًا من قدرته على تحقيقها؟.

هاتفتُ محامي زياد وطلبتُ منه مساعدتي في توصيل أوراقي إليه في محبسه والتأكد من ذلك بنفسه، كان الرجل ودودًا ومتعاونًا إلى حد بعيد، راق لي هدوءه وأسلوبه البشوش وسكن قلقي حين وعدني بأنه سيتولى شخصيًا هذا الأمر وسيُحققه لي كما أُريد.

هاتفتُ خالتي صفاء كعادتي أولًا لإعتذر لها عن انقطاع اتصالاتي بها في الثلاث شهور السابقة، وثانيًا للاطمئنان على

أحوالها وللإستفسار عن زياد وصحته وأخباره، فإذا كان مُتحاشيًا لي، مُنصرفًا عن عالمي، فلا يُمكنه أن يفعل المثل مع والدته وينقطع عنها هي الأخرى.

وأدهشتني رنة الحزن التي تمكنتْ من صوت خالتي وهي التي كانت كلماتها تقطر صبرًا ورجاءً لا ينقطع، جاءني أنينها مكتومًا وكأن مُهاتفتي نكأت جرحًا، فأجزمتُ أن في الأمر سر وخُيِّل إليَّ أن مكروهًا قد أصاب حبيبي في محبسه، اعتذرتُ عن إتمام المكالمة وارتديتُ ملابسي مُسرعة إلى خالتي صفاء حيث تكون.

أصرتْ حنين على مُرافقتي إلى المنصورة، إصرارها كان أقوى من مقاومتي، بالطبع لا أكره مرافقتها لي، لكني وبكل تأكيد أكره سخريتها من الحب ونبرتها المُتحفزة ضده ونظرياتها المُعادية له، فقد باتتْ حنين لا تفتأ تكرر: أُحبكِ يا عاليا وأقدر مشاعركِ لكني تأكدتُ بالتجربة والبرهان أن الحب كحبات الندى تبدأ مُتماسكة مُتداخلة مُتحدة ثم لا تلبث أن تفترق، فلِمَا نُرهق قلوبنا ونُدمي مشاعرنا ونحرق أغصاننا من البداية إذا كنا مُفارقين في النهاية؟ صدقيني صديقتي لا فرق بين وعود المحبين ووعود رجال البرلمان، كلها هباءً منثورًا، كلها تذهب أدراج الرياح!.

obeikan.com

استقبلتنا خالتي صفاء باكية حزينة لا تتوقف دموع حزنها التي تجري على خديها حتى كادتْ تحفر فيهما خندقًا، فقد توفى أخاها الحاج عيسى في حادث مشئوم منذ أسبوعين، فحين رأتْ جثته محمولة على أعناق شباب القرية فقدتْ وعيها وهاجمتها جلطة كادت تُسارع بها للحاق بأخيها، تلجمتْ الكلمات وانحسرتْ عن فاهي وخشيتُ أن أُجيبها بكلمات تُزيدها لوعة فالتزمتُ الصمت وتركتها تُفضفض لعل حديثها يُريحها أو يمنحها بعض السكينة فجاءتْ كلماتها متحشرجة وقالت: خرج عيسى من البيت فرِحًا بعد أن هاتفته سوسن ابنته وأخبرته أنها ستأتي لزيارتنا هُنا وستقضي معنا شهرًا كاملًا بمجرد انتهاء أطفالها من امتحانات نهاية العام، كان سروره عظيمًا، فلم يرها منذ سنتين تقريبًا، شغلتها الدنيا عن زيارة أبيها ومنعه المرض والشيخوخة عن زيارتها: " ستأتي سوسن هذه المرة يا صفاء، أقسمتْ أنها ستأتي ولن يكون الأمر مجرد كلمات جميلة تخدعني بها، قلبي يُصدِقها أختاه".

تابعتْ خالتي كلماتها تقول: خرج عيسى متوجهًا إلى المسجد، كانت صلاة الجمعة هناك أشد ما يحرص عليه رغم أوجاع الشيخوخة والآلام المُبرحة للخشونة التي تسكن ركبتيه،

تأخر عن العودة على غير عادته، لكني لم أستطع الخروج للسؤال عنه، طمأنتُ نفسي أنه لابد جالسًا إلى إمام المسجد هناك، وللاسف قُبيل صلاة العصر حملوا إليَّ جثته بعد أن دهمتْهُ سيارة أتت مُسرعة وهو يحاول إنقاذ طفلة تعبر الطريق، نجح عيسى في إنقاذها لكنه لم يُنقذ نفسه، أصبحتُ وكأن الظلمات تحيط بي من كل جانب، فقدتُ شقيقي وغدوتُ وحيدة في دار خلت عليَّ من ساكنيها، لا ونيس لي فيها ولا جليس، تحاملتُ على نفسي وصممتُ ألا أُخبر زياد حين يُحادثني لكني فشلتُ في تحقيق ما أردت، انهارتْ قوتي وابتلعتُ شجاعتي وأخبرته بما كان بمجرد سماعي صوته، آه يا ولدي، كنتُ حمقاء حين أضفتُ إلى حِملكَ حِملًا آخر وألقيتُ حطبًا جديدًا إلى نار قلقكَ لتشتد وتستعر وهي التي لم تخفُت أبدًا.

كلمات معدودة ألقتها علينا خالتي صفاء ثم انتحتْ جانبًا وجلستْ صامتة تحملق في صورة زياد التي تُزين الطاولة الجانبية الصغيرة في غرفة نومها، ترقد الصورة بجوار علب الأدوية، فهي الأهم والأولى من بينهم جميعًا على كثرة عددهم، فابنها الغالي وثمرة عمرها هو دواءها وفي قربه نعيمها.

ثلاث ليالٍ قضيتها أنا وحنين في دار الحاج عيسى، لم أستطع

أن أبرح الدار دون معرفة كيف ستتدبر خالتي صفاء حالها، هل ستمكث في دار أخيها عيسى أم لا؟ ماذا ستفعل اذ أقبلتْ عليها ابنتيه أو إحداهما يُطالبنها بالرحيل منه؟ هل ستعود إلى القاهرة خالية الوفاض؟ كانت كل فكرة تخطر لي وكل تصرف يصدر عني يدور حول قرار واحد اقتنعتُ به تمامًا ولا أرى غيره بديلًا، تحاملتُ على قلق سيطر على تفكيري لخوف مُسبق من رفض خالتي لاقتراحي، وصمَّمتُ أن أكون شجاعةً بل ومثابرة، شعرتُ بقوة خفية تشد أزري، غمرني إحساس إن زياد قطعًا سيوافقني على قراري وسيسعد به، سيُعينني عليه بحبه وستؤنس رفقتي وحشة أمه.

ضمتني خالتي إليها برفق وحنان حين أخبرتُها بالأمر، اعتذرتْ وأقسمتْ أنها تستطيع أن تتولى أمر شيخوختها وسترافق وحدتها وتتعود عليها، ستستأنس بذكرياتها وستواصل مشوار صبرها، لا تريد السيدة العزيزة النفس أن تكون حِملًا ينقض ظهري، إلا أنها أمام إصراري الذي اختلط برجاء لا يعرف اليأس وافقتْ، سألتُها راجية أن نتذرع بالصبر معًا حتى يمل الصبر منا، جاءتني كلماتها مُتلحفةً بصبر جميل يُرطِبه يقين لا أعلم مصدره حين قالت: عاليا، أرجو ألَّا تجزعي من أجلي، فأنا راضيةٌ وأرى أن الله يُعلمنا في البلايا أن اللجوء يكون إليه وحده، يكفينا ويغنينا ونحن دونه فقراء.

كنتُ أبصر في عينيها أملًا، شعاع يقين، فصمَّمتُ ألا أجعله يخبو، بل تعهدته بالعناية والرعاية، استعنتُ بحنين وقدرتها الهائلة على الإلحاح لتعاونني في إقناع السيدة الكريمة في الانضمام إلينا في الأسكندرية، لم أبخل عليها بكل مايُغذي اقتناعها بحاجتي إليها وحاجتها إليَّ، فلما لا نستعين بصحبتنا على فراق مؤسف لحبيبنا زياد ولوعة متزايدة إليه، فإذا كانت الدنيا قد رشقتنا برُمح الفراق فلنستعِن بلقائنا وبقائنا معًا على ألمه اللعين، حتى يأمر الله بلقاءٍ جميل نتمتع فيه بعَذب أحلامنا ذات يوم قريب كان أو بعيد.

: خالتي، إن حاجتي إليكِ أكثر من حاجتكِ إليّ، أحتاج يقينكِ بعودة الغائب، أحتاج صلابتكِ وقوة صبركِ على مبتلانا العظيم، فكوني معي، أعينيني أرجوكِ.

: لستُ أصبر بُنيتي إلا ليقيني بأن الله يرى وسيُحدث بعد ذلك أمرًا، وإنه ليسعدني يا عاليا أن أكون معكِ، أتكأ عليكِ حين نلتقي زيادًا، وكيف لا وأنتِ قطعة منه يا غاليتي.

" غاليتي".... كلمة يُخصني بها حبيبي ولا تفارق لسانه حين يتحدث إليَّ، أذكُر جيدًا ذاك اليوم، إنه منقوش في مُخيلتي كأنه بالأمس فقط، وهل لي أن أنسى ذلك الدفء الذي أحسستُ به في صدره؟

هل أستطيع أن أنسى أنفاسه التي كانت تُلهب وجهي؟ وصوته الذي يهمس في أذني: كم أنتِ جميلة، وكم أحبكِ غاليتي كم أكره أن أتركك هنا وحيدة مع عزيز الطوبجي.. كم أرغب لو احتويتكِ في قفصي الصدري وأغلقه دونكِ، أؤمِنكِ من كل خوف وأريحكِ من كل عناء؟

متورط أنـــــا بكِ يا عاليا..فما حيلتي سواكِ؟!!

(فكيف لي بعد كل هذا الحب أن أنســـــاه، وهل ينسى المرء نفسه؟).

في حياتي كلها لم أكن أحس بلهفةٍ إلى شيء قدر لهفتي لسماع ما يهمس به زياد في أذني، حديثه المتصل عن بيتنا، أطفالنا، أحلامنا، سنظل معًا حتى آخر العمر، كنت أرى هذا كله في عينيه، أُصدقه وأؤمن به كثيرًا، يكفيني جدًّا أن أكون مُخلصةً له، له وحده..

حين عاد زياد في إجازته الأولى بعد فراق دام عامين لم أستطع أن أغالب دموعي المنهمرة من عينيَّ حين قابلته، قذفتُ بنفسي في صدره فاحتواني بين ذراعيه بعد طول غيبة، مضى من الوقت ما مضى آنذاك دون أن ينبس أحدُنا ببنت شفة، افترشنا أرض حديقتنا المُفضلة وظللتنا سماء يونيو الدافئة وقد وضعتُ رأسي فوق صدره وأحسستُ بأصابعه الحنونة تتخلل شعري بهدوء، وأخيرًا سمعته يهمس: كنتِ ولا زلتِ وستظلين دومًا

سيدة قلبي، ابتسامتكِ تُضيء نجوم سمائي، يربُطني بك ميثاق عشقٍ غليظ، أموت دونه، فأنتِ غاليتي أول كل شيء، أول حب، أول نبضة قلب، أول نظرة عين، أول همسة شوق، وأول رجفة لقاء.. أحبكِ فوق الحب حبًا..

(الآن أكتبها أنا لك يا زياد، يا حب العمر، غيابك وإن كان قسريًّا إلا أنه لم يأخذ مني أي ذكرى لنا معًا، قلبي ينتظرك، لتُطل عليه من جديد كشعاع شمس نهار العيد، أعشقُ يديكَ الممتلئة بحنان الأرض حين تبث الدفء بين أناملي الصغيرة، حين كنت تُخبرني أن طريق سعادتنا طويل مهما كانت الحياة قصيرة، ما زلتُ أذكر كلماتكَ وأحفظها عن ظهر قلب، وها أنا ذا أُخبرك وأخبر العالم أجمع أني سأنتظركَ عشر سنوات غير آسفة على أيامي فيها، بل بوسعي أن أنتظركَ فوق الدهر دهورًا وفوق العمر أعمارًا، فلا قيمة لعُمرٍ يُحسب علينا دون أن نتذوق حلاوة أيامه، فالبعض يموت بلا موت، والبعض يحيا بلا حياة، سأنتظركَ مُرحبةً بالانتظار، فغياب جسدكَ عن جسدي فانٍ، أما غياب حبك عن قلبي فيفتح للموت أبوابًا تقتلني دون قتلٍ وتصهرني دون شفقة، فستظلُ أنتَ زيادي كما أنت اليوم وغدًا وبعد عشرين عام وسأظل أنا غاليتُكَ اليوم و غدًا و في حياتنا الأخرى)..

خطت خالتي صفاء بيتنا في الأسكندرية مُستندةً على ذراعي، أحمل عنها حقيبتها الصغيرة التي حشرتُ بها ملابسها الشتوية الثقيلة مع تلك الصيفية الخفيفة، لتفرُغ بذلك كل خانة الملابس في بيت شقيقها الحاج عيسى رحمه الله، كما اتصلتُ بابنته سوسن التي حضرت لتودع عمتها واستلمتْ منها نسخة مفتاح شقة أبيها الحاج، لم تتمسك سوسن ولو ظاهريًّا ببقاء عمتها صفاء في الدار، بل شعرتْ بسعادة تسكنها وفضحتها عيناها حين عرفتْ برحيل عمتها إلى الأسكندرية، حتى أن ترحيبها برحيل عمتها معي عجَّل من الأمر وتغيرتْ معه نية خالتي صفاء وتبدلتْ قرارًا حاسمًا و وافقتْ على صحبتي أنا وحنين، استطعتُ أن ألتقط فتات حديث دار بين سوسن وشقيقتها الأخرى المقيمة في بنها؛ إذ سمعتها تقول

: لا أجد مُبررًا لبقاء عمتكِ هنا فقد رحل عنا وعنها مَن كان يربطنا بها، ولا يهمني أن أعرف إلى أين ستذهب،ولا مدى صلتها بالمدعوة عاليا التي جاءت مع صديقتها الثرية لتصطحبها، يبدو الأمرغريبًا بعض الشيء لكن على كل حال فإنه لا يعنينا يا أختي، المهم أن نُخلي الدار من عمتكِ حتى يُمكننا عرضه للبيع.

مع تلك الكلمات لم أستطع الانتظار حتى الصباح، أقنعتُ خالتي صفاء بضرورة العودة إلى الأسكندرية حالًا فشقيقي عليّ

مريض ولا يُمكنني تركه وحيدًا، وحين انطلقنا بسيارة حنين في طريق عودتنا كان الليل مُنعش والفجر قد بدأ يتسلل إلى حافة الأفق، غمرتني رغبةٌ طفوليةٌ في الاختباء في حضن خالتي صفاء، أردتُ أن أسبح في فضاء حنانها، أغمضتُ عينيَّ فغبتُ عن الدنيا وغشيني النوم، نمتُ هناك بعمقٍ لم أعرفه منذ أشهر، كأنني وضعتُ رأسي على قارةٍ من الحب والحنان، شعرتُ بانتمائي المطلق لهذا الموضع وهذا المكان، فهُنا أيضًا كان حبيبي زياد يضع رأسه وينام..

ابتسم عليّ وهو ينحني ليحمل عني حقيبة خالتي صفاء، رحب بها أشد ترحيب، لكزته حنين في كتفه مُداعبة:

: لِمَا لا تحمل عني حقيبتي أنا أيضًا، ألم أوحشك؟

أجابها بصوت هادئ وعيناه تلمع ببريق شوق:

: بالطبع وحشتيني، لكني أعشق أشياءً كثيرةً إلى جانبكِ، أُلهي بها نفسي عنكِ، أعشق عملي وكتبي وموسيقاي و.....

قاطعته حنين بنبرةٍ غاضبةٍ نوعًا:

: أرفضُ أن تمتلكني وأرفضُ أن تعشقني، واهمٌ أنت يا علي لا محالة.

ثم انسحبتْ من بيتنا مُعتذرةً لخالتي صفاء، تنسحب حنين دومًا إذا تعالى الضجيج داخلها، تخشى أن تضعف فينتابها حب أو يحتلها عشق ولا تستطيع مقاومته، يرتسم الخوف حينها على وجهها النحيف فتبدو كتمثالًا منحوتًا في صخرة طهَّرتها رياح الألم العاصفة، وغسلتها حتى جذورها المُمتدة في عروق الأرض، تختفي حينها نبرة المرح من صوتها وتختلف أبجديتها وترتدي قناعًا خشبيًّا من الجمود والصرامة، ثم تنقض على مشاعر عليٍّ لتلتهمها وتُدمرها مُتسببةً في ألمٍ عظيم يغمره وقد يدمر طاقته وقدرته على الحب، لكنه عاشق صبابة، ذائب في حبها، صابرٌ حتى النخاع.

هكذا كان أمر حنين وعليّ، أراقبهما في صمت بصدق وحياد، كانت حنين كأرض شرسة، جذورها تزداد إمعانًا في التسلل إلى باطن قلب عليّ، عبر عنادٍ وقسوةٍ وفتورٍ وجفافٍ تعامله به إذا آنستْ جذوة حب له تشتعل داخلها، كوَّنتْ حول نفسها شرنقةً من العلاقات البهية المرحة البهيجة المليئة بالمودة، لكن كل تلك العلاقات علاقات الكترونية واهية على شبكة التواصل الاجتماعي وعبر التطبيقات المختلفة (الفيس بوك والإنستجرام)، أعرف حنين جيدًا، أؤمن أنها تُحب عليّ في قرارة

نفسها لكن صار حبها شرسًا وعنيفًا ككفاحها لإثبات أحقيتها في العيش كما تريد، تقاوم حبه بضراوةٍ تنطق شراسة، أما هو فقد اجتاحه حبها كزلزال في أرض صخرية صلبة.

ترى حنين أن الحب يُعمي العقل ويلغيه ويحرق القلب ويكويه، وقد صار عقلها مُبرمج على أن يمارس كيانه، وأضحى قلبها متجمد النبضات، يُطلقها دون أن يستشعرها، تخاف أن ينفجر بركان الذاكرة بما يقتلها، ولم يعد بوسعها الهرب ثانيةً، فتُطلق نحو عليٍّ صرخات الاحتجاج والتمرد الشرسة.

ربما تحب عليًّا لكنها ستتخلى عنه إن فطنتْ ذلك وأيقنته، لقد باتتْ ترى الحب لعنةً تدمر الحرية والكيان والهوية، وتسلب المرأة أبجديتها وارادتها، وتُشعرها بالذل والمهانة، كانت حنين مثل سجين مُصرٍّعلى فك قيوده والتمتع بحرية صنعها بذاته.

أوحشني صديقي العاشق عم ربيع جدًّا وشعرتُ بخجلٍ كبيرٍ كوني لم أزره منذ فترة، لم نعتد غيابنا عن بعضنا البعض، فقد تعودتُ رؤيته بانتظام، كان الوقت ربيعًا كعم ربيع، واكتستْ الطبيعة أبهى حُللها، رأيتُه يقف في عزةٍ وشموخٍ بين أزهاره ونباتاته يُداعبها كعادته، احتضنني الرجل وقبَّل جبيني ثم جلسنا في ركنةٍ بهيةٍ يحيطها زهر البرتقال فيحمل إلينا النسيم عبيره، فيملأ

obeikan.com

عم ربيع رئتيه منه في شهيقٍ طويل كأنما يَعِب منه عبًّا ثم التفتَ إليَّ قائلًا:

: هل من جديدٍ صغيرتي؟

: لم أغِب سوى ثلاث ليالٍ يا عجوز، فما عسى تلك الليال أن تفعل بي؟

: ربما ليلة واحدة تفعل بالمرء ما لا يفعله مئاتٌ غيرها، ولا أظنكِ ستقضين حياتك هكذا، مجرد ظلٍّ يعيش على هامش الحياة في انتظار الفرج، أعلم أن حب زياد يتأجج في صدركِ لكنني أعتقد أن مثل هذا الحب يعاونك على أن تكون لك حياة تعيشنها وعالم تصنعيه لذاتكِ، لقد أحبكِ الرجل دائمًا وأحب طموحك، فما عساكِ فعلت لهذا الطموح؟ لا أرى عاليا التي رسمتْ أحلامًا لمستقبلها على غير إرادة أبيها وحققتْ بعض خطواتها حين استكملتْ دراستها الجامعية، لا أرى سوى امرأةً عاشقةً تقطر حزنًا واستسلامًا، وتحرق ربيع أيامها دون أن تحرز هدفًا أو تحقق غاية، أحترم عواطفكِ وأفهم نشوة الحب التي تحسينها نحو زياد وتملك عليكِ نفسك، لكن ما جدوى الحب إذا منعنا أن نحرز أهدافًا، فمباراتنا مع الحياة تبدو رتيبةً ومُربكةً إذا لم نُحدد لها مسارًا ونسير نحوه عدوًا أو مشيًا أو زحفًا، ففي الحركة

بركة كما يقولون، فالمسافة لا يمكن أن نقطعها إذا ما تسمرنا في أماكننا صامتين، أرجو أن تنتزعي نفسك من خيبات تُرهقك وتسجن عليكِ روحك، إنما جُعل الحب ليُحركنا، ليدفعنا، ليُحمسنا، ليوقد بداخلنا شعلاتٍ لا تنتهي من الأمل والرجاء، شعلات تستمد ضياءها من كيانٍ يؤمن بماهيته، وإني لأرجو أن تتجاهلي كل خيبة تشعرينها وكل استسلام تعيشينه، فالحب الحقيقي يبني ولا يهدم، فلتفتحي عينيكِ على نوافذ الأمل ولتطأ قدميكِ دنيا تحقيق الذات، فأنتِ جديرةٌ جدًّا أن تكوني ذاتك.

(لا عتاب ولا حساب، فأنا لا أرى في ذلك نفعًا بعد أن أرسلت لكَ رسالتي الأخيرة ولم ترد، أحاول دومًا أن ألتمس لك الاعذار؛ لأني أحبك ولا أستطيع الكف عن حبك، سأنتظرك ولا تقل ماذا تنتظري؟ تراني حمقاء تنتظر بلا أمل، هوجاء تنتظر بلا غاية! لا يهم، إني منتظرة، ومن يدري فلعل الله يُغير من أجلنا كل شيء؛ ليُرضينا ويُرضي قلبينا)......

غاليتُكَ عاليـــا

كانت تلك رسالةً نصيةً أرسلتُها على رقم دولي خصتني به خالتي صفاء، لقد هاتفها زياد عن طريق محاميه حين علم بوفاة

خاله، أراد أن يُعزيها وليقف على ما تنتويه بعد أن خلت عليها دار الحاج عيسى، أخبرها أن هذا الرقم الدولي خاص بـ " معتصم العزوزي " صديقه المغربي المحتجز معه في نفس الزنزانة،و أن لمعتصم طُرقه وأدواته التي يضمن بها بقاء جواله معه، وربما استطاع زياد الحصول على رقم دولي وجوال يُمرره له أحد معارف معتصم في الزيارة القادمة، أقسم لها على الاتصال بها فور حصوله على تلك الغنيمة.

مرَّ شهران على استقرار خالتي صفاء في دارنا، شعرتُ أني أقضي أسعد أوقاتي معها، فقد بات البيت أكثر دفء وبركة، وصار حضنها واحة الأنس الخاصة بي، أصبحتُ أنام حين أضع رأسي المشوش بالتفكير في حِجرها، تملأ الدار بدعواتها الصباحية المُبهجة وتنشر في البيت عبير ابتساماتها، تغمرني بالقبلات صباح مساء، أجد فيها ريح أمي ولمستها ودعوتها وأصالة روحها ونقاء سريرتها، تمس كلماتها شغاف قلبي، لقد منحتني سعادةً خالصةً رغم حزنٍ دفين يسكن خلاياها، حزن أُم على شباب وحيدها ولوعة حرمانها منه، لا أظن أن امرءً استطاع أن يتمتع بهذا القدر من الصبر والرضا بقضاء الله كذلك القَدْر الذي تتمتع به خالتي

obeikan.com

صفاء، كثيرًا ما أصبحنا نجتمع عند النافذة، أنا وهي وحنين وأحيانًا يشاركنا عليٌّ التَحلُق حولها؛ حيث نجلس لنثرثرَ لساعاتٍ طويلة، ولتقصَّ علينا أقصوصاتها مستمتعين بمشروب النعناع الممزوج بالشاي الأخضر وشرائح الليمون الذي تُعده لنا خالتي في براد ألمونيوم أحضرتْه خصيصًا لهذا الغرض، فخالتي الجميلة لا تعترف أبدًا بالبراد الكهربائي (البويلر)، حتى فناجين قهوة حنين قد تقلص عددها بشكل ملحوظ وهذا في حد ذاته من أعظم إنجازات خالتي صفاء..

أحسسنا جميعًا بشيء من الهدوء والسكينة المُختلط بالبهجة والرضا منذ أضاءتْ خالتي صفاء ليالينا الباهتة، أخذ الضيق والتبرم والشعور بالملل والرتابة ينقشع، وازدادتْ فترات اجتماعنا حولها كلما مرت الأيام نتسامر و نتشاور في أمورنا الحياتية.

وذات مساء وفي سكون الليل البهيم، كانت حنين قد انصرفتْ إلى شقتها وعليٌّ لم يأتِ بعد، جعلتُ أختلس النظر إلى خالتي فبدا لي وجهها أشد سحرًا وفتنةً عن ذي قبل، وتمنيتُ لو قصَّتْ لي حكايتها وما كان من أمرها مع والد زياد، فهذا الأمر تحديدًا لم أكن أملك القدرة والجرأة المطلوبة لأتقصاه منه، لأنني كلما كنتُ أقترب من تلك المنطقة كنتُ أرى سُحب الضيق

والضجر تنتشر على وجه حبيبي، ففهمت أنه غير راغب في جعله موضعًا للحديث فاكتفيتُ بما أخبرني به سالفًا عن والده، لكن خالتي صفاء ولدهشتي الشديدة بدأتْ هي بالحديث عن ما قصدتُ وكأنها قرأتْ أفكاري بوضوح، بل أن طريقتها في الحديث أنبأتْ عن لهفتها هي ورغبتها في التحدث دون سؤال مني أو إشارة للأمر من قريب أو بعيد، فقد قالت: الجو جميل الليلة، ولهذا أرى أنني في مزاج جيد لأخبركِ بأمرٍ هام أردتُ أن أخص به غاليتي دون غيرك.

لم أستطع أن أمنع هزةً اعترتني ونشوةً سرت فيَّ عندما نادتني بهذا الاسم، واحتضنتها فهي ولا أحد غيرها يقاسمني مرَّ الشقاء، ابتسمتْ وأردفتْ تقول:

: ألا تريدين أن تعرفي كيف تزوجتُ من والد زياد؟ ولما تركتُه؟

: إن كنتِ خالتي تودين إخباري فلتفعلي أرجوكِ، فكُلي لهفة لمعرفة تفاصيل الأمر منكِ.

: ها أنا أفتح لكِ صدري المغلق دون تردد ولا خوف من العاقبة، لم يكن زكي العلايلي الرجل الأول في حياتي، لم يكن سوى زوج ارتضيتُه عن قناعةٍ، فقد اختارته لي ظروفي حينها،

وقادته إليَّ الأقدار بسلاسة،ولم أستطع آنذاك الرفض أو التملص من الزيجة كما أني لم أُجبر عليها أيضًا.

ترددتُ برهة ثم عقبتُ: ومَن عساه كان رجلكِ الأول؟ وهل تزوجتيه قبل والد زياد أم حالتْ دونكما الأقدار؟

تابعتْ خالتي صفاء حديثها وقد شرد بصرها إلى الأفق البعيد وعانقتْ عيناها الرماديتان قمرًا ساطعًا بهيًا في كبد السماء وقالت: كان ذلك منذ أربعين عامًا حين تعرفتُ إلى "محمود سلَّام" جاري في شارع كوبانية المياه في روض الفرج، طالب الفرقة الثالثة في كلية الهندسة جامعة عين شمس، لم يكن حينها أكثر من ممثل هاوٍ على مسرح الجامعة، يتردد اسمه على ألسنة الطلبة مصحوبًا بالثناء والإشادة، حديثه مُضحك للغاية، يسير مُبتهجًا بين العامة كمُهرج لا تفارق الابتسامة وجهه، يُداعب هذا ويُمازح ذاك ويندر أن تراه مُشتركًا أو مُتفاعلًا في أمر جاد، تستهويه وبشدة العروض التمثيلية إلى أبعد حد فتلتهم كل وقته، يتكسَّب رزقه من ضحكات يستدرها من المُتفرجين على عروض فرقة مسرحية صغيرة كوَّنها مع مَن هُم على مِثل شاكلته من مهاويس الفن، حضرتُ له أكثر من مسرحية كوميدية حيث تصل الفكاهة إلى عنان السماء دون ابتذال، فأسعار تذاكرهم رمزية جدًا، عشرة

جنيهـات فقـط لا غيـر مـع تقـديم خـصم خـاص للطلبـة والمجموعات، لم أعرف ما الذي دفعني للتردي في حبه إلى حد الهوس!! أخبرني ذات مرة "أن الحب جنون وأن العاشق المُحب لا سلطان له على نفسه، فلا حرج على الأعمى والمريض ولا حرج على العاشق أيضًا، فلقد ولدنا لنُحب، عشنا لنُحب، ونموت أحيانًا لأننا نُحب" فلا يُمكن لفتاة مثلي أكملتْ آنذاك للتو عامها التاسع عشر أن تتغافل عن مشاعر قوية نابضة تعصف بأركان قلبها ويتشقق معها جلباب مناعتها فتتساقط خيوط مقاومتها خيطًا خيطًا، لا يمكن لفتاة ترى الحب لأول مرة وتختبر جماله واندفاعه أن تضرب بحبها عرض الحائط وتنتظر لتتزوج رجلًا مُحترمًا ذو هيبة وجاه أو آخر ذو مال وثراء، لم يتوانى محمود عن التقدم رسميًا لعائلتي التي لم ترى فيه أكثر من ممثل هزلي مغمور يتسكع على خشبة المسرح ذهابًا وإيابًا مُرتديًا ربما ملابس لمرأة حامل أو أخرى عانس أو يترنح كرجل سكير عربيد أو يبدو تافهًا ذي حديث لزج أو يبدو كالأبله الذي تتساقط النكات فوق رأسه فلا يملك منها فرارًا، كل شيء مُمكن ومُباح فالأمر لا يمس شخصه ولا يُمثل ذاته ولا يرى أبدًا إهانة فيه، إنه الدور وملامح الشخصية التي يُقدمها ولا غضاضة في ذلك، بيد أن والدي رآه شابًا تافهًا يتفاخر بكونه مشخصاتي رخيص يجني

رزقه من التواثب والقفز على خشبة المسرح هنا وهناك كل ليلة وكأنه فُرقع لوز!

وتحت ضغطي وإلحاحي المُستمر وابتزازي لعواطف والدايَّ رحمهما الله وبعد تدخل مباشر من شقيقي عيسى الذي طمئن والدي حين أخبره بمُقابلة تمت بينه وبين محمود وقف خلالها شقيقي على مدى حب محمود لي ونيته الطيبة نحوى وحرصه الشديد على الزواج بي مع تعهده بتهيئة كافة الأسباب لضمان سعادتي، فمحمود وحيد والديه وسيبيع فور موافقة أبي على زواجنا قطعة الأرض التي يملكها في الفيوم ويشتري شقة مناسبة في مدينة نصر التي كانت حينها منطقة حديثة تُحيطها الزراعات، يتجه إليها من يريد الحصول ببساطة على شقة سكنية فخمة ومُريحة وسيسجل محمود الشقة باسمي واسمه مناصفة ليُقدم لي ما يراه أبي ضمانًا وسندًا، وبعد حديث ومناقشات عائلية طويلة دافع خلالها عيسى عن حقي المشروع في الارتباط بمن أريد وأنني وحدي من سيتحمل مسئولية قراراتي واختياراتي فلم أعد صغيرة، ها أنا ذا على أعتاب العشرين.

وافق أبي على طلب محمود شريطة أن يتم عقد القران خلال أسبوعين حتى يُضفي صبغة شرعية على لقاءاتنا في الجامعة

أو خارجها، ويُتيح لمحمود القدوم لزيارتنا المنزلية بحرية ويمنحنا الإطار الاجتماعي المُناسب فنستطيع الظهور معًا أمام الجيران والزملاء على أن يتم الزفاف بعد عام واحد وتحديدًا خلال إجازة الصيف وفور انتهائنا من عامنا الدراسي القادم، حينها يكون محمود قد أتمَّ تجهيز شقة الزوجية وبمجرد انتهائنا نحن الاثنين من امتحانات نهاية العام، بعدها سأكون طالبة في الصف الثالث الجامعي وأستطيع استكمال دراستي الجامعية وأنا في بيتي، و يستكمل محمود دراسة الهندسة في عامه الأخير ويتفرغ لها تمامًا ويترك مهنة التهريج والتمثيل وقلة القيمة ويُقسم على ذلك بأغلظ الأيمان، فلا يُمكن لأبي أبدًا القبول به على هذا الحال زوجًا لابنته الوحيدة.

أطرقتْ خالتي صفاء رأسها ثم تابعتْ في شرود: جلس محمود قُبالتي في كواليس المسرح، أمسك بيدي وأخذ يُبسِّط الأمر لي، أرادني أن أرى الدنيا من منظاره وبعينيه، فلكل إنسان حلمه الذي يرغبه ويسعى إلى تحقيقه، ومحمود مؤمن حقًا بموهبته الكوميدية بل أنه أسعد الناس بها لأن الله تعالى رزقه مع الموهبة الإصرار والعزم اللازمين لتحقيق أحلامه التي لا حد لها، يرى نفسه مُمثلًا مشهورًا، نجمًا لامعًا، تُكتب حروف اسمه بالنيون على أفيشات المسرح كعادل إمام أو سمير غانم، أقسم لي

وحروفه تفوح ثقةً أنه صاروخ الكوميديا القادم، ولابد أن يكون..

أجبته حينها بشيء من الغضب: لا يستطيع أحد على وجه الأرض ولا حتى عيسى الذي يعشق أبي تراب قدميه أن يُقنع والدي الموظف الحكومي المحترم في هيئة البريد أن يزوجني لرجل يراه في ميزانه أراجوز حتى وإن كان أراجوز السيرك القومي.

أجابني بجدية وثبات: اسمعيني جيدًا يا صفاء، لستُ مُهرجًا ولا أراجوزًا، لا تقولي ذلك أرجوكِ، فإنه يشُق عليَّ أن أراكِ غير مُتفهمة لمقصدي، غير مُقدرة لشعوري، أنا فيلسوف فنان، انظري حولكِ، فالدنيا ملأى بالحزن وما أكثر الحزانى، فهل هناك أقوى من رجل يستطيع أن يهب الناس سعادة يغتسلون بها من نفوسهم الحزينة القلقة وقلوبهم الواجفة وعقولهم الشريدة بعيدًا عنهم؟! فوالدكِ نفسه الموظف الحكومي المحترم يجلس مُقهقهًا لا تحيد عيناه عن شاشة التلفاز إذا ما صادف بها مسرحية لسعيد صالح أو يونس شلبي، ما هذه الازدواجية التي يُحاكمني بها؟ فالتمثيل ليس مجرد مهنة بالنسبة لي ولا هو مسلكي إلى شهرة أبتغيها ولا إلى غنى أسعى إليه، إنه جزء من حياتي بل هو كلَّ حياتي وأرى أن خير استثمار هو الاستثمار في قلوب الناس وأنكِ إن كنتِ تُحبينَني حقًا فلا تؤلميني وتضعي نفسكِ في كفة موازية لفني وموهبتي، أرجوكِ.

أجبتُه حينها وقد اشتد غضبي وتعلقتُ بيديه أقول: لا يعنيني إن كنتَ قويًا أم لا، موهوبًا حقًا أم نصفَ موهوب، ولا يهمني ماتراه في التمثيل من ميزات أجهلُها، يا محمود إن ما يُعنيني حقًا هو أن ينتصر قراركَ لحُبنا، وتُهيأ كل الأسباب الممكنة حتى يجمعنا بيت واحد وسقف واحد وفراش واحد، ألا يمكنكَ حقًا التغاضي ولو مؤقتًا عن فنكَ وموهبتك؟ فلتترك المسرح الآن وتُنهي دراستكَ ونتزوج ثم تفعل ما تريد، سأكون حينها زوجتكَ وفي بيتكَ، مَن إذن يُمكنه انتزاعي منكَ؟ إن ما يُسعدني حقًا هو شعوري بأنكَ أخترتني أنا وبذلتَ كل غالٍ ونفيس لديكَ لأكون لك، فالحب أفعال يا محمود وليس أقوالًا، إن كنت تحبني حقًا فعليكَ إثبات حبكَ لي، والتخلي عن كل ما قد يُفرق بيننا حتى وإن كان موهبتك، أو التغافل مؤقتًا عنها وعن عروضكَ المسرحية، ألا تراني أستحق تلك التضحية؟ فالأفعال هي التي تؤكد صدق الحب أما الكلام فالجميع يتكلم.

اتسعتْ عيناي بلهفة لمعرفة البقية قائلة: وماذا حدث بعد ذلك؟

: حدث ما خشيتُه ولم أكن أرغبه، اختار محمود التمثيل، أدركتُ حينها أن حبه لي لم يكن عميقًا قويًا بما يكفي، بل إن عشقه للتمثيل وولعه به كان أعمق وأقوى، فقد سيطرفنه على

جميع جوارحه، ولِمَا لا وهو الذي لم يُكمل تعليمه العالي وهجر الهندسة وطلَّقها نهائيًا لأنها تُقيده بمواعيد للدراسة والمُحاضرات والامتحانات، انتظام ونظام روتيني لا تُطيقه روح الفنان الهائمة بين جنبات الكون، ركب رأسه ولم يترك مهنته التي ارتضاها ورآها مسلكًا إلى غد أفضل، وركب أبي رأسه أيضًا ورفض زواجي من المشخصاتي "أبو ضحكة جنان" كما يُكتب بجوار اسمه في إعلانات الفرقة المسرحية، وأقسم عليَّ بحياته أن أقطع كل علاقتي بهذا العابث اللاهي الذي لم يُبرهن على صدق مشاعره نحوي، أدركتْ أمي بغريزتها عُمق جرحي وحاولتْ مرارًا أن تُهوِّن عليَّ خسارتي، ظلتْ ولوقت طويل تُردد على مسامعي أن محمودًا لم يكن مُحبًا لي، ببساطة لأنه لم يُقدم ما يُبرهن به على صدق شعوره نحوي، فالفعل أقوى وأوضح وهو لا يجرؤ عليه، أقرَّتْ أني مُتألمة ومجروحة لأن ألم العشق يُذيب القلب ويجلب الهَم، ورأتْ أن تمنحني وتمنحه فرصة أخيرة لعله يفلح في استرضاء والدي، هاتفتهُ بنفسها وطلبتْ منه الإسراع في مُقابلة والدي والإلحاح عليه ومُلاحقته أينما يذهب لعله يرضى عنه ويقبل زواجنا، ولكن هيهات رفض فارسي النزول من على جواده ورفض أن يذهب للقاء أبي ثانيةً فقد أهانه وأهان فنه واحتقره، رفض الذهاب و أبى أن يُجدد طلبه الزواج بي،فقد كان

واضحًا ولم تقبل رجولته خداع أبي فلما الإصرار على رفضه والتقليل منه بل واحتقاره؟!.

رأى أن رفض والدي قاطعًا وعليَّ أنا اتخاذ الخطوة التالية التي تجمعنا كزوجين دون إرادة أبي ودون علمه، حادثتُ شقيقي عيسى في أمر زواجي من محمود فوجدتُه أصبح رافضًا لشخصه، ليس احتقارًا للتمثيل بل إشفاقًا عليَّ من فنان يراه الجميع جامحًا مغرورًا بل ومجنونًا أيضًا، أقسم لي أنه يخشى عليّ وأنا شقيقته الوحيدة من هوس فنان قد يضع الكل تحت حذائه ليصعد الى مجدٍ يبتغيه ويملُك عليه حاله، كانت تلك المرة الأخيرة التي تحدث فيها عيسى عن محمود ولم يذكُره بعدها لا بالسلب ولا بالإيجاب، هاتفتُ حبيبي للمرة الأخيرة لأعرف ما ينتويه، فصمتَ محمود وصمتُ أنا أيضًا، وانتزعه مني عشقه للتمثيل وهوسه بأحلامه وجنونه بموهبته، واستحالتْ حياتي كوميديا سوداء دونه، فرَّق بيننا عِنْد والدي وتشبث والدتي برفض قاطع ولم أجد من الأهل والاقارب من يؤيدني، حتى عيسى أكد رفضه للأمر في صمتٍ احترمتُه، فلم يشأ أن يُعلن رفضه حتى لا يزداد الموقف تعقيدًا كما أنه لم يُرحب بالتدخل في الأمر مُجددًا لعله يُقنع والداي واكتفى بتجنب الحديث عن الأمر كليًا بل وتجاهله تمامًا.

وهكذا صارت الأمور وتجمدتْ عند ذلك الحد، غاب محمود عن عالمي واختفى من على خريطة حياتي وكنا حينها في عام ١٩٨٠م، حيث سار محمود في طريقه الذي اختاره لنفسه، وعلمتُ فيما بعد أنه التحق بمعهد الفنون المسرحية، وسرتُ أنا في طريقي أتظاهر بقناعتي برأي والديَّ وصواب اختيارهما لي لأُهوِّنَ الأمر على نفسي وعليهما، رغم كل تلك اللوعة والخيبة في الحب التي سكنتْ قلبي وعششتْ في نفسي، وكنتُ حين أخلو إلى نفسي تُطل عليَّ ذكرياتي فتندلع شرارة آلامي لتُدمي قلبي.

و في مايو من ذات العام سافر عيسى إلى العراق كآلاف الشباب بحثًا عن فرصة عمل جيدة تمكنه من تكوين نفسه بعيدًا عن والدي، وليخفف عن كاهله أعباء تزويجه وتجهيزي إن دق بابي العريس المناسب، لكن للآسف اندلعتْ حرب الخليج الأولى بعد أربعة أشهر فقط من استقراره في العراق، وباتتْ جهودنا مضنية للوقوف على أخباره والاطمئنان عليه مما أصاب والدي بأزمة قلبية حادة تبعتها جلطة تُوفِّي على أثرها رحمة الله عليه في آواخر ذاك العام، دون أن تتكحل عيناه برؤية ولده الوحيد والاطمئنان على عودته سالمًا، وترك عيون أمي دامعةً ليل نهار، تغلفها الكآبة معظم ساعات اليوم تشقها الحسرة على ولدها

الـذي انقطعـتْ أخبـاره وزوجهـا الـذي فارقهـا وفُجِعـتْ فيـه، بالإضافة إلى ظروفنا المعيشية الصعبة، فمبلغ المعاش ضئيلٌ والوحدة قاتلة والمستقبل مجهول.

تتساقط الدموع غزيرة من عينيَّ والدتي وتقلُّ كلماتُها كلما تراكمتْ عليها مديونية البقَّال وتزايدت متأخرات الإيجار، فقد كان معاش والدي قد اقتُص منه مبلغٌ كبيرٌ فيما يُعرف باستبدال المعاش احتاجه قبل وفاته بعامٍ واحد، لإجراء جراحةٍ عاجلة لأمي حين داهمتها مياه بيضاء كادت تُطفئ نور عينيها، وكان لا بد لي من البحث عن حلٍ سريع وفوري، تركتُ كليتي دون علم أمي توفيرًا للنفقات والتحقت بالعمل فترتين كسكرتيرة في إحدى شركات المقاولات، أتأوه كل ليلة بصوتٍ مكتوم على مستقبل كنت أراه بهيًّا نضرًا، تعرفتُ حينها على " زكي العلايلي" والد زياد الذي قدَّم نفسه لي على أنه مهندس إنشائي تحت التدريب يعمل في ذات الشركة، عامٌ بأكمله مرَّ على وفاة أبي ثبَّتُ فيه قدمي في عملي، وأظهرت إخلاصًا وتفانيًا قدَّره مديري وضاعف راتبي وتعودت خلاله على رؤية زكي بانتظام، وجدته مُهتمًّا بي، وأحسسته راغبًا فيِّ، لا يرفع عينيه عني كلما التقينا، يتعمد الحضور إلى مقر الشركة كل يوم تقريبًا، وأنا لا أفعل شيئًا سوى

الاكتفاء بمراقبته بهدوء، والتطلع إلى الوقوف على ما يريد وما يمكنه أن يجنيه من ملاحقة فتاةٍ عاديةٍ مثلي بنظراتٍ ثابتة قوية جريئة لا تستحي أحيانًا.

تمنيتُ لو أني أجرؤ على التقدم نحوه لأُثبت عيناي في عينيه أمام الزملاء وأنفعل وأصرخ فيه، وربما يصل الأمر بي لأصفعه أمامهم فتسكت عني الألسنة من حولنا و تخرس تلك الأصوات الهامسة التي تتحدث عنا بلا ذنب لي ولا جريرة، وأخشى أن تعلو بمرور الأيام فتطول سمعتي في الشركة وأفقد وظيفتي في تبعاتها وأنا أحتاج إلى كل جنيه في راتبي، وقررتُ مواجهته في أقرب فرصة فإذا به يدخل مكتبي ملهوفًا ذات صباح وأمام زميلتي وجدتُه يقف قائلًا:

- أريدكِ ولا أستطيع أن أدفع لهفتي عنكِ، فلنتزوج يا صافي.

أكبرتُ له لهفته عليَّ ورغبته في شخصي المتواضع، لم أغضب ولم أنفعل ولم أتهمه حينها بالوقاحة كما كنتُ أريد، بل مددتُ يدي نحوه فأمسكها وضغطها برفق، وسرنا معًا خارج المكتب إلى حيث أمي التي وافقتْ ببساطة على زيجتنا وباركتها على الرغم من استمرار غياب عيسى حتى ذلك الحين.

هكذا وسريعًا تزوجتُ زوجًا في ظروف لم أرَ أني أطمح

حينها في أفضل منه، أردتُ أن أُبرهن لنفسي قبل أي شخص آخر أني قد أصبحتُ خاليةَ القلب، وأن مشاعري لم تعد تتحكم في قراراتي، فالحياة عادةً ما تسخر من مشاعرنا وأهوائنا، ولا تُنصف بالضرورة قلوبنا، فللواقع حساباتٌ أخرى لا تستوعبها مشاعرنا.

"صافي" اسم جديد أطلقه عليّ رجلٌ فاجأني بروحه المرحة ولهفته الشديدة وسرعته الفائقة في تجهيز متطلبات الزواج و قاعة الفرح و تورتة العروسين وقائمة المعازيم، حتى فستان الفرح فاجأني زكي به ذات مساء و وضعه أمامي على طاولة الصالة في شقتنا المتواضعة، فستان ثمين من الأُرجنزا الخلابة ذو أكمام طويلة و ذيل أطول من توقعاتي، ترددتُ في الموافقة و راودتني مشاعر مضطربة لكن أقنعتني كلمات صديقتي المقربة التي كانت على درايةٍ كاملة بقصتي مع محمود، العاشق الأبله كما كانتْ تُطلق عليه حين قالت:

- الأنثى العاقلة هي تلك التي تتزوج من رجل يحبها ويريدها ويتصرف على النحو الذي يجمعهما معًا، رجلٌ برهن على رغبته فيها بكل البراهين الممكنة، لا رجل عنيد مغرور تركها وحيدةً شريدةً في منتصف الطريق، تزوجي يا صفاء ممن يُحبكِ لا ممن تُحبيه أنتِ، اركضي بعيدًا عن الوحدة ولا تتركي

فشلكِ في قصة حب يفسد عليكِ حاضركِ وقادم أيامكِ، فالفشل ليس عند الخسارة يا صديقتي، إنما الفشل عند الانسحاب من المعركة، فلا تنسحبي من حياتكِ وتتركيها لتصدأ دون أن تختبريها وتعيشيها.

منطق رأيته فيما مضى غريبًا لكن حينها بدا لي منطقيًّا ومُبررًا للغاية، أحببتُ محمود جدًا لكنه تركني من أجل فنه ومسرحياته، فلما لا أتزوج زكي الذي جاءني من الباب مباشرةً دون ملاوعة ولا مراوغة، أخبرتني أمي بحدسها أنه إذا كنتُ أبحث حقًّا عن الأمان فالأفضل أن أبحث عن رجلٍ يُطمئنني بأفعاله لا رجل يُحبني بأقواله؛ لأن الإحساس بالخوف كفيلٌ وحده بقتل أي شعور بالأمل أو بالحب، فالحب بقاء وليس لقاء.

بحثتُ في نفسي فوجدتُني أفتقد محمود، لكن انصرافه عني واختفاءه من خريطة حياتي أغلق أبواب حاجتي إليه، أردتُ أن أختبر إصرار زكي على شخصي وأن أكون صادقة جدًّا معه، فصارحتُه بقصتي مع محمود، ولا أنكر أنه أصغى إليَّ بهدوءٍ واهتمامٍ أدهشني، ثم أمسك كفي وقبَّله وأردف: صفاء كوني ذكية، لا تربطي حياتك بشخصٍ يُسعدك، بل أربطي حياتك بشخصٍ لا يستطيع أن يسعد إلا بكِ ومعكِ، فالفرق كبير والأمر

يستحق منكِ المحاولة، وأنا ذاك الذي لا سعادة له دونك يا صافي، صدقيني لا يعنيني أن أكون أول من أحبه قلبكِ لأن غايتي وما يعنيني حقًا أن أكون الأخير في هذا القلب الرقيق، فلنتزوج.

كان زكي بارعًا في إقناعي و كنت أنا بارعةٌ في تصديقه، فكرت مليًّا في ما صارت إليه حياتي، كم أخبرتني أمي أن هذا الوقت سيمضي وأن آلامي ستنتهي، ربما كعبور شاحنةٍ ضخمة فوق روحي، لكنه سيمضي، وأن حضن زكي متاح ومباح فلما لا أهرع إليه؟ فلا حاجة لي لإضاعة الوقت، فلأدر ظهري لكل ما يؤلم وكل من لا يستحق، فلا غياب إلا غياب راحتي ولا فقد إلا فقدي لذاتي، أمعنتُ التفكير متحيزةً إلى ما يفرضه الواقع فرأيتُ زكي العلايلي حسنَ الخلق، وجيه المنظر، طموحَ الرؤية، جريئًا ومُقتحمًا، يفوح منه المرح والانطلاق، طالبًا نشيطًا مجتهدًا في السنة النهائية في كلية الهندسة، وكأني على موعد مع المهندسين، كل الصفات التي يرغبها العقل ويتحسسها متوفرةٌ في شخصه، مقطوع من شجرة وسأكون أنا وأمي كل عائلته، فلا عيب فيه يرفضه العقل ويبغضه المنطق، وليبقى القلب على الهامش فذلك أفضل للجميع.

: هل أسعدكِ انحيازكِ للمنطق وبارك اختياركِ لزكي يا خالتي؟ وهل طابتْ عيشتكِ معه؟

: كما أخبرتكِ يا صغيرتي، لقد اخترته حينها بميزان العقل لا القلب، وكل صفات العقل كانت متجسدةً في زكي، وكنتُ شديدة الحرص على أن أسحق قلبي وأكسب معركتي ضده، وظل العقل مُسيطرًا مُهيمنًا وأنا أحسبه انتصر تمامًا وأني قد شُفيتُ من حبي القديم الذي تبخر وتبخرتْ آثاره، فلم أعد أتقصى أخبار محمود ولا أتربص معرفة ما وصل إليه حاله، أبيتُ على نفسي خيانة زكي حتى ولو كانت الخيانة مجرد استدراكٍ لأخبار محمود، لكني أدركتُ أن الحب شيء والزواج أشياء أخرى، فالزواج دون حب طعام ماسخ لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فالحب يُنكِهَه ويمزق رتابته ويهزم السأم الذي قد يُعشش في أركان الزواج، بدون حب كل شيء يكون روتينيًّا باردًا، صامتًا أجوفًا، حتى الشمس تموت وتحيا بصمت.

ثم تُوفِّيتْ والدتي - رحمها الله- بعد زواجي بعامين وتحديدًا في خريف ١٩٨٤م، ولم أكن قد رُزقتُ بزياد بعد، أكرمها المولى وردَّ إليها شقيقي عيسى قبيل وفاتها بشهر واحد، حين استطاع العودة إلى أرض الوطن بمساعدة زكي الذي تواصل مشكورًا مع بعض شيوخ القبائل في صحراء الكويت عن طريق رجل أعمال عراقي تعرَّف عليه في ميناء بورسعيد، وأسدى له خدمةً وأراد الرجل أن يرد الجميل للمصري الشهم، وصل

عيسى إلى القاهرة منهكًا للغاية، متورم القدمين، شريدًا ممزقًا نفسيًّا، يُعاني من تقيحاتٍ وجروحٍ غائرة؛ إذ توجب عليه السير على الأقدام عبر الصحراء، والتخفي والهرب من الجنود وميليشيات الحرب، وعانى طويلًا ليسترد عافيته، إلا أن وفاة والدتي أجهزتْ عليه وأرهقتْ أعصابه وأودعه حينها زوجي العزيز مستشفًى خاص حتى تماثل للشفاء وشكرتُ له صنيعه.

جاءت وفاة أمي لتُجدد أحزاني على والدي، فطلبتُ من زكي السماح لي بالعودة لشقتنا القديمة في روض الفرج لبعض الوقت فربما يتحسن مزاجي، وهناك زارتني جارةٌ لي في شارعنا القديم، جاءتْ لتُعزيني في مُصابي وتطرقتْ متعمدةً بحديثها إلى محمود، فقد كانتْ على دراية بما كان بيننا في سالف الأيام.

"محمود الفيلسوف" أو كما كانت تُسميه فيما مضى، لا أعرف حقيقة مُرادها، ولماذا تعمدتْ ذكر اسمه أمامي ونبش ذكرى نكأتْ جراحي القديمة التي لم تكن قد اندملتْ كما كنتُ أحسبها؟ استطردتْ سناء تخبرني أنها التقتْ به في أحد العروض المسرحية التي يعرضها المسرح القومي في الأردن عندما سافرتْ لزيارة زوجها الذي يعمل هناك، سألها عني وعن أخباري، وكيف يسير زواجي؟ أخبرها كم كان حريصًا على الاختفاء عمدًا من

عالمي، أراد لي سكونًا وهدوءً ليستقر حالي وأهنأ بزواجي ممن رأيته مُناسبًا، ربما خفف زواجي حدة حبي له وربما أجهضه تمامًا، لكن حبه لي لم يمسه سوء ولم يُجهض ولم تعرف الشيخوخة له مسلكًا، رأتْ جارتي أن محمودًا صار الآن أكثر تعقلًا وروية ولم يعد هو بذلك الطيش الذي كرهتُه فيه، عرفتُ منها أنه لم يتزوج بعد وأنه لن يفعل أبدًا، فهو لم يبصر في الحياة سواي وعزاؤه وسلواه أني سعيدة هانئة مستقرة في حياة رسمها لي العقل، وحددها لي المنطق، وسطرها لي العُرف، وباركها والدايَّ، أما هو فقد ارتفع نجمه وعلا سهمه وغدا نجمًا على مسرح الدولة الرسمي، يُشيد النقاد بخفته ومرحه ولطفه وظرفه وسلاسة آدائه، فلا أثر للتكلف فيما يُقدم فكأنه لا يُمثل، إنه يؤدي أدواره بطبيعية ملفتة للنظر وها هو ذا قد وقَّع عقد أول مسلسل له أمام نجلاء فتحي، تلك الجميلة الناعمة، والذي سيُصور كاملًا في أثينا منتصف الشهر القادم.

كرَّت الأيام بعد تلك الزيارة كرًّا كئيبًا مُملًّا، فقد بتُ أشعر الحياة حولي مُظلمةً، تبتلعني الوحدة والوحشة، ولا أشعر بوجود زكي زوجًا لي وكأنه اختفى من حياتي، عنّفتُ نفسي كثيرًا ولُمتها أيَّما لوم، لقد أضعتُ سعادتي بيديَّ وأحرقتُ أغصان زيتوني

بحماقتي وتشبثي برأي، لم أُقدِّر اعتزاز محمود بموهبته، لم أستوعب إيمانه بنفسه ولم أتذرع بالصبر الكافي لتخطي العقبات التي تحول بيننا، ابتلعني الندم وغطتني الحسرة، حتى لطمني القدر لطمةً أكلتْ ما بقي لي من صبرٍ وتعقل، فلم يمضِ على زيارة "سناء" سوى شهر واحد حتى كسر ظهري نبأ وفاة محمود في حادث(*) خطف لطائرة مصر للطيران في رحلة عودتها من أثينا إلى القاهرة، حين قام ثلاثة مسلحين ينتمون لمنظمة "أبو نضال" باختطاف الطائرة بعد دقائق من إقلاعها وإجبارها على الهبوط في مطار لوكا بمالطا، وفشلت المفاوضات مع المختطفين، فقامت قوةٌ عسكريةٌ مصريةٌ خاصة بعملية اقتحام للطائرة، ونتج عنها مقتل ٥٦ راكبًا من بينهم " محمود داود سلَّام "، كانت تلك صاعقة انقضتْ عليَّ وتركتني حطامًا.

لكن الزمان قد استكثر على الحطام أن يكون ركامًا فنثرتني رياح الغدر مرةً أخرى وصرتُ هباءً...

(*) حدث بالفعل: خطف ثلاثة مسلحين ينتمون لمنظمة "أبو نضال" الفلسطينية في عام ١٩٨٥ الطائرة التابعة للخطوط الجوية المصرية القادمة من أثينا إلى القاهرة بعد دقائق من إقلاع الرحلة ٦٤٨ للطائرة بوينغ ٢٠٠-٧٣٧، وأجبرت على الهبوط في مطار لوكا بمالطا، فشلت المفاوضات مع المختطفين، وقامت قوةٌ عسكريةٌ مصريةٌ بعملية اقتحام للطائرة، نتج عنها مقتل ٥٦ راكب.

كانت خيوط الفجر قد شقَّت خطوطها الطولية في عمق الليل، رأيتُ خالتي صفاء قد أجهدها طول الحديث واجترار الذكريات، بسمة حزن تعلو وجهها، وعلى الرغم من فضولٍ يتحفز داخلي ويدفعني للسؤال عن بقية الحكاية إلا أن طفلةً في أعماقي تحركتْ تجاه أمي صفاء التي عشقتها أكثر وأكثر بعد ما قالتْ، اقتربتُ بوجهي منها، لامستْ وجنتي وجنتها ومسحتُ بشفتيَّ دمعةً ساخنةً مُلتهبةً كانت تجري على وجنتها، تبدلتْ ابتسامة الحزن بابتسامة حنان ولسانها يقول:

- أحبكِ صغيرتي، عليكِ أن تتمسكي بأحلامكِ وتُصرِّي عليها حتى لو كانت زيادًا، فنحن لا نعيش مرتين.

أدركتُ من حديث خالتي صفاء أن قلبًا هجره حبه لن تكون لياليه سوى ليالٍ باردة تُزيدها الأيام والسنون برودًا وغموضًا ووحشةً، أو ربما ليالٍ مُستعرة لا تهدأ فيها نيران الجحيم ولا تتراجع، تقفز فيها جمرات الرغبة لتجفف سفوح الأمل، لا شيء سوى اليأس يلف الجسد ويحتله ويتخلله ولا يتركه إلا ركامًا..

أسرعتُ إلى دفتري أفض على أوراقه جبل مشاعري وأسطر كلمات جاءت ملتهبة بالشوق مرتجفة بالذكرى:

(مجرد إحساسي بأني أهتف باسمك حبيبي في أعماق

صمتي فإن ذلك يُرضيني، يُبقيني على قيد الحياة، وكل يقيني أنني أنبض هناك في دهاليز قلبكَ مهما كانت الظروف، فأنا عاليا غاليتُك يا زياد).

لم أكن أستغرب ميل المرء إلى العزلة أحيانًا وحنينه إلى الوحدة، لأن تلك الوحدة كانت صديقتي ولفترة طويلة حينما كنتُ أقطن بيت والدي عزيز الطوبجي، كثيرًا ما كنت ألزم غرفتي لا أفارقها إلا للشديد القوي وخاصةً بعد رحيل أمي الطيبة إلى مثواها الأخير، لكن وحدة حنين والتي فرضتها على نفسها تُخيفني، التصاقها الشديد بعالمها الإلكتروني يرعبني، باتتْ تهفو إلى الوحدة وتفِر من جلساتنا التي كانت تعشقها، كأنها عجوز أجهدتها الحياة، لم يكن حب الاستطلاع فقط هو ما يحركني نحوها ويدفعني للاهتمام بأمرها، بل رغبتي الحقيقية في معرفة ما ألمَّ بها سيطرت على تفكيري.

زرتُ حنين في شقتها وجلستُ على مقربةٍ منها في صمت أراقبها وهي تتظاهر بقراءة كتاب في يدها، وفي اليد الأخرى تُنفث سيجارتها فيحتل دخانها الأزرق حيز الفراغ بيني وبينها.

قاطعتُها: أخشى أن تكون زيارتي قد ضايقتكِ لكنني أفتقدكِ ولا أستطيع مقاومة رغبتي في التحدث معكِ، فهل أنا طماعة؟

: أي طمع في الأمر يا عاليا، وفيما ستطمعين؟ لستُ بخير يا صديقتي، إن حاجتي إليكِ أشد مما تتوقعين، لكني أردتُ التوقف عن التطفل على مجلس خالتي صفاء، فربما أرادتْ السيدة إخبارك بأمر شخصي، كما أني أردتُ إعادة ترتيب أفكاري.

: هل ضايقكِ عليّ مجددًا؟ أنا على استعداد أن.....

قاطعتني بجدية: عليٌ لا يُضايقني بالعكس، فأنا المُتنمرة الشرسة التي تُضايقه دومًا، الأمر خاص بأمي، أصابتني خيبة أمل شديدة حين اتصلتُ بطبيبها للاطمئنان عليها والوقوف على آخر أخبارها الصحية، كان الرجل صريحًا معي، راغبًا في إطلاعي على مُجريات الأمور بجدية ومُستجدات الوضع مهما كانت، بكيتُ أثناء حديثه وكأني لا زلتُ طفلة غابتْ عنها أمها في رحلة عمل أو سفر وتشعر أنها لن تراها ثانيةً.

: ما الأمر يا حنين، ما بال والدتكِ؟ ماذا أخبركِ طبيبها يا حبيبتي؟

: تعلمينَ أنها تعاني من اكتئاب شديد وانفصام في الشخصية تُعالج منه منذ فترة، وفي الأونة الأخيرة أصبحتْ لا تستجيب للعلاج وقد تطور معها المرض، أمي باتتْ تُعاني من " متلازمة كابجراس".

: متلازمة ماذا؟ كابجر..

: أنا أيضًا لم أسمع بهذا المرض من قبل، ولم يُسهب الطبيب في وصفه العلمي لي، لكنه أخبرني باختصار أنه من

الأمـراض الخطيـرة حيـث يظـن المـريض أنـه تـم تغييـر عائلتـه والمُقربين إليه بأشخاص مُحتالين يُشبهونهم في الشكل والمظهر، وفي هـذه الحالـة قـد يـصل الأمـر بـه إلـى قتـل أحـدهم؛ ليـستعيد المـريض مـن وجهـة نظـره الـشخص الحقيقـي مـرة أخـرى، قـد صارتْ أمي تحت الملاحظة والعلاج الآن لتحديد حالتها هل هي مؤقتة أم مزمنة، وقد مُنعتُ عن زيارتها حتى إشعار آخر..

لـم تُـسعفني الكلمـات لاحتـواء حنـين، آلاف الكلمـات لا تكفـي ولا تُـسمن مـن جـوع، غرقنـا في دموعنـا الحارقـة وكلانـا تحتضن الأخرى وتتشبثُ بها(*).

(*) متلازمة كابجراس: حالـة يعتقـد فيهـا الإنسان أنّـه أو أقربـاءه قـد حلَّ مكـانهم مستنسخ منتحـل شخـصياتهم، يخـاف الكثيـر مـن الـذين يعـانون مـن هـذه المتلازمة من "المستنسَخ" بل ويحاولون قتله أو إبلاغ الشرطة عنه.
من غير الواضح ما الذي يُسبب هذه المتلازمة، ولكن تُعاني منها النساء أكثر من الرجال وهي شائعة لدى اللواتي يعانين من انفصام الشخصية، الخَرف، وأيضًا لدى الأشخاص الذين عانوا من إصابات في الرأس، وقد يصبح الـذين يعانون من هذه المتلازمة عنيفين الى حد بعيد بهدف حماية أنفسهم، ووفقًا لإحدى النظريات الرائدة، فالسبب يعود إلى اضطراب في مركز الرؤية والـذي يُلحق الضرر بالقدرة على التعرّف على المألوف.
تظهر" متلازمـة كـابجراس" في عدَّة صور؛ حيث يعتقد المريض أنّـه شـاهد المستنسَخ عنه بأمِّ عينه، وأنَّ المستنسَخ لا يُرى إلا لـه، وهـو رجل مـألوف يرتـدي صـورة شـخص آخـر، وأنَّ الـشكل الخـارجي وشخـصية الـشخص المألوف قد تغيَّرا، وأنَّ الناس لا يعرفونـه في الواقـع، وفي حـالات معيَّنـة يعتقـد المريض أنّه قد تمَّ استنساخه وهناك مستنسَخ عنه.

أحداثٌ كثيرة وأمورٌ أكثر تزاحمتْ على أحاسيسي، واحتار معها خاطري حتى تعبتُ من دورانها داخل رأسي، حزن دفين تلمع به عينا خالتي صفاء محاطٌ بهالة من الرضا تشع في وجهها الملائكي رغم تجاعيد الزمن، تساؤلات تغوص في أعماقها وأعماقي عما يمكننا فعله أو ما يمكننا تقديمه لتخليص زياد من مأزقه وكارثته اللعينة، يأكلنا قلق وتوجس وريبة فقد انقطعتْ أخباره مرةً أخرى حتى اتصالاته بخالتي صفاء انعدمتْ، فلم يُهاتفها منذ شهور إلا عندما أخبره عدنان عن طريق محاميه بوفاة خاله عيسى، خصّها باتصال آنذاك للاطمئنان عليها ولم تكن المحادثة طويلة فقط اطمأن على إمكانية بقائها في دار خاله في المنصورة، وبمرور الزمن بدأتُ أستشعر في حديث خالتي صفاء رائحة خطر ما مجهول السبب تشعُره نحو زياد، أحسُّ غصةً في حلقها حين تتحدث عنه وكأن يدًا تعتصر قلبها وتكاد تنزعه، الأمر أكبر من آلاف الأميال التي تفصله عنها وأكبر من سنواتٍ عشر تُحرم فيها من رؤيته، تملكها شعور خوف عظيم لأمٍّ توشك أن تفقد حشاشة كبدها في حين أقف أنا عاجزة عن طمأنتها أو طمأنت نفسي، فتظل علامات الاستفهام ثابتةً مستمرة أبدًا بلا

obeikan.com

أجوبة، حتى عدنان أقسم بأنه لا يعلم عن زياد أكثر مما نعلمه نحن، لكنه وعدنا بتحري الأمر قدر الاستطاعة.

في تلك الأثناء و رغم تفهُّمي الكامل لما تُكابده حنين إلا أن انفعالاتها المُبالغ فيها صارت تُزعجني في أحيان كثيرة، كذلك تحاملها الزائد على شقيقي عليّ كأنها تترقب أي كلمة تخرج من بين شفتيه لتنقض عليه مهاجمةً متحفزةً، تظل تتجول في الغرفة وتراقب شارعنا من النافذة في صمت ولا تهدأ جولاتها ذهابًا وإيابًا إلا حين تلمحه قادمًا فينقلب الترقب تحفز، أراها تطلق زفرة ارتياح لوصوله ثم لا تلبث أن تهوى على قلبه بضرباتها المنتظمة الواثقة فتُحيل أيامه أحزانًا، يُثقلها استسلامه لجبروتها وعنفوانها، إنسانيته ووداعة ملامحه وصفاء عينيه وعمق مشاعره نحوها تُدمي إنسانيتها، تحسُ أنها تنتمي إليه دون إرادتها، تهرب منه وهي التي تريد أن تهرب إليه، أما هو فيبتسم حين يراها، شيءٌ عجيب في عينيها يدفعه نحوها رغم خشونةٍ تحرص هي عليها حين تراه، قليلون هم من يملكون العقل حين يصدح صوت القلب فيصرخُ عشقًا، قليلون هم من يرون في وجع الحب شهدًا وفي معاناته نبضًا مستمرين في تلقي ضربات الهوى الموجعة دون احتياط!

أما أنا فأقف بينهما كسفينة ضلَّتْ طريقها في عرض البحر وتعطلتْ بوصلتها، تتملكني الحيرة وأقف مكتوفة الأيدي أمام نبرتها العدائية معه، هل أقذفُ بكل ما أحمله لها من صداقة وحب بعيدًا وانتصر لشقيقي وأنغمس في بؤرة أخوتنا، وأغوص في جيناتنا الوراثية وأطرد حنين من جنة صداقتنا وهي القريبة إلى قلبي الغالية على روحي، يُرهقني قلقي عليها وشفقتي على مُصابها الأليم في مرض والدتها، تأتيني نبرات صوتها تتشقق بكاءً كل ليلة من خلف مسافات الألم، أتمنى لو أني أستطيع حمايتها من خوفها وقلقها الذي زادتْ معه حدتها وعصبيتها ووجومها، أكاد أنهار وأهوى على خدها لأصفعها علَّها تستفيق من توترها وشراستها، ثم ألتقِطُها بين ذراعيَّ لأحضنها وأربت على كتفيها، فربما نبتسم حينها دون ابتسامات.

أرفض هذا الطريق الغامض الذي يسير فيه عليّ بإصرار تجاه حنين المُتنمرة رغمًا عنها ضد الحب، لكن لا يسعني أن أحرمها حنان عليٍّ ولهفته عليها، هو يحبها رغم عذابها ولهيبها وصمتها ونحيبها، يحبها كما هي رغم جفاف قلبها، أرى ذلك وأصمتُ، أخبرني عليٌ كثيرًا أنها وطنه وهو رجل شديد الولاء،

يعرف أن ربيع حنين خريفًا فأصبح خريفي المزاج، يؤمن أن الغروب يتبعه شروق ويأمل أنه حين يأتي الغد ستراه حنين فارسًا نبيلًا تغرد معه كل بلابل روحها، ليس الآن فهي لا تؤمن بالشروق ولا تنتظر البلابل ولا تريد الفارس لكنه سينتظر ويرجو الله ألا يطول انتظاره، أرى كل ذلك ولا حيلة لي لأُعيد كفة الميزان إلى نصابها فينبض قلب حنين نبضًا يليق بها، ما عساي أفعل لأدرك عليًّا قبل أن ينطفأ شعاع الغد في قلبه وتخبو جذوة عواطفه إلى الأبد حين ينكسر سهم عشقه؟! كيف يمكنني أن ازيح ستار الألم الأسود عن قلب حنين صديقتي؟ كيف يمكنني أن أُعينها لترى قلب عليٍ الذي فاض بحبها و ها هو يقف هناك على ضفة نهر الشوق ينتظرها برجاءٍ، كيف؟

لم يتبخر من ذاكرتي ما قاله لي عم ربيع عند عودتي من المنصورة، نعم، أفهم أنه يتوجب عليَّ أن أجمع نفسي من جديد وأن أحقق لنفسي ما عشتُ عمري كله أربيه في ذاتي لأكونه، فكل ما أعانيه من إحباط وخوف لا بد سيودي بي إلى نهايةٍ مؤلمةٍ إذا ما استوطنني العجز واستباح الألم مشاعري، ما قيمة أيامي وحزني وفرحي وخوفي وأملي إذا لم أصنع منها شيئًا؟! عليَّ أن

أصنع لنفسي وجودًا، ولعالمي خريطةً ولكتابي فهرسًا، سأظل أسطر في دفتري ما أسطر وأسجل خواطري ومشاعري وعذابات انتظاري، لكن هل يمكنني أن أنسج منها روايةً أهديها ببساطة إلى حب العمر حين ألقاه؟!

: كوني عظيمةً بعين نفسكِ، صامدةً وقويةً، مثابرةً وناجحةً، لا عنيدة ولا جاهلة مغرورة على هامش الحياة، كوني أنثى كما يجب أن تكون..

كلمات جميلة قالتها خالتي صفاء في حديثها الليلي معي أنا وحنين حين توسطتنا وهي تمشط شعري وتقص أطرافه المتقصفة ليعاود النمو سليمًا، تسربتْ كلماتها إلى جماع قلبي فالتصقتْ به وبتُ ليالًا أكرره على ذاتي لأحفظه وأُدرك معناه، وأستقوى به على كل حزن أو يأس قد تهاجمني نوباته فتقتلعني من جذوري، رأتْ فيَّ حنين ما لم أره في نفسي حين فاجأتني بتقديمها باسمي في مسابقة "الرواية الأولى" في أحد الجروبات الأدبية المنتشرة على الفيس بوك، وستصدر الأعمال الفائزة بالمراكز الثلاث الأولى ورقيًّا مجانًا للأقلام التي تُثبت جدارتَها واستحقاقَ موهبتها للظهورعلنًا على جمهور القراء، فشرط

obeikan.com

المسابقة الأوحد أن يكون الكاتب أو الكاتبة مغمورًا ولم يسبق له نشر أو إصدار أعمال أدبية ورقيًا.

: إنها فرصتكِ الحقيقية عاليا لتكوني كما أردتِ دومًا وعليكِ إثبات جدارتك.

قالها عدنان حين هاتفته لأستشيره في الأمر، يعلم أني لم أفكر يومًا ولا تراءى لي في أحلامي أن أنشر كتاباتي، فأنا أكتبُها لتؤنس وحدتي وتنير محيطي وتثلج صدري، لكنه كان دومًا وخلال السنوات الماضية أول من يقرأ سطوري وقصصي ويوجهني ويُبرز لي نقاط قوتي وضعفي، فعدنان قارئٌ فخيم بدرجة أديب، كثيرًا ما شجعني على تطوير ذاتي وتحسين أدواتي لكني ظللتُ مترددةً طوال اليوم، ويعتريني مزاج سيء وغبي.

فقد كانت سنواتي خريفًا تخللها ربيعٌ أحببتُ العيش فيه لكن الظروف والأقدار أبتْ وشاءتْ غير ذلك، فما عساي أكتب؟! وما عساي أقول؟! وفي سكون الليل وحين رفض النوم أن يزور أهدابي، كان ضوء القمر يتسلل على استحياءٍ إلى غرفتي عبر النافذة، أمسكتُ دفتري وبعض أوراقي مستمتعةً بصوت أمواج البحر تلاطم الشاطئ ثم تسرع منسحبةً، ما أروعه من لقاء!

الليل والقمر وأنا، حينها شق صوت هاتفي هذا السكون وقطعتْ رنته لذة اللقاء، رفعتُ الهاتف لأعرف ذاك الساهر مثلي الساهد ليلًا، وجدتُ رقمًا دوليًّا في تطبيق الواتس آب يُشير إلى رسالة مُرسلة من ذاك الرقم الدولي، أسرعتُ بفتح الرسالة وأنا أعاني بركانًا داخليًّا يرتج في أعماقي، لا بد أنها من هناك تأتيني من حيث ينبض قلبي، فقد سكب الهاتف أنغام رسالته في أذني وهتفتُ باسمه وكأنني أمتص الحروف امتصاصًا لأتذوقها... زياد!!

فإذا عيناي تعانق حروفًا كتبها حبيبي تقول:

يا أحب الناس إلى قلبي، اغفري لي ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اغفري لي أني لم أمنحكِ سعادة وعدتُكِ بها، اغفري لأيامي قسوتها التي انتزعتكِ من بين ذراعيَّ قسرًا دون إرادتي، فإعراضي عن الرد عليكِ وتأخري إلى الآن لم يكن أبدًا إهمالًا أو إغفالًا، فمثلكِ لا يُهمل حبيبتي فقد ماتتْ في محراب عينيكِ ابتهالاتي، لكنه خوفًا عليكِ وغيرةً على عمرك، فما يتعبنا ويشقينا ليس الباب الذي أغلقناه، بل النوافذ التي نفتحها لنسترق النظر لما وراءها متعلقين بحبال الهوى، فأردتُ أن أُغلق الباب وأوصد نوافذه دونكِ حفاظًا عليكِ وإكرامًا لربيع شبابكِ، فاستحالتْ

أيامي علقمًا وتجرعتُ حنظلًا، اعتلَّتْ صحتي وسكن الوهن جسدي، أُصبتُ بوعكةٍ ازدادتْ مع الأيام ضراوتها فتيبستْ أطرافي والتهبتْ أعصابها وعانيتُ شللًا مؤقتًا في يدي اليسرى، رقد بدني أكثر من ستين يومًا على فراش المرض في غرفة رمادية الجدران باهتة في مستشفى السجن، لا زائر ولا رفيق ولا ونيس،غرفة كالقبر يسودها السكون الأشبه بالموت، أدركتُ حينها أنني هالكٌ دونكِ لا محالة، وأنني إن لم أكن أعيش لشيء، فسوف أموت للاشيء، وأنتِ معركتي ومُبتغاي، وحين شرفتُ على الموت و زهدتُ الطعام زارني شيخ السجن وأدركني بحكمة سمعتُها من قبل ولكني لم أتذوقها في حينها (العسر مهما قسى فاليسر يتبعه، وعد من الله وهذا الوعد يكفينا).

وها أنا ذا أكتب لكِ من زنزانتي التي عدتُ إليها اليوم فقط وفور إغلاق أنوار مصابيح ممرات السجن، حينها استطاع صديقي معتصم إخراج هاتف خلوي صغير أهداهُ لي فتفتحتْ زهور الفرح تنشر ربيعها في قلبي من جديد، أعشقكِ غاليتي فانتظريني إن طاب لكِ الانتظار، دُمتِ لي شيئًا جميلًا لا ينتهي يا من أنتِ أغلى من عمري...

كلماتُ زياد وسطور رسالته جعلتْ مني أنثى أخرى، أنثى يتأجج في صدرها حبٌّ لا تخمد ناره، ويجيش قلبها بغرام لا يملك الزمن إخماده ولا تستطيع الأيام محوه، لقد جعلني الحب أنثى مكتملة.

ضغطت لوحة مفاتيح جوالي لأسطُر لحبيب العمر ردًّا فما وجدتني أكتب غير سطر واحد.

(هناك نظرة تختصر حياة، وصوت يختصر مسافة، وشخص يختصر الجميع، ذاك أنت).

فجاء رده سريعًا: (أشكركِ لأنكِ جعلتني أحب غدي وأنتظره غاليتي)..

أسرعتُ إلى الحجرة التي تنام بها أمي صفاء دلفتُ إليها وقد ساد بها السكون، اتجهتُ إلى فراشها وجلستُ على حافته ومددتُ يدي فأمسكتُ بيدها أربت عليها برفق، فإذا بها تفتح عينيها اللوزيتين وتعتدل في جلستها قائلة:

: خيرًا بُنيتي؟

: هو كل الخير يا حبيبتي، زيـــاد بخير، حبيبكِ وحبيبي بخير والحمد لله.

لا تسعفني الكلمات لأصف كيف قفزت خالتي صفاء من فراشها وكأنها ابنة العشرين تسجد لله شكرًا وحمدًا ولسانها يردد بلا توقف: (الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه)، تنهمر على خديها مجريان من دموع الفرح والشكر لا يملك أحد اعتراضهما، انتظرتُ حتى هدأتْ خالتي وما أن انتهتْ من صلاتها حتى أخبرتها بكل ما جاء في رسالة زياد، لم أرغب في إخفاء مرضه عنها فهو في أمسِّ الحاجة إلى دعائها، صدق حدسها فلم يكن غيابه عنها جفاءً ولا خشونة قلب ولا إهمالًا، لقد كان الأمر خارجًا عن إرادته، فما رأيتُه منها ومن زياد جعلني أوقن أنهم قوم قريرو العين، وهبهم الله قناعة النفس التي أعانتهم على الحياة وخشونتها.

طار النوم من عينيَّ أمي صفاء وأشرق وجهها بشمس الاطمئنان على ولدها، وقفتُ أتأمل صورة زياد التي لا تفارق الطاولة الصغيرة بجوار سريرها، أتحسس صورته فكأنني أتحسس ملامحه الرجولية الحنونة في ذات الوقت.

ضحكت أمي صفاء حتى بانت نواجزها وقالت:

: هو لكِ، أثق في هذا.

علتْ شفتي ابتسامة غبطةً ورضا وتمتمتُ:

: نعم، هو لي.

: جميل، تُعجبني تلك النبرة ياغاليتي.

أجلستُها على مقعدها المفضل بجوار النافذة، كانت الشمس قد اعتلتْ السماء وخيوطها الذهبية اللامعة انتشرت في الغرفة، قدمتُ لها كوبًا من النعناع المُحلى بعسل النحل وجلستُ عند قدميها أستند الى رُكبتيها وتابعتُ حديثي في إصرار:

- الأجمل يا صافي أن تُخبريني ببقية الحكاية، فلا يُمكنني الاكتفاء بما أخبرتيني فلقد أشعلتي فيَّ فتيل الفضول، كيف وجدتِ زكي العلايلي كزوج؟ كيف كان أمره معكِ؟

ربتتْ خالتي على ظهري بحنان وقالت:

- أصبحتِ في نفس فضول زياد ولهفته الدائمة لاستكمال ما نبدأه من حديث ينقطع بيننا لأي سببٍ، سأخبركِ إذن.. أدركتُ منذ الشهور الأولى لزواجنا أن أصل شقاء الإنسان هو التناقض الذي يسكن نفسه بين ما يرغب وما يستطيع، بين ما يلذ له وما يجب عليه، عرفتُ من زيجتي تلك أننا لم نُخلق إلا لنشقى، فالسعادة هي لحظاتٌ خاطفةٌ تتاح لنا بين هنيهة وأخرى، فما أتيحتُ لنا إلا وتوجب علينا اقتناصها فلا ندعها تفلت، فلحظات

obeikan.com

السعادة هي التي تُغرينا على الاستمرار في السير، تلك هي الأفكار والرؤى التي طافت في ذهني وقتذاك، لم أحب زكي لكني آمنتُ حينها أن الحب في حياتي يجب أن يظل حادثًا عرضيًّا لا محورًا أساسيًّا أسعى إليه، لا أنكر أني شعرتُ بألم عميق يخترقني حين تزوجت زكيًّا، لكني أقسمتُ على أن اختزله داخلي وأن أكون زوجةً شريفةً مُخلصةً لا تخون زوجها حتى وإن كان الأمر لا يتعدى مجرد التفكير في حبيب سابق، فالجرح جرحي وحدي وسيندمل ذاتيًّا بمرور الأيام ولا ذنب لزوجي فيه.

: هل استطعتِ ذاك حقًّا؟ ألم يكن الرجل مُحبًّا مُخلصًا فيعاونكِ بحبه على نسيان ما كان؟

بالرغم من كل ما أخبرتكِ به لم أكن حزينة بالدرجة التي تجعله يلحظ أو أني تعمدتُ ألا أجعله يلحظ، كان مشغولًا مهمومًا بلقمة العيش، فقد رسب ثلاث سنوات متتالية في السنة الثالثة في كلية الهندسة مما استوجب فصله منها، حقيقة عرفتها بعد زواجنا بشهر واحد وأنه قد ترك الدراسة بالفعل وهجرها تمامًا منذ سنتين، أحزنني الأمر بل أنه أغضبني كثيرًا ليس لأنه ترك الدراسة، بل لأنه قد كذب عليَّ وخدعني، توجستُ خيفة منه فالمرء الكاذب لا أمان له، اعتذر مرارًا متعللًا بحبه لي وأن رغبته

الحقيقية في الارتباط بي هي التي منعته من مصارحتي بالأمرخشية أن أرفض الزواج منه، ووعدني أنه مهما حدث فلن يرتكب حماقة الكذب عليَّ مرة أخرى، سكتُ و قررتُ حينها تجاوز الأمر انصياعًا لرغبة والدتي التي أخبرتني أن الرجال جميعهم يكذبون، وعلينا معشر النساء أن نتحمل كذبهم ونبتلعه ما دام لا يصل إلى حد الجريمة.

وانتقلنا حينها إلى شقتنا الجديدة التي استأجرها زكي في مدينة نصر وتحديدًا أمام الحديقة الدولية دون أن ألحظ حينها أي تحركات أو تصرفات مريبة أو خاطئة تصدر من زوجي، أخبرني حينها أن الشركة تتولى دفع إيجار الشقة حتى يتسنى له أن يكون قريبًا من مقرها في عباس العقاد، لم يساورني شك حينها فيما يروي، فزكي فهلوي وعلى علاقة قوية بصاحب الشركة، علاقة شهدتُها أنا وكانت على مرأى ومسمع مني أثناء عملي معه في نفس المقر سالفًا، و تمر الشهور ليزداد زكي فرحًا بهدوء طبعي وحلاوة عشرتي وطاعتي له كزوجة، ثم طالبني بزيارة الطبيب لمعرفة الأسباب التي تمنع حملي وقد مضى على زواجنا أكثر من عام ونصف، اقنعني برغبته الحقيقية في الاطمئنان فقط دون أي ضغط أو حرج قد يسببه لي حديثه عن الإطفال، وخاصة أنه

قد سبقني إلى هذه الخطوة و زار طبيبًا متخصصًا أكد له سلامته بعد اطلاعه على تحاليل كان قد طلبها منه، لحظة مشحونة مريعة انتصبتُ فيها واقفةً حين أخبرني الطبيب بحاجتي إلى إجراء جراحة لإزالة ورم حميد من الرحم، مع التأكيد على حاجتى بعدها للعلاج فترة قد تطول أو تقصر حتى أتمكن من الإنجاب، ودون وعي مني قوَستُ نفسي وارتميتُ على صدر زكي أبكي وأخبره بمرضي وأطالبه بالزواج من أخرى إن هو أراد، فإذا به يُجيبني بهدوء:

- لا زلتِ لا تعرفينني.

كان جوابه مختصرًا وبليغًا، فابتسمتُ ولم أحدثه ثانيةً عن أمر زواجه، وأجريتُ الجراحة العاجلة التي سدد زكي تكاليفها وتكاليف إقامتي في مستشفًى خاص ببساطةٍ وسخاء، وأخبرني أن الشركة أيضًا هي التي تكفلتْ بالأمر برمته ولم أكن أملك حينها إلا تصديقه.

- ثم؟

امتثلتُ بعدها للعلاج في مواعيده و حرصتُ على المتابعة مع طبيبي، ولم يحادثني زكي عن الإنجاب بعدها فقد كان يرى مدى حرصي على الأمر وامتثالي للتعليمات و مواعيد الفحص الدوري، ثم توفيتْ والدتي بعد جراحتي بستة أشهر تقريبًا وخلتْ الشقة عليَّ وحيدةً كل ساعات النهار ومعظم ساعات الليل، يعود

زكي إليَّ في الخامسة فجرًا ويُغادرني في الحادية عشر صباحًا، أمور كثيرة تعاقبتْ حينها على حياتنا الأسرية، انشغاله عني باستمرار، سيارةٌ جديدة اشتراها، سفرياتٌ متعاقبةٌ سريعة، وحين أسأله وأناقشه ينسحب بهدوء من الغرفة والبيت كله تاركًا إياي تخوض فيّ حيرةٌ تتدفق داخلي وتزداد يومًا بعد يوم، وزكي يتجاهلني ويتجاهل حيرتي، بل شعرته يتجنبني وتساءلتُ مرارًا لماذا لا يُحادثني وينقذني من خواطري إن كان حريصًا عليّ؟

عرفتُ حينها أنني أحمل جنينه في أحشائي، صرخ بفرح حين علم بالأمر وكأنه كان قد استبعد الفكرة من حساباته أو استسلم لاستحالة حدوثها، وضعتُ زياد في مستشفًى خاص أيضًا بل إنه استثماري باهظ التكاليف، كبرتْ خواطري واستحالتْ هواجس وشكوك في أمر زكي وخاصةً حين افتتح حسابًا بنكيًّا باسم زياد واضعًا فيه خمسة وعشرين ألف من الجنيهات، ففي عام ١٩٨٦ كان هذا مبلغًا كبيرًا، انشغلتُ بعدها بوليدي الذي انتظرته لسنوات أما زكي فقد كانت حياته تمضي في طريقها المعهود، العمل والسفر، ثم السفر والعمل، الأيام تمضي وقد استقر الفتور والصمت والجفاف في حياتنا، كنت أقاوم حينها رغبتي في الانفصال عنه حتى لا أحرم زياد من أبيه رغم عدم اهتمامه بأمره.

obeikan.com

إلى أن فوجئتُ بالشرطة تقتحم شقتنا وتفتشها تفتيشًا دقيقًا، وتنثر محتوياتها يمينًا و يسارًا بحثًا عن شيءٍ ما وتُلقي القبض على زكي الذي ظل هاربًا لبضعة أيام في مخزن للشركة في السالوم، لقد كان زوجي يتاجر في الممنوعات مع شريكه صاحب الشركة التي لم تكن أكثر من غطاءٍ لستر نشاطهما الحقيقي ولحجب الأعين عنهما، رأيتُه في السجن محكومًا عليه بالمؤبد، عاجزًا عن الفكاك من قيوده، عاجزًا نهائيًّا على تبرير الأمر لزوجة شابة مصدومة زائغة النظرات، أتته تحمل وليدهما على كتفها، لتنحصر علاقتنا بعد ذلك في لقاءات متباعدة طوال فترة محاكمته، وحين ثبت لي بالأدلة صدق إدانته وتورطه الفعلي في تلك التجارة القذرة وأنها مصدر رزقه الرئيسي وأصل ما معه من أموال، أقمتُ دعوى طلاق في المحكمة وحصلتُ على مرادي، فلم يكن بمقدوري الاستمرار على ذمة تاجر مخدرات غشاش، ثم غاب زكي وراء باب الزمن واختفى من دنيانا إلى الأبد، ورجعتُ إلى شقة والدي في روض الفرج أسترجع مشاهد سعادة قصيرة عشتها طوال كل سنوات عمري الثلاثين حينذاك أشعر لسعة الحرمان، ثم أنظر إلى صغيري الذي بدأ يحبو ثم عرف أول خطواته ماشيًا، فأهدهد قلبي بالرضا بما أتاحه الله لي من سعادة بريئة مع فلذة كبدي الذي لم أشأ أن أطعمه من حرامٍ حتى لا تكون النار أولى به.

استطعتُ بمعاونة طبيب جاري أن أتدرب على التمريض في مستشفًى خاص ثم عملتُ بتلك المهنة التي وجدتُها تجدد إنسانيتي وتشحذ براءة مشاعري أول بأول، احتفظ لنفسي بسري الصغير (محمود الفيلسوف) دون أن يفسد عليَّ الأمر سلامة نفسي أو يحرج ضميري، فلطالما كانت قصتي معه نقية كالسحاب الأبيض لا تشوبه شائبة، صدقًا لقد اختفى محمود من مجال رؤيتي وسمعي لكنه لم يخرج أبدًا من وجداني ومخيلتي فقد ظل في أعماقي حيًّا..

يالله، طقس اليوم مميز إلى حد بعيد، رافقتُ حنين في زيارة لأشهر معالم الإسكندرية من التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساءً، ما الذي يمكنني فعله لمقاومة جمال تلك الساحرة؟ إنها تأخذني بعيدًا عن كل تحديات لحظاتي الحاضرة!

فتمر أيامي مشحونة بتأثير تلك الجولة وأشعر بالقوة و النشوة وأنا منكبة على أوراقي أُسجل خواطري و شخبطاتي، أتبع فيها دروبًا مختلفة، استسلمتُ تمامًا إلى ما أشعر به فخلتُ أني قادرة على رؤية أبطالٍ حولي، أدخل معهم فتراتٍ من الصراع الداخلي واستغرق في واقعهم إلى حد يكفيني لأعرف أن القلم

obeikan.com

مهما بلغ نبوغه لا يكفي لأن يستوعب و يعبر عن كل ما أريد، فتظل الرؤية ناقصةً رغم روعة ما فيها!

ما زلتُ أذكر ذلك اليوم جيدًا حين قمتُ مذعورةً على رنة جوالي تتواصل وتتابع دون انقطاع، أجبتُ على الهاتف دون أن أتبين اسم المتصل فما زالتْ عيناي ثقيلتان أفتحهُما بصعوبة، أيقظني صوت دلال الذي جاءني يغلي غضبًا، وكلماتها تنضح تهديدًا ووعيدًا بما سوف تفعله في زوجها الذي بات أبلهًا، لقد جاء اليوم الذي يستطيع فيه إنسان أن يقف في وجه عزيز المتجبر ويرد له الكلمة كلمتين والصاع صاعين، بل ويتوعده أيضًا ثم إنها دلال أنثاه الفاتنة ذات الدلال الفتاك، لطالما كان يدخل بيته متشوقًا ويُسارع باختطافها من مجلسها أينما كانت فتُطلق ضحكتها الرنانة، يحملها ويتجه مسرعًا إلى غرفتهما الخاصة وتُقفل الأبواب وتنطلق الآهات والهمسات التي أفلح أحيانًا في فك شفرتها، فتزوروني على الفور صورة أمي وهي تبكي بحرقة حين يقذفها بكلماته النابية وينظر صوبها بازدراءٍ فتسارع إلى وسادتها وتدفن وجهها فيها.

بعد كثير من الكلام المرسل المحموم بغضب وحنق تنهدت دلال بعمق:

- يحكمني شعور بالقرف والغثيان من كل ما يجمعني به، أتقلب على جنبيَّ طوال الليل إذا ما استقر جسده بجواري، ولن يُجدي استمراري معه، لقد طلبت الطلاق فألجمهُ طلبي وكأنه لم يتوقعه، أحسستُ بالضيق يجثم فوق صدري حين أكد لي أنه يحبني وسيتركني أهدأ لبعض الوقت، لقد اضطر للسفر في مأمورية عمل مؤكدًا أنه سيغيب عدة أيام وحين يعود سأكرر طلبي وأصر عليه، فما رأيكِ يا عاليا؟

ترددتُ برهة ثم سألتها:

- هل للرجل الآخر علاقة بطلبك؟

- إطلاقًا، لا رجل ثانٍ ولا ثالث، فقد سأمتُ الرجال كلهم، نجح أبوكِ في زرع كراهيتهم في وتين قلبي، لقد احتدمتْ المشاكل بيننا إلى نار مشتعلة يتعذر عليَّ احتمالها، يلاحقني بأسئلة تفوح منها رائحة الشك، نظراته نحوي تُخيفني، يريد أن تستقر مصوغاتي الذهبية معه، يتخيل أن بإمكانه تجريدي من ممتلكاتي ببساطة، لأركع له ذليلةً وأكتفي بالستر في بيته، كرهتُ الأمر وحقًّا أريد أن أهنأ بسنواتي القادمة وأعيشها في هدوء وبلا ضجر ومشاحنات، اشتريتُ شقةً صغيرة في أحد شوارع الحسين الجانبية لا يعلم عزيز عنها شيئًا، سأفتتح مشغلًا لتطريز العباءات

وستصير الشقة ورشتي وبيتي في آن واحد، أريد أن أعيش يا عاليا فاستمتاعي بالحياة يربطني بها ولا استمتاع أجده في بيت والدكِ.

- إذن فلتتمسكي بما تريدين وتصرين عليه، لكن حذاري من هجمات عزيز الهمجية، انتبهي لنفسكِ جيدًا وسأنتظر حصولكِ على الطلاق وسنحتفل به معًا على طريقتكِ الصاخبة وكما تريدين.

لم تُخطئ دلال في قرارها ولم ألومها عليه، فالحياة لا تحتمل عزيز ودلال، وجودهما معًا، إما هي وإما هو، إما المظلوم وإما الظالم، إما المقهور وإما القاهر، فالحياة لا تحتمل استمرار هذا القدر من الجبروت ولا تحتمل وجود هذا القدر من الظلم، أرى استمرارهما معًا خللًا قد يُودي بحياة أحدهما أو كليهما معًا وهذا ما أخشاه.

تبدأ الشمس من جديد بشروقٍ يُشعرني بالخجل من نفسي، خجلٌ يغمرني كوني لم أحقق حتى الآن ما يمكنني أن أنجزه أو ما يُحسب لي نجاحًا شخصيًّا ذاتي التكاثر، حتى نفقاتي الشهرية يصبها ثلاثة شرايين ممتدة داخل جيبي، فعلى الرغم من زواجه والمسئولية الثقيلة الملقاة على عاتقه كرب أسرة ما زال عدنان

obeikan.com

يُصر على مبلغًا يرسله لي شهريًّا ودونما انقطاع رغم توسلاتي له بالاحتفاظ به، وتأكيدي المتواصل على اكتفائي بما يقدمه لي عليٌ من مصروف قرره لي بمجرد تحصله على راتب ومنذ أول شهر، لم يقتنع شقيقاي العزيزان بإمكانية اعتمادي على مبلغ الفائدة الذي اتحصل عليه من دفتر توفير خصني به جدي العزيز قبل وفاته بشهور قليلة، لم يعرف والدي بالأمر والحمد لله وإلا كنتُ قد حُرمتُ من هدية جدي الرحيم وبُتِرت عني نفحتها الشهرية.

تمر الأيام ولا أراني أجلس خلف مكتب في مقر عملي، ولا أرافق فوجًا سياحيًّا الى إحدى المزارات، ربما يركض إلى جانبي أملٌ لا أرغبه أن يكون زائفًا، أريد أن أكون أنا عاليا، كاتبة وقاصَّة، بل عساي أطمح إلى الأكثر، أن أكون أديبةً، فالفرق شاسع بين الكتابة والأدب لكنه يستحق، فأمسك دفتري وأواصل كتابة رواياتي ولاغاية لي سوى أن أكتب وأكتب فقط.

تطالعني في الفترة الأخيرة عبارة قرأتها من قبل لإريك فروم يقول فيها: (إن الحب يربط بصورةٍ ودية شخصًا بآخر، وفي الوقت نفسه يصون استقلاله وكماله)، وها أنا قد حققت استقلالًا عن عزيز الطوبجي لكني لم أحقق كمالًا بعد!

ففي بيت عزيز لم أكن حيةً ولم أكن ميتةً أيضًا، كنت عاجزةً، مبتورةً، مصعوقةً، لا أكثر من فتاةٍ مرتعبةٍ تهرب دومًا لغرفتها الشبه

مظلمة معظم الوقت، أنتظر شعاع الفجر ليتسلل إليها فأُخرج دفتري وأوراقي من تحت مرتبة سريري حيث أخفيها، فلا تطولها يدا السَّجان فيسحقني سحقًا، أُخرجها وأشرع أسجل ما يدور في خاطري، وعلى الجدار المقابل لنظري تسقط صور متلاحقة لقصصي وروراياتي، شريط باهت من الأحلام يجري وراء غيوم واقع مرير حيث يُمكن أن يكون الوقت فجرًا أو غروبًا.

كانت تلك الصور على الجدار أكثر جمالًا وازدهارًا من حقيقة كنت أعيشها، أحببتُ أبطال قصصي وقمتُ على رعايتهم والاعتناء بهم على خير وجه، بل أني كنتُ كثيرًا ما أُحادثهم و يحادثونني ونسهر سويًّا في انتظار صبحٍ جديد بعضه لي و بعضه لهم!

أذكر كلمات زياد جيدًا عن تلك القصص، تأتيني كلماته قويةً وحارةً، كان يحدثني دومًا عن أفكارٍ جديدة وبدايات قوية مثيرة لقصصي وحكاياتي، يُشعرني دومًا أنني قلمًا عبقريًّا سيظل ينطلق ويُبدع ولن يقف في وجهي شيء.

دونه أنا الآن بلا دفء، بلا دليل، قلم قُصف سِنه، وأخشى أن أذهب بلا أفكار!

فزياد ذاك الذي كنتُ أمتزج به حتى لو لم يقل شيئًا، فلحظات صمتنا كانت رائعةً، فيها نتحاور دون حروف، نتفاهم دون كلمات، ونتناغم دون جُمل.

ومنذ أن افترقنا والشجار قائم في ذاتي، فقدتُ الانسجام في داخلي، انفصلتْ حروفي عن أحبالي الصوتية، ارتعبَ قلمي ويكاد يوشك أن يفارق دفتري مهاجرًا.

التقطتُ جوالي وبثثتُ خوفي وهواجسي إلى زياد، أُشركه أمري وأشُد به عضدي، تمددتُ على فراشي، لا يعنيني سوى انتظار كلماتٍ غالية تأتيني عبر أمواج من الإشارات الإلكترونية، وما هي إلا ساعة من نهار وطالعتني أجمل حروف.

" أريدكِ أن تكوني ذاتكِ، عاليـــا التي تسكن حروفها عقلي، أطلقي قلمكِ ولتصل حروفكِ عنان السماء، غاليتي".

كانت الاستطاعة لزياد وحده، هو من يملكُ تحريري من قيودي وهاهو قد فعل ومن جديد لامس قلمي أوراقي وشرعتُ أنظم كتاباتي وأسطر روايتي الأولى " حين تبكي الطيور" وأدعو الله تعالى ألا تكون الأخيرة.

رفضتْ دلال التسليم بما تكره، ولم تجد نفسها قادرةً على إقناع عقلها المتمرد بالاستمرار مع عزيز خاصةً في وجود كل الشواهد والوقائع التي تؤكد أنه بات رجلًا فقد عقله حين فقد رجولته!

obeikan.com

في البداية لم يتجاوز الأمر كونه مشاحناتٍ عرضية، رغم تأكيدات دلال له بأن العلاج سيُثمر وأنه لا داعي للتردد على العطارين والشيوخ فالأمر طبي بحت، عناد أصابه ومكابرة غلبته أرهقتْ دلال وجعلتها تتجهم في وجهه لعدة أيام حتى ينجح في استرضائها بعد عناء ترافقه تأكيداته على زيارة الطبيب المُختص، تطورالأمر إلى مصادماتٍ عنيفةٍ طالت معها فترات الهجر والجدال، ومع استعار حدة عزيز وازدياد ثوراته الغاضبة التي يُفرغها في جسد دلال المسكينة كلما استسلم لغيرته الشديدة عليها، فتسارع هي بالاختباء في غرفتها وتوصدها عليها بالمفتاح من الداخل تعالت مطالبتها بالطلاق، ووجد عزيز نفسه شريدًا دونها ولا يجد في النهاية من يستطيع التأثير عليها وإقناعها بالتخلي عن مطلبها إنقاذًا للبيت من الانهيار، يحادثها كثيرًا حين يهدأ لكنها لا تستجيب ولم تعد دائمة الحيوية والابتهاج والمرح كما عرفها، حلَّت الكآبة على روح الجميلة دلال والتي فقدتْ الرغبة في الأشياء، وكلما زار الليل السماء تُسارع لتتناول أقراصها المنومة لتهرب إلى النوم غاضبةً مكتئبةً حانقةً تلعن رعونتها التي دفعتها للزواج من ابن الطوبجي، ذاك الثائر الغاضب دومًا.

زار أبي طبيبًا شهيرًا ذائعَ الصيت في أمراض الذكورة

والضعف الجنسي أملًا لاعتدال مزاجها وطلبًا لسلامٍ معها، وحرصًا على الاحتفاظ بأُنثاه الجامحة التي رأى العناد قد ركبها حتى في الليلة الخاصة بذكرى زواجهما الرابعة لم تقابله بعد عودته من المقهى بحيويتها المعهودة، رغم تأكيدات طبيبه له أن العلاج سيؤتي ثماره عن قريب فنتائج التحليل مُبشرة، قابلته بجفاءٍ حين دخل البيت، كانت تقف في المطبخ ولم تجد نفسها مضطرةً إلى الإسراع نحوه رغم تهليلاته التي صاحبت ولُوجَه إلى البيت:

- دلال، تعالي سيسعدكِ ما سأقول، بشارة أحملها لكِ من الطبيب.

لكنها لم تكترث، ظلت في مكانها في المطبخ، ضايقهُ عدم اكتراثها لقوله، لم يُحْدِثْ حديثه في قلبها شغفًا ولا تطلعًا إلى معرفة الجديد الذي يحمله في صدره، لم يحرك قدومه فيها ساكنًا، تمد يدها إلى رف الخضر تأخذ من فوقه بصلتين وتنهمك في تقشيرهما وتخريطهما بسكين كبير حاد تُفضِله، تنثر حولها على طاولة المطبخ جزر وطماطم وبطاطس، الكل ينتظر التقطيع، رمقته بنظرة فاحصة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ثم دندنت في استنكار وهي تُمصمص شفتيها:

- " وعايزنا نرجع زي زمان، قول للزمان ارجع يا زمان "،

تبعتها ضحكتها الساخرة، أصابه منها غيظ شديد أعطاه قوة دافعة ليصفعها بعنف، اشتعل آتون غضبه وأمسك برأسها وشرع يضربها بالحائط، حركتها إرادتها في الدفاع عن نفسها دفعته بعيدًا عنها لتهرب من قبضته القوية، دفعتْ كرسي المطبخ بينهما لتعطيله فيتسنى لها الهرب، لكنه لحق بها وأسقطها أرضًا وجثى بركبتيه فوقها يخنقها، ركلته بقوتها في محاشمه، اعتراه ألم شنيع أبعده عنها، فلتت من تحته وأعتدلت واقفة، اقترب من طاولة المطبخ وفاجأها بسكين حاد يصوبه تجاهها وهو مُمسكًا بطرف ثوبها يجرها نحوه، لم تجد أمامها إلا تسديد طعنة مباشرة، كانت طعنتها نافذة، أردته قتيلًا، جثت على ركبتيها تبكي بجواره، لم تقصد أبدًا قتله فقط كانت تريد أن تنجو بنفسها من قبضته وتهرب بعيدًا عن سكينٍ شهَره في وجهها، قتلتهُ وقامتْ بالإبلاغ عن نفسها مما آثار دهشة واستغراب الشرطة، لأنها لم تحاول الهرب، بل قامت بتسليم نفسها للعدالة، حين حضرت الشرطة استجابةً لبلاغها كانت دلال ترقد أرضًا وقد تكور جسدها في زاوية المطبخ تمامًا، نفس جلستها بعدما اخترقتْ طعنتها جسد عزيز، حينها امتدت يدها تتحسس هاتفها المحمول وضغطتْ شاشته للاتصال بهم:

- لقد قتلتُ زوجي الآن.

وجدوها جامدةً مسمَّرةً في جلستها أمام جثته، تتفحص يدها الملوثة بدماء عزيز الخبيثة وتشير إلى أن أظفارها قد اتسختْ بدمائه اللعينة، وعلى وجهها تعبير السذاجة الطاهرة الذي جعل من حولها يعاملها برفق يميل إلى اللين رغم فداحة الموقف، لكن ضعفها وهذيانها استطاعا أن يوقظا في ضابط الشرطة نبض الرحمة وحين عُرضتْ دلال على النيابة لم تتحدث كثيرًا رغم محاولات وكيل النيابة لمحاورتها واستفزاز نفسيتها، كانت عباراتها مختصرة مقتضبة تُكررها كإجابة على كل سؤال يوجه إليها:

- أقسم بالله أني لم أقصد قتله، كانت يداه تضغط بقوة وشراسة على رقبتي وكنتُ أختنق، كان عزيز يقتلني فقتلته.

انهارتْ حين اصطحبتها النيابة إلى مسرح الجريمة لتُمثلها، فقدتْ وعيها واهتاجتْ معدتها جدًّا وتقيأتْ أكثر من مرة، طالبت النيابة بعرضها على الطب الشرعي الذي جاء تقريره الكامل الوافي في صفها تمامًا، فقد ثبت بالفحص والمعاينة المقترن بالكشف الطبي المُوقَع على الجانية وجود عديد من السجحات والكدمات في أنحاء متفرقة من جسدها، مع وجود شج في جبهتها نتيجة الارتطام بالحائط مقترنًا بإصابات رضية نتيجة ضربها

obeikan.com

بحزام جلد، كما أكد التقرير أن عزيز قد طُعن بسكين مطبخ وكانت الضربة من مسافة قريبة ومُباشرة وباليد اليسرى.

تأكدتْ النيابة واطمأن قلبها وتحقق يقينها أن دلال قد قتلت عزيز في حالة دفاع شرعي عن النفس، فلقد سددتْ دلال طعنتها بيدها اليسرى وهي ليست بالعسراء ويتعذر عليها استخدام يُسراها إلا اذا كانت قد اجتهدتْ لتتخلص من قبضتيَّ عزيز اللتين تُطبقان على رقبتها حين وقفت تستند الى طاولة المطبخ تستجمع قواها، فسحبها نحوه وأسقطها ثانيةً وقبض على رقبتها بكلتا يديه، وكردة فعل طبيعية تحسستْ بيدها ما يُساعدها للخلاص من يديه فكانت السكين الحادة إلى يسارها فالتقطتها وطعنته دون عمد أو سبق إصرار وترصد.

سلسلة من ردود الفعل المتفاوتة حركها مقتل والدي على يد دلال، لم أعرف بالقصة كلها سوى من موقع جريدة اليوم السابع الإلكتروني، حيث يُدمن شقيقي عليّ الاطلاع عليه نهارًا قبل انصرافه إلى العمل وليلًا قبل النوم، ألقى عليٌ هاتفه بين يديَّ في نهار اليوم العشرين من شهر أكتوبر قائلًا:

- ها هي الست دلال حبيبته، ليستْ أكثر من امرأة متوحشة

obeikan.com

مبتذلة أجهزتْ عليه وأردته قتيلًا، ألم تكن هي نفسها المرأة التي طردني من بيته من أجل عيونها وعيون شعرها الأحمر الناري الفواح المُعطر بالعود والمِسك، لم أتوقع له غير تلك النهاية، كلاهما يستحق ذلك عن جدارة، الجاني والمجني عليه، ولا تجوز عليهما الرحمة.

هززتُ رأسي باستنكار، أردتُ أن أُخرس عليًّا فلا يمكنني سماع المزيد، أخذتني شفقة على والدي عمَّقتْ شعوري بسخافة ما يقوله شقيقي، أُقدر مشاعره لكن الموقف أكبر من قدرتي على الاستيعاب، وعبثًا قلت:

- لكني لم أكن أريد له هذه الميتة، ومن سوء حظ دلال أن تكون هي من يدفع وحده ثمن إنهاء جبروت عزيز الطوبجي الذي تجرعناه جميعًا، ليس من طبعها العنف ولا تميل إليه، دلال منطلقة تحب الحياة وتكره النكد، ليتها تركتْ له المنزل إلى حيث لا يمكنه أن يدركها، فدلال امرأة أراها مسكينة ألتهمها عنف والدي بنَهمٍ فلم تلبث إلا وانفجر فيه لغم كرامتها.

هرعتُ إلى قلعة قايتباي، وصلتُ هناك وقد انحسرت الشمس تاركةً السماء رمادية توشك على السواد، يقيني أن كل شيء يسير إلى الموت حتمًا، تذكرتُ كل عنف وقسوة والدي في

مشاهد تتابعتْ على ذاكرتي دون تهاون أو انقطاع، فتتعالى أنفاسي مذعورةً وأرتعش كلما تذكرتُ تلك الأوقات حين كان شيطان عزيز الطوبجي يتلبس به، فيطول أجسامنا الصغيرة حزامه أو خرطوم الحمام وينهال علينا بجبروتٍ يُسكن الألم في أوصالنا والحزن والمرارة والانكسار في قلوبنا، مشكلتي الحقيقية الآن تكمن في حواري مع نفسي، أعلم أني لا أحب أبي ولم أكن أحبه في يوم من الأيام ولم تكن تلك جريرتي ولا ذنب اقترفه قلبي، فماذا ينتظر من يقسو على طيوره الصغيرة سوى أن تشرد هربًا لتحلق بعيدًا عن سمائه، وما دمتُ لا يحمل قلبي له حبًّا فلماذا يعتريني الحزن الآن على نهايته الدرامية وأنا التي تؤمن أن الشر لا يُجدي معه إلا الشر مثلما لا يفل الحديد إلا الحديد؟! وإذا كنتُ أكرهه حقًّا، فلِما أشعر بالشفقة عليه؟ هل تنقلب عواطف الإنسان لأي سبب فترافق الشفقة الكره أو العكس؟ هل يُمكن للحزن أن يُضفي علينا لمحةً من تعاطف مع من عذبونا يومًا حين تُصيبهم نوائبُ الدهر فيصيرون ضحايا؟!

دلال أيضًا تشغل تفكيري و تسكن رأسي، تلك المرأة الناضجة الأنوثة، الفاتنة في فيض، الراغبة في الحياة المُقبلة عليها باستمتاع هل تملَّكها اليأس إلى الحد الذي جعل القتل ملاذها

الوحيد؟ دافعتْ دلال عن نفسها وأرادتْ أن تحافظ على ذاتها حية فقتلتْ عزيز، وقتلتْ معه نفسه الشريرة وروحه الملتوية، لكنها ستسدد الفاتورة على حلقاتٍ وبالتقسيط، حلقة ندم وحلقة يأس وحلقة عجز، نعم، كان عزيز إساءةً للحياة والأحياء، لقد أماتها مرة حين تزوجها، ومرة حين أهانها، ومرة حين سكب فوقها جمرات شكه في سلوكها، وأراد فعليًّا قتلها والتخلص منها، هاجمها وكاد يخنق أنفاسها وهي لا تريد أن تموت، تريد أن تعيش، ولن تعيش إلا إذا قتلته، ففعلت!

القصاص، لا أريد أن أتشفى فيها فلا أملك نحوها كرهًا، على العكس أراها مسكينةً، أتفهم دوافعها وتُقنعني مُبرراتها لكني حزينة وربما مُغتاظة، يالغرابة مشاعري نحوها! رحل عزيز بكل سطوته ولم يبقَ منه إلا ذكرى لا تُحمد، ربما تُعاقب دلال على جريمتها رغم أن روحها كانت تحمل نقاءً لم يتوافق مع ما تعج به روح أبي من تلوث.

أما عدنان فقد تلقى الخبر بكثير من اللامبالاة الأقرب إلى الجمود، تجمدتْ مشاعره نحو أبيه ولا يلومه أحد وعلى الرغم من عدم الاكتراث الذي بدا واضحًا في صوته حين هاتفته إلا أنه حصل على إجازة ثمانية وأربعين ساعة، عاد فيها إلى القاهرة

وأوكل محاميًّا ماهرًا مشهود له بالكفاءة في الجنايات وجرائم القتل ليحضر تحقيقات النيابة مع دلال، وفي وسط حارة الصنادقية أقام سُرادقًا كبيرًا قدر استطاعته لاستقبال العزاء في والدنا الذي لطالما استيقظ سكان الحارة على ألفاظه النابية وكلماته القاسية الجارحة التي يسددها كطعنات غائرة في عمق كرامة زوجته وأبنائه، ويالعجب ها هم الأبناء الذين أذلتهم كلماته وأركعتهم أمامه مرارًا يقفون صفًّا، كتف في كتف لتلقي العزاء في من أحرق قلوبهم من قبل، لكنهم رجال، رجال كالجبال لا تهزمهم الأعاصير بل تتكسر على جنباتهم وتتشتت مرتدةً بالخيبة، عدنان وعلي رجالي الذين لا تهزمهم المحن بل تشد من أزرهم وتزيدهم قوةً وصلابة.

تلك الليلة لم أنم، كانت حنين إلى جواري في الفراش، لكنني ظللت صامتةً قابعةً في أحضانها، رفعتُ عيناي إلى وجهها والتقتْ نظراتنا، في عيوننا بركة حزن وغربة مشتركة وكأننا توأمتين، لم أقل شيئًا وهي كذلك، لكن صرخات مدوية تأتي من الأعماق كانت تسكننا ويتعالى الضجيج داخلنا، ففي بعض اللحظات يكون الصمت أبلغ من أي كلام!

مرَّ أكثر من أسبوعين منذ مقتل أبي ولم أكتب حرفًا في روايتي رغم حاجتي الشديدة للكتابة حينها، لديَّ ما أحب أن أقوله، ربما أردتُ إعادة تشكيل العالم أو إثبات وجودي على هذه الكرة الأرضية الدوارة بلا توقف.

أرسلتُ رسالةً إلى زياد... لماذا أكتب؟ ماذا أريد؟ فكلما قرأتُ ما كتبته سابقًا كأجزاء من روايتي كلما تعمق إحساسي بغباء ما أقول وبعبث ما أكتب، فكلما ازدادتْ رغبتنا في الصدق كلما رفضنا أن نبوح أو نكتب، فالصمتُ أبلغ وأشرف وأطهر.

فإذا به يُجيبُني برسالة نصية لم يطُل انتظاري إياها:

- لا يُسعدني أن أجد جمرات الحماسة قد انطفأتْ في قلبك، فالفكرة نفسها ما زالت تسكن أعماقكِ والصدق الوحيد الذي يبقى هو إخلاصك لما تؤمنين به، ازدادُ إيمانًا بكِ يا عاليا يومًا بعد يوم، تزداد قناعاتي بأن للحب قوة وأن الحب سيدٌ وإلهٌ، أريني ذلك ودعيه يبرق على الورق ويُخلَدُ مطبوعًا غاليتي، فكلماتكِ ورسائلكِ تجعلني أشعر بأنني قريب منكِ، ووجهي مُلتصق بوجهكِ ونحن نقف في ليلة مقمرة وقد تشابكتْ أيدينا فوق هضبة المقطم نوقد شمعةً يتراقص لهيبها على أنغامٍ تصدر من قلبينا احتفالًا بعيد الحب، ستذبل الشمعة وتنطفئ، ستشتد ريح الشتاء،

سينصرف العالم بعيدًا ولن يبقى سوانا مع الليل والنجوم يضم كلٌّ منا الآخر في عمق فنُدركُ سر الوجود، أحبكِ.

- زياد، أنت قدري الجميل، ورغم البعد فإني أحملكَ بداخلي وأتلمسكَ بقلبي وأُردِدكَ أمنياتٍ أبدية أطلبها في صلواتي، فلا مسافات تفصلنا ما دام كلٌّ منا يحمل الآخر في قلبه.

- فلتكتبي روايتنا إذن ولتُحافظي عليها وعدًا بيننا إلى أن تُشرق شمس لقائنا من جديد.

وهكذا عاودتُ الكتابة في روايتي من جديد، وكنتُ كلما خبتْ حماستي أهرع إلى زياد أراسله ويراسلني فتصطخب الآمال في جوفي من جديد، وتشحذ كلماته لهيب حماسي، وأُقبل على أوراقي فتجري عليها حروفي تُعانقها في لهفة، تمر بي الأسابيع وأنا أكتب وأكتب فتغمرني النشوة إلى أن انتهيتُ من كتابة ما ابتغيت، وناولتُ أمي صفاء أوراقي وطلبتُ منها أن تُبدي رأيها فيها صراحةً ولا تعبأ بخاطري وأقسمتُ عليها ألا تُجاملني، انصرفتْ صافي إلى غرفتها تمسك أوراقي، طالعتها وأقبلتْ على قراءتها بحماسة وكلما دخلتُ عليها صومعتها أرى علامات التأثر باديةً على وجهها، ثم أقسمتْ أني لو أرسلتُها إلى الناشر فلن يتردد في إصدارها وكذلك فعلتُ مع حنين، وكررتُ الأمر

ومرَّرتُ قصتي إلى زهرة وعدنان وعليّ والرائع العبقري عم ربيع سيد العشق وسفير الغرام، شهد الجميع لقلمي وامتدحوا كتابتي وهتفتْ حنين قائلةً:

- ها قد انفتحتْ عقدة قلمكِ وسيأتيكِ النجاح يهرول، وسترين.

مرَّت بضعة أيام والقلق يعتصرني، أترقبُ أمر قضية دلال ومصيرها، كنت أقرأ إحدى الروايات المترجمة هربًا من شرودي فإذا بحنين تندفع إلى حجرتي وقد أمسكتْ بهاتفها وقذفتْ به اليَّ صائحة:

- مبروك عاليا، ألم أقل لكِ إنها لا بد ستُنشر.

حملقتُ في شاشة الهاتف فوجدتُ اسمي قد نقش بالخط الثقيل الغامق على منشور للجروب الأدبي المُشرف على المسابقة للإعلان عن الأعمال الثلاثة الفائزة والتي تستحق النشر، وها هي الدار تُطالبني بضرورة التواصل معها لاستكمال التعاقد.

ولا أظنني أستطيع أبدًا أن أصف فرحتي، فقد امتلأتْ نفسي بالفرحة كطفلة صغيرة قابلتْ نجمها المفضل على حين بغتة، هكذا هي الدنيا، لا يفصل بين سعادة الإنسان وشقائه إلا حادثة بسيطة قد تحدث وقد لا تحدث، فيظل الأمل معلقًا دومًا بين نور وظلام.

شعرتُ بالامتنان الشديد لحنين، فلها يعود الفضل إلى ما وصلتُ إليه فلولا تشجيعها لي على تقديم ما أكتب ليرى النور لكانتْ أوراقي لا تزال قابعةً في دفتري إلى يوم القيامة.

ها هي الفرحة تأتيني ويجلسُ كأس السعادة فوق منضدتي الآن، إشعاعات السرور تشع حولي وأراها براقةً في عيون خالتي صفاء وحنين وعليّ وعم ربيع، حتى يوسف الصغير الذي جاءني مُهنئًا محمولًا بين يدي حبيبتي، نقية القلب زهرة عدنان ومضغة قلبه، يرتعش صوتي حين أرد قائلةً:

- الله يبارك فيكم جميعًا أحبائي.

بينما أجيب على رسالة زياد الذي يستفهم فيها عن أخبار المسابقة، فتأتيه إجابتي:

- لقد فُزتُ بكَ حبيبي.

فيكافأني بصورة حديثة له يرسلها على نفس التطبيق، ظللتُ أتأمله مفتونةً بشغفي له، نشوى سرتْ في أعماقي وكأنني أكتشفه من جديد، طالبني بصورة حديثة لي فقد قتله الشوق ليراني فأرتمي شبه حالمة جوار نافذتي والقمر يستند إلى جانبي ألتقط صورة لي وأرسلها مرفقة بعبارتي: ما زلتَ في أعماقي.

فتأتيني حروفه ذائبة في صوته يُطربني حينها رنين مراسلته الصوتية: أشتهي عناقًا أنسى به كل شيء.

فأجيبُ من أعماقي: أنتَ قيسي وأنا في العشق ليلاكَ.

ثـم نـستكمل حـديثنا عـبر الرسـائل النـصية حتـى لا ينتبـه الحُراس على صوت زياد وقد ضرب الليل بستاره الأسود على زنزانته، ولولا علاقة قوية متينة تربط معتصم بحارس المناوبة الليلية في تلك الأمسية لما تمكنتُ من سماع صوت زياد، فقد تزوج الحارس من ابنة عم معتصم، "شمس العزوزي" مغربية حسناء ذات طراز فريد، سلبتْ الرجل عقله وتغلغلتْ إلى فؤاده، فباتَ لا يرفض لها طلبًا ولا يرد لها مقصدًا، شكرًا شمس وياليتَ شمسكِ بزغتْ في سماء الرجل منذ زمن بعيد.

ولكنها نفحات من رحمة الله تُدرك قلوب العاشقين فتُنبِتُ أزهارًا.

حضرتُ إلى قاهرة المعز من جديد متجهةً إلى توقيع عقد روايتي الأولى، دار النشر في وسط البلد وبالتحديد في شارع قصر النيـل، يبتلعنـي الـشارع المـزدحم وتـسحقني دوامـة المدينـة اللامبالية، تُكبلني الوحدة في كياني رغم مرافقة عليّ لي، تتجول الرهبة داخلي تكاد تشوه فرحتي بالحدث، يلكزني عليّ في مرفقي منبهًا فقد تسربتْ الدموع من عيني، ربما أفسدتْ مظهري فأتداركُ الأمر وأرددُ في داخلي:

- يجب أن أتماسكَ وليعلو الكبرياء ملامحي.

هاهو مقر الناشر، لقد كان الرجل في استقبالي وكم سررتُ حقًّا من بساطته وتلقائية حديثه، أثنى الرجل على كتاباتي وأسلوبي الملتهب بالحزن والشغف معًا، كان يُعيد على مسامعنا بنود العقد وشروطه ليتسنى لنا مناقشته إن أردنا، كانت لحظة خالدة ذاتية جدًّا، وياليتَ زياد كان معي حين وقَّعتُ على العقد باسمي بينما كل جارحة من جوارحي كانت هناك حيث زيادي، كنت أتشوق إلى كتابة اسمي مرافقًا لاسمه، ليتصدر زياد غلاف روايتي الأولى، فشددتُ على الناشر أن يحمل الغلاف اسمي واضحًا و ليكُن "عاليا زياد العلايلي"، فأنا أنتمي لرجلٍ أعانني على صُنع نفسي لا رجلٍ قهرني و حرمني ذاتي لسنواتٍ طويلة.

وقررتُ من هذه اللحظة بالذات أني لن أهرب، لن أهرب من عالمي وخوفي وهواجسي وأرتحل بعيدًا وأتكور حول ذاتي، لن أهرب ولن أخجل بعد اليوم من ماضٍ كنت فيه عصفورةٌ جريحةٌ مطارَدة ومطرودة من عشٍّ حسبته مرفأي، وسأقول للجميع إني كنت قطةً شاردةً مسكينةً تموت جوعًا إلى حنان أبيها وعمق حضنه وعميق أبوته، سأخبر العالم في قصصي وحكاياتي أن ثمة شيء يجوع إليه الجميع، شيء يُكسِب الدنيا لونها الإنساني

ويُزينها بجمالها الرباني، إنه الحب بجميع صوره وألوانه، فجميعنا يبحث ويصول ويجول هنا وهناك عنه وعن دروبه ومسالكه.

بعد ٦ شهور..

أراني أسير في خطٍّ مستقيم شاردةَ العقل، ترتجف أوصالي، يرتعد قلبي داخل صدري، وكالطفلة الصغيرة تعلقتُ بيد شقيقي عدنان جنبًا إلى جنب نسير وببطءٍ شديد وكأنني أتأمل خطواتي، أحس بأني أختبئ في صدره وبأنه يحميني وأنا أحتمي به، فيبدو وكأنه يشدني ثم وبنظرة من عينيه الواثقتين أفهم ما يعنيه فأرتب هندامي وأعيد قراءة الفاتحة وأرددها بصوت خافت، فيلتفتْ نحوي عدنان قائلًا:

- مسافة خطوات قصيرة تفصلكِ عن حلم لطالما راودكِ عاليا، ها أنتِ تنضمين وبشكل رسمي إلى قائمة كُتاب مصر.

وقفتُ في اندهاش أمام جناح ٢ حيث استقر ناشر روايتي في معرض الكتاب، إلى عدنان ألتفتُ وكأني أسأله أن يخرج بي من هنا وقبل أن تخرج عبارتي يأتيني عليّ مهرولًا، يُمسك بيدي إلى داخل جناحنا ويضع نسخًا من روايتي بين يديّ مُنتشيًا بنجاحي، فيرمقنا الناشر بنظرة حانقة، لقد أطلنا الوقوف ويتوجب أن أنضم

إلى المنضدة التي يجلس عليها الرجل فتُسارع حنين بسحبي إلى هناك، ثم تُسرع إلى مقعدها بجوار زهرة التي تحمل الصغير يوسف على كتفها نائمًا هادئًا على غير عادته، تبتسم نحوي وتُطمأنني بعينيها الآمنتين دومًا، وتبدأ مراسم حفل توقيع (حين تبكي الطيور) بشكل رسمي.

أدهشني أنني استطعتُ أن أتحدث وأناقش وأبتسم وأوقع نسخًا للقرّاء، بل وأضحك معهم وكلهم حرص على التقاط صورٍ تذكارية تجمعهم بي، وهكذا أصبحتُ كاتبةً معروفةً يُطلب توقيعي وأُسأل عن قادم أعمالي، وفي داخلي شوقٌ ضخم إلى زياد، وحزنٌ عميق، لأنه لم يكن حاضرًا بذاته تلك المناسبة وإن كان حاضرًا باسمه الملاصق لاسمي على غلاف الرواية، فأبتسمُ!

انتهى الحفل فأسرعتُ بالعودة إلى الأسكندرية، أشعر بالغربة حين أفارقها، أهرول عائدةً إلى أحضان أمي صفاء وتبريكات عم ربيع، عالمي حيث أنتمي وحيث أريد أن أكون، فكل شيء دونهما نائيًا وشاحبًا كالذكرى الباهتة والقهوة الباردة.

استيقظتُ على تنبيه عن رسالة من زياد: "أعرف أنكِ نائمة الآن ولا أرغب في مضايقتكِ، مبروك غاليتي، وطلبي الوحيد منكِ هو أن لا تكفي عن الكتابة منذ الآن فهي همكِ وغايتكِ، لا تجعليها مهنتكِ بل لتكن جزء من حياتكِ بل من روتين يومك".

أجبته برسالة أخرى: أي شجاعة تلك التي ترى بها الحياة؟

: هي شجاعةٌ منحني إياها حبكِ، وعنفوانٌ أكسبني إياه صبركِ غاليتي على مصابنا وإيمانكِ بلقاءنا.

لم أفق من استغراقي في الرسائل بيني وبين زياد إلا على صوت أنين مكتوم لتأوهاتٍ متواصلة لحنين، استدركتُ أنها تنام على الأريكة أمامي وقد هاجمتها نوبة المغص الكلوي مجددًا، لطالما رجوتُها أن تتخلص من تلك الحصوات الصغيرة بالوسيلة التي يراها طبيبها مناسبة، ولا بأس من الاستسلام لعملية صغيرة ستُخلصها نهائيًّا من تلك الغارات المؤلمة المفاجئة، لكنها حنين، عنيدةٌ حتى النخاع، جبانةٌ حتى الثمالة، تكره الأطباء والأدوية والعمليات ولا تحيد عن كراهيتها لهم تحت أي ظرف!

و ببساطة وفي دقائق معدودة اقتحم عليّ غرفتي وأغمد بخفة وسرعة محقنه المُسكن في وريدها، وتستجيب حنين لهجمته الرشيقة دون مقاومة تُذكر ثم لا تلبث أن ترقد بعد عشر دقائق في سُبات عميق، فلا يمكن أن تصدق أنها نفس ذات الكائن الذي كان لا يتوقف عن التلوي ألمًا قبل لحظات مضتْ، فقدتْ حنين قدرتها على الحركة والمقاومة وسكنتْ تمامًا.

ثـم رأيـتُ عليًّـا يحملهـا بـين ذراعيـه كطفلـةٍ وديعـةٍ نائمـة وبشجاعة طالبني أن أعِد لها حقيبةً صغيرةً بها بعض الملابس والغيارات المناسبة لإقامتها في المستشفى، لقد رتب عليّ الأمر كله واتفق مع طبيبها على تخليصها نهائيًّا من تلك الآلام دون إرادتهـا، فـلا يمكنـه أن يـترك حبيبتـه فريـسة لعنادهـا وخوفهـا ومكابرتها، تلك الأمور بدتْ لي كمباراة حقيقية بين قوة حب عليّ لحنين وقوة عنادها الغاشم، أدركتُ أن الشجاعة ليست مجرد كلمة، بل رأيتُ لها معنى جديد حين رأيتُ عليًّا يحمل حنينه ويُسارع بها إلى غرفة العمليات رُغمًا عنها ولتُلقيهِ فيما بعد بما تريد، ولتغضب منه كما تريد، ولتثور كما تريد، سيكون الأمر بمثابة امتحان كبير لقدرة عليٍّ على احتمال غضبات حنين وهجماتها وموهبته الخاصة في امتصاص ثوراتها!

أحسنتَ يا عليّ، بينما يهرول الرجال بعيدًا حين تغضب نساءهم أراكَ أنت تقف ثابتًا بلا تململ ولا ضيق ولا حنق، لا يعرف نفاذ الصبر طريقه إليكَ، فارس لا تزجره نظرات استهجان ولا صرخات استنكار، تتحمل غضبها وعنادها وربما دلالها بلا جريرة، وزرك أنكَ تحبها إن كان الحب وزرًا، تثق أن النصر سيكون حليفكَ في معركة حب تقودها أنتَ في الخفاء والعلن ضد

تجربتها وألمها، ضد معاناتها واحتجاجاتها، ضد ثورةٍ هائجة تعتمل في قلبها، ضد كُفرها بما تؤمن به أنت، ضد الحب!

كم يتمنى عليٌّ لو تتفتح الأرض عن قوة يستطيع بها غرس حبه في قلبها، أو تتشقق السماء عن نور ينفذ به إلى عقلها، فتصير كل دقة في فؤاده ملازمةً لدقة في فؤادها، لكنه لا يملك سوى صبره الذي يُطيله قدر طاقته، فحبه لحنين سماويًّا لا يفارقه حتى في الأحلام!!

ولما كان الصباح وكل من في المستشفى يتحرك بآلية ويبدو السكون والسلام مظهرًا عامًّا، فتحتْ حنين عيناها في استسلام لإرهاق أيام سبقتْ العملية، فاقتربتُ منها أربتُ على كتفها وهمستُ:

- حمدًا لله على السلامة يا قمر.

فافترت شفتاها عن ابتسامة ذابلة تتساءل: أين أنا؟ لا أذكر شيئًا عن الأمس؟

وقبل أن أجيبها رن هاتفي المحمول فأجبته:

- نعم يا عليّ، لقد استيقظتْ حنين الآن وكأنكَ ترانا.

صاحت حنين غاضبةً حين أخبرتُها بما كان لكنها وجدتْ

obeikan.com

نفسها أفضل على كل حال، لقد خلَّصها مخطط عليّ من خوف وقلق وحيرة فيما يخص أمر الجراحة، وغيَّب عنها معالم الزمان والمكان فلا حاجة لها في التفكير والتدبير، على الأقل لم تعد مقيدةً بمواعيد الأدوية وأصناف الأطعمة الممنوعة، لقد أجهز عليٌّ على عنادها ويسَّر لها عسيرها فلا حاجة لها للمُسكن بعد الآن!

لكنها نسيتْ كل تلك المزايا وتجمَّع غضبها وحنقها حين دلف عليّ غرفتها حاملًا باقة من أزهار القرنفل، ربما حاول أن يقول من خلال تلك الأزهار أشياء كثيرة لا يستطيع قولها علنًا، وأخيرًا نطق:

- حمدًا لله على سلامتكِ، وحشتيني.

- والله؟ قالتها حنين مستخفةً والشرر يتطاير من عينيها.

- لِما كل هذا الغضب؟ تكادي تنفجري من الغيظ! لكنكِ حلوة في كل أحوالكِ.

- غيظ؟ أبدًا لا شيء، فقد أوكل أحدهم نفسه واصيًا عليَّ وسحبني إلى هنا كالنعجة ليشق الطبيب جنبي ويعبث في حصواتي.

انفجر عليّ ضاحكًا بينما حاولتُ مجتهدةً إخفاء ابتسامةٍ سرتْ على ملامح وجهي، اقترب عليّ من سريرها وأمسك يدها قائلًا:

- لستِ نعجة ولستُ وصيًّا عليكِ، فقط أسديتُ لكِ معروفًا وخلصتكِ من حصواتكِ اليابسة ولم تشكريني، ورغم أني رتبتُ كل شيء إلا أني نسيتُ أن أسأل الطبيب أن يُخلصنا من حصوات لسانكِ.

ارتجفتْ كل ذرة في كيان حنين واغتاظت أكثر، وكأنني شممتُ رائحة أعصابها المحترقة وقذفتْ باقة القرنفل في وجه عليّ، وفي هذه اللحظة تنبهتْ لوجودي بينهما فأرادت في محاولةٍ ساذجة استدراك الأمر، لكن عليّ التقط باقة الأزهار وقال في توكيد ظاهر:

- للقرنفل أسرارٌ لا تفهمها عنيدة مثلكِ، تأكدتُ الآن أنكِ أصبحتِ بخير. (قالها وهو يضحك ساخرًا).

قال عبارته النارية وانصرف وأحسستُ أن وجه حنين يلتهب وأنفاسها تفور وقالت:

- نعم، أنا عنيدة و ربما غبية أيضًا! ولكن هكذا أنا! فلا حاجة لكَ بي.

تتابعتْ الأيام وصحة حنين في تحسن مستمر، خطواتها أصبحت منتظمة وسريعة بعض الشيء، لم تعد تمشي واضعة يدها على موضع الجرح، قلَّت كثيرًا نوبات غضبها وحدتها، يبدو

أن للألم أشواك كانت تخزَّها خزًّا فوق احتمالها فهدأتْ وسكنتْ عواصفها نوعًا حين اقتُلِعتْ أشواك الألم، يأتي ذكر عليّ في أحاديثنا فيدب في كيانها النشاط والمرح وأشعر في روحها خفةً وانتعاشًا، لم يزرها عليّ طوال فترة إقامتها في المستشفى، قفزتْ فرحةً كالطفلة الصغيرة حين سمح الطبيب لها بالعودة للمنزل، اندفعتْ بخطوات مرحة قافزةً إلى بيتي تبحث عنه في شوق مكتوم ولهفة مكبوتة، حزنتْ جدًا حين أخبرتها خالتي صفاء أن عليًّا في القاهرة في مهمة عمل لأسبوع كامل بدأ بالأمس فقط، أحسستُ في تلك اللحظة أن حماسها فتر وأن شوقًا لعليٍّ كان فوق احتمالها، بدا عليها السكون والاستسلام والانقياد إلى واقع أحبطها فسارتْ إلى شقتها في صمت لا يخلو من اضطراب.

مرَّ الأسبوع ثقيلًا عليها ثم وجدتُها وقد جلجل صوتها بضحكة عذبة حين أخبرتُها بقدوم عليٍّ هذا الصباح، أسرعتْ إلى المرأة تهندم خصلات شعرها ونثرتْ قطرات من عطر فواح على عنقها وجلستْ قرب النافذة يحتضن كفها الرشيق فنجان قهوتها تنتظر ذاك الوسيم القوي، استقبلتْه مشرقةً متهللةً كأن شيئًا لم يكن بينهما في أخر لقاء، واستقبلها هو في ابتهاج حقيقي وقدم لها زجاجة من عطرها الفرنسي المفضل (يحفظ اسمه عن ظهر

قلب)، وباقةً جديدةً من القرنفل وابتسامةً صافيةً كصفاء البلور، ازداد إشراقها وتهللتْ أساريرها ولمعتْ عيناها في خجل، لاحظتُ يدها ترتجف وهي تتناول الأزهار، قبضتْ كفه على كفها وكأنه يحتضنها، انسحبتُ أنا وأمي صفاء من المشهد، تركنا عليّ وحنين يحلقان في جوٍّ طليقٍ خالٍ من التركيب والتعقيد والتحفظ، لعلهما ينطلقان معًا إلى لون من ألوان السعادة يناسب حاجتهما إليها، كانت حنين كالجسد الميت الذي لاينطق ولا يتحرك ولا حتى يتنفس حتى حضر عليّ وباركها قائلًا:

- حمد الله على السلامة، نورتي البيت، اشتقتُ لكل شيء منكِ حتى شتائمكِ كانت تنقصني!

قالت في توددٍ ورجاءٍ:

- أرجو ألا تدعني وحيدةً يا عليّ، فأنا أقاوم ماضٍ مظلم أريد أن أنتزع نفسي منه لكنه قد تسرب تحت جلدي إلى كل خلية في جسدي، ولا أخجل الآن من إخباركَ أني أستمد منكَ الثقة والقوة لأقطع صلتي بذاك الماضي، معركتي مع نفسي ضارية شرسة، أجاهد كل يوم لاسترداد رغبتي في الحياة وأعترف لكَ أنك الوحيد الذي أعوذ به من آلامي، ما أصعب أن تتغير على الإنسان نفسه، فلستُ أنا حنين تلك التي كانت منذ خمس

obeikan.com

سنوات، لستُ أنا هي، ومُعضلتي أنني لا أستطيع استعادت روحي القديمة ولا أستطيع تَقبُل نفسي الجديدة التي لا أعرفها!

- حنين، فيكِ كل ما يُثير نفسي ويُضاعف النبضات في قلبي ويرسم الخير أمام عيني، آلامكِ تحرقني، وأنا على استعداد لفقدان أي شيء إلا أنتِ، سأنتظركِ إلى أبد الدهر، فلا عليكِ قطتي الشرسة، لا عليكِ.

ثم اقترب عليّ من حنين أكثر وأكثر واحتضنها في حنانٍ بالغ حتى غاصتْ في أحضانه كاملةً بعذاباتها وتشعب آلامها، وهي تستنشق باقة القرنفل ثم أردفتْ في هدوء:

- ألن تخبرني بأسرار القرنفل؟ أم عليَّ أن أسأل عم ربيع الخبير؟

- ستعرفينها بنفسكِ فيما بعد، واثقٌ أنا في ذكائكِ جدًّا، فقط أريد الآن أن أقول أمرًا هامًّا.

- ماذا؟

- بالنيابة عن كل أمر أحزنكِ يا حنين.. أنا آسف.

قالها عليّ وقد توَّجها بقبلةٍ حانية على جبينها، ندتْ دموعٌ حارةٌ على وجنتيَّها، رأيتُها من خلف الستارة حيث برج المراقبة خاصتي، سمعتُها تهمس وهي تطرق بنظراتها:

- كم أنتَ حنون يا عليّ! وأنا لا أستحق ذلك.

وضع يده برفق على فمها قائلًا:

- هشش، تستحقينَ كل جميل حنيني.

حينها سكنتْ حنين هناك بين أحضانه لدقائق تعادل الدنيا كلها، فلمعتْ عيناها فرحًا وابتسم عليٌّ في حبورٍ حين بثتْ حنين له رضاها الكامل عن كلمته الأخيرة، فعلىّ غير العادة لم تؤنبه ولم توبخه أو تقذفه بما تصل إليه يداها!

واتصلتْ بي فجرًا وسألتني: هل أحبَّ عليٌّ من قبل؟ وما اسم أول حبيبة له؟

أجبتُها وأنا بالكاد أفتح عيناي وأقاوم جفوني الثقيلة التي تسقط رغمًا عني:

- حنين، اسمها حنين يا غبية.

لا أدري إن كنتُ قد أغلقتُ الهاتف بعدها أم أنه سقط من يدي!!

كنتُ متمددةً فوق الأريكة بجوار النافذة أراقب المارة وفي رأسي عشرات الأفكار ربما اختمرتْ إحداها في عقلي ووجدتُ

obeikan.com

ضالتي المنشودة لأسطُر روايتي الجديدة، وخالتي صفاء تتصفح الجريدة بجواري، ثم بين الفينة والفينة تذكر لي اسم جارتنا تلك أو تلك التي قرأتْ روايتي الأولى وقد صارتْ كلماتي محط إعجاب وتقدير، فلا تقع عين سيدةٍ من سيدات الشارع على خالتي صفاء إلا وتنطلق عبارات المدح والثناء وتساؤلات عن عملي القادم، وأنا أبتسمُ، يطربني حديثها وأنتشي بما تنقله لي من أخبار وتعليقات حتى تلك التي تُهاجم بعض أجزاء من الرواية فالأمر لا يُزعجني إطلاقًا.

اخترق رنين الهاتف حوارنا الجميل الذي تُشاركنا فيه أكواب القرفة بالحليب، ها هي دلال تُحدثني مُجددًا من الأسكندرية، تحديدًا من كافيتريا مميزة في محطة الرمل، دقائق معدودة استغرقتُها لأرتدي ثيابي وكنتُ عند الباب، لا يمكنني أن أعاملها بلا مبالاة ودون اهتمام، فلطالما كانت دلال مُلتزمةً معي، فلما لا أبادلها الالتزام؟ فطوال فترة التحقيقات والعرض على النيابة حتى في جلسات نظر القضية كانت ترفض الحديث معي، أعرف أننا مُختلفتان ولم نكن مُتشابهتين يومًا، لكن بيننا ما هو أكبر من الاختلاف وأعمق من التشابة، إنه التفاهم الذي أرسله بيننا الخالق حين جمعتنا الحياة معًا في بيت عزيز الطوبجي، هناك

في الصناديقة حين كانتْ مسامي مكتومة مغلقة حتى خطَّتْ دلال بقدميها الدار فتفتحتْ مسامي وعاودتُ التنفس في صحبتها وتحت معيتها.

لا أنسى أنها كانت تجلس بجواري مُبتسمةً تُهوِّن عليَّ مرار أيامي ولسانها لا يلهج إلا بدعاءٍ حارٍّ ورجاءٍ لا ينقطع أن يُخلصني الله تعالى من براثن ذاك الوحش الشرس، تحتويني وتسهر لياليها تُضمد جروح وجهي بكل مهارة وحرص حتى لا يبقى لها أثر ولا تترك في وجهي ندبات، تعالج كدمات جسدي الزرقاء المُشّربة بالخُضرة كآثارٍ معتادةٍ مُسجلةٍ كبراهين تُثبت حضور هجمة شرسة لأبي على جسدي الهش لأي سببٍ من الأسباب، لا تتركني إلا حين أضحك أو أبتسم لسيلٍ من النكات والنوادر تُلقيها على مسامعي وهي تضمني في حضنها وتُهدهدني برفق افتقدتُه منذ أن غابتْ شمس أمي عن دنياي، لم تُخبرني أبدًا أني ضعيفة مسكينة بل كانتْ تحاول قدر طاقتها أن تقوِّي ثقتي بنفسي حين تهتز أو حين تعصف بي رياح والدي.

آمنتُ بالتجربة أن دلال امرأةٌ مختلفة جدًّا، لم يُدرك شقيقاي اختلافها فهما لم يختبراها حتى يعرفاها كما أعرفها، تحبني كثيرًا وتُعطيني مشاعرها دائمًا دون طلب، ولا تأخذ مني شيئًا، علاقتنا

تختلف عن الصورة النمطية المعتادة لعلاقة فتاة بزوجة أبيها، فدلال فريدةٌ من نوعها ولا تشبهها امرأةٌ أخرى، كان اختلافها وتفرُّدها سببًا فيما عانتْهُ وما ألَمَّ بها طوال سنوات عمرها، دلال تلك الجامحةُ روحها لم تكن تعطيني فرصةً للاستسلام إلى ألم اليأس أو الركون إلى مرارة الوحشة، كانت تكره الضعف وتنبذ الاستسلام.

رأيتُها إحدى إشارات القدر لي وأنا أؤمن جدًّا بالرسائل التي يبعثها الله لنا، وحين سألتني زهرة ذات مرة:

- كيف تكون تلك الغانية من رسائل القدر؟!

وجدتني أُجيبها بتلقائية:

- بها يقول لي ربي: فقط كوني صبورةً لمزيد من الوقت.

- أهي مزعجةٌ إلى هذا الحد؟

- بالعكس، هي وسيلتي الجميلة التي منحتني إياها السماوات لأستعينَ بها على الصبر.

- لا بد أنها امرأة جميلة حتى يتزوجها حماي بهذه السرعة بعد وفاة والدتكِ - رحمها الله-.

- جميلة جدًّا، والأدهى أنها ذكية جدًّا جدًّا.

- امرأة جميلة جدًّا وذكية جدًّا جدًّا، يبدو أنها مُخادعةٌ أيضًا،

فما الذي يُجبرها على الزواج من رجل كوالدكِ؟ آسفة، لا أقصد الإهانة أو التجريح، لكني أتعجب، لا بد أن في الأمر سرًّا!

- أنا أيضًا أتعجبُ من قبولها الزواج به، فهي تستحق الأفضل!

قلتُها وأنا أدرك في قرارة نفسي الأمر كله، أدركُ لما تزوجتْ دلال عزيزًا، فلقد أشفقت عليَّ دلال من ذاك التعجب وخصتني بقصتها ودوافعها كلها، لكن لا حق أملكهُ يخوِّلني إخبار زهرة بالحكاية وتمرير قصة دلال إليها رُغم معرفتي بها دون إذن منها.

قلتُ لنفسي:

- ليس مهمًّا ماذا أريد؟ وماذا أتوقع من اللقاء؟ المهم عندي اللقاء ذاته، لقد انتظرتهُ طويلًا بشغفٍ وفضول، فقد جاء هذا اللقاء متأخرًا سبعة أشهر كاملة!

تزاحمتْ الذكرياتُ على رأسي تُشحذه بينما يقطع بي سائق التاكسي الطريق إلى محطة الرمل لأرى المُتهمة السابقة دلال حامد النجار.

وفي اللحظات الأولى من اللقاء اعترفتْ دلال بخطأها واعترفتْ بذنبها ورجاؤها الكامل أن نُسامحها، والأهم بالنسبة لها أن أسامحها أنا وأغفر لها وكأن المحكمة لم تبرأها بعد!

كانت عيناها ذابلتين وكلماتها مضغومة، ربما سقطتْ بعض حروفها منها مُحملةً بدموع ندم أو دموع توبة.

كانتْ بمزاج مختلف ومضطرب، وهيئة مختلفة بسيطة تخلو من الأناقة، ليست هي دلال الغجريةَ الجمال، النابضة بحيوية مُحيرة، تلك التي كانت كل صباحاتها محمومة بالتفاؤل والاشراق، ولكل صباح ابتسامةٌ خاصة به لا تُشبه غيرها، تجلس أمامي وقد اجتاحتها مشاعر الألم حين لم يفضِ الليل إلى فجر أو لم يطلع نهار!

سالتْ دموعها وانتحبتْ، لقد تحولتْ بفعل الأحداث الجِسام التي مرتْ بها طوال مائتي وعشر يومًا قضتها في أروقة النيابة وأبهاء المحاكم إلى امرأةٍ أخرى أتعرفُ عليها الآن.

اقترب النادل منا ليعرف مبتغانا، طلبتُ كوبين من عصير الليمون والنعناع المنعش، مشروبها المفضل، لكنها اعتذرتْ وطلبتْ قدحًا من القهوة، فسألها النادل:

- كيف تشربينها سيدتي؟

- سادة، دوبل في كوب زجاجي من فضلك.

حتى مزاجها في القهوة تغير، كانتْ تشربها زيادة فيما مضى، قهوة العصاري يرافقها على نفس الصينية كوب كبير من الماء تنغمس به شريحتان من الليمون وقطعة ثلج كبيرة، بدتْ دلال لي

كعالمٍ غريب لم أكن أعرفه، تُثير فضولي نحوها، أراقبها مُعتزةً بصداقتي بدلال التي كنتُ أعرفها.

وضع الرجل المشاريب في أدبٍ وانصرف، سحبتْ دلال قهوتها فقلتُ:

- هذه المرارة لا تليق بكِ.

فأجابتْ: على العكس، هي تطابقني تمامًا، فهذا الصَّبار الأسود تخصني جدًّا مرارته.

- لما لا تضعينَ فيها ولو ملعقة صغيرة من السكر؟

أجابتْ في همود وطأطأتْ رأسها إلى فنجانها:

- الحلاوة تفسد قسوة القهوة وتقهر الطاقة الكامنة بها، دعينا من قهوتي ومرارتها ولتسمعيني جيدًا، هناك حجارة إن لم يرفعها المرء بنفسه عن صدره ستتهشم أضلاعه أكثر حين يرفعها غيره عنه، عاليا إن الله لم يرزقني بنتًا ولا ولدًا، لكنه رزقني بكِ أختًا أحبها وأحرص عليها، قلبكِ طاهرٌ بارٌ وأريد أن أتطهر من آثامي أمامكِ، فأنتِ عندي بالكون كله.

- أنا أيضًا أحبكِ يا دلال وأتفهم مخاوفكِ، أعرف لماذا تزوجتي أبي وأفهم لماذا قتلتيه، كان الأمر خارجًا عن إرادتكِ، فقد كاد يُزهق روحكِ، حاولتُ مرارًا مقابلتكِ في النيابة وزيارتكِ

أثناء فترة احتجازكِ لكنكِ رفضتِ الزيارة، قدرتُ مشاعركِ ومخاوفكِ حينها وأدركتُ أن قرار اللقاء قراركِ وأنتِ صاحبة الإرادة فيه، أعرف أنكِ قوية لكن بشاعة عزيز الطوبجي كانت أكبر من احتمالكِ، وأفهم ما يمكن أن يُحدِثه الألم من تحولات داخلنا، صدقيني لقد أشفقتُ عليكِ حين سددتِ وحدكِ فاتورة شيطان أبي، نعم، كلنا يعلم أنه كان شيطانًا بإرادته، ومن منا يستطيع أن يقاوم غواية الشيطان دون أن يُخطئ ولو لمرةٍ واحدة مهما كانت قوته، فلسنا ملائكةً ولا قديسين، وغواية شياطين الإنس أكبر وأقوى تأثيرًا.

- أشكركِ عاليا، وأشكر الله على صفاء قلبكِ ونقاء سريرتكِ، نعم، كان ألمًا شديدًا، ألم يعصر، ألم لا يصدر إلا عن ذبح الروح، لقد صدقتني المحكمة وتأكدتْ بكل الأدلة والبراهين أن عزيزًا كان يطلب إزهاق روحي، فكيف يطالبونني أن أتماسك وأصمد في ظل هذا الهول، ربما كانت مسحة شر دخلتْ نفسي حينها لأجرح كما أُجرح وأقتل بدلًا من أن أُقتل، لم يكن فعلًا يا عاليا بل رد فعل، فلم أتخيل يومًا أن أقتل زوجي وأنا التي لا تقوى على قتل فأر، أرجوكِ اشرحي الأمر لأخويكِ، فالأسوأ من كل مر بي ألا يُتاح لي الاعتذار لهما عما جرى،

فعواطفنا حين نختزلها تصبح عبئًا يُثقل كاهلنا ونموت معه كل يوم من جديد.

- عرفتُ أنكِ هاتفتي عدنان ولقد تحدثتما لبعض الوقت، أليس كذلك؟

- نعم، ولكنه لم يمنحني فرصة للاعتذار، تعامل مع الأمر كأنه ماضٍ لا يريد الخوض فيه، فعدنان رجل نقي السريرة، طاهر القلب، ثاقب البصيرة، عاملني باحترام كبير ولم يصدر عنه أبدًا ما يُسيء، شكرتُه حين أوكل لي غير مضطرٍ محاميًّا ماهرًا على نفقته الخاصة وأنا أستطيع تدبير نفقات هيئة من المحامين إلا أني اكتفيتُ بالمحامي الذي أرسله عدنان لي، كان الأمر مؤثرًا للغاية، آثرني عدنان بتفهمه ورُقيه للمرة الثانية حين زارني في القاهرة منذ شهر تقريبًا في سراي النيابة، حينها فقط أحسستُ بلذة البراءة وقيمة الخروج من الأزمة، وعندما أسقطتْ المحكمة عني تهمة القتل العمد وجدتُه يُقْبِل عليَّ ويشدُّ على يدي مُهنئًا، ثم أصر على أن يصطحبني إلى شقتكم في الصنادقية، فقط أردتُ جمع كل مُتعلقاتي وأغراضي الشخصية من هناك تاركةً تلك البقعة من الأرض خلف حدود ذاكرتي، وكعادته كان كريمًا، دمث الخُلق فلقد أصر على أن آخذ غرفة النوم الخاصة بي، أكد لي علمه أنني

obeikan.com

اشتريتُها قبل زفافي إلى أبيه من مالي الخاص وأنا أولى بها، ولا بد للحق من العودة إلى صاحبه.

ومهما قلتُ فلا يمكنني وصف امتناني له، فلا مفردات ولا ألفاظ تستطيع أن تُعبرعن تقديري له، صحيح يخلق من ظهر الفاسد عالم، فمن العسير الإقرار أن ملاكًا كعدنان هو ابن شيطانٍ كعزيز، أما عليٌّ فهو لا يعرفني جيدًا وذكرياته معي لا تسمح لي بتوقع خيرًا يأتيني منه وأعذره جدًّا في ذلك، فأنا بالنسبة له لستُ أكثر من امرأة ماجنة تسللتْ في غفلة إلى عقل أبيه فاضصرت النار به، بخّرتُه بعطري الغجري وسحرته بملابسي الضيقة المُلتصقة بي والتي تبرز من جسدي أكثر مما تخفي، وغُلِقت الأبواب وقلت له: " هيت لك " فسقط عزيز في براثن الشهوة مفتونًا بشذى عطري وضمني بين ذراعيه، ورغم كل سوء تصوره عني إلا أنني لا أسعى إلى تغيير معتقده، فلقد طُرد الفتى من بيته وحُرم فراشه بسببي أو من أجلي، ويعلم الله أني لم أطلب ذلك أبدًا ولم أسعَ إليه، كانت رغبة خالصة لعزيز ليتخلص نهائيًّا من أي صوت معارض له في مملكته، وباعتبار كل ما سبق فلا حق لي في مشاعر إيجابية تأتيني من عليٍّ، فقط أخبريه أنه لا داعي لأن تنبت بداخله أي نبتة شر أكون أنا التي زرعتها، فمن له شقيق كعدنان وشقيقة

مثلكِ لا يعرف للحقد مسلكًا، فلا بد أنكم جميعًا من أصل جميل مُصفًّى قد رُوِي بماءٍ طاهرٍ نزيه لم يتلوث بشرٍّ ابن الطوبجي رغم كل شيء، رحم الله والدتكِ وأسكنها فسيح جناته على حُسن تربيتكم واتزان عقولكم ونقاء قلوبكم.

يالروعة الدعوة التي أطلقتْها دلال صوب السماء وشهادتها الكريمة في حق أمي الراحلة.

- أمي أمينة افتقدكِ جدًّا، فكل شيء في غيابكِ يُتمًا.

رأيتُ دلال تنظر إلى ساعة يدها وهي تقول:

- لقد تأخرتُ وأريد اللحاق بالقطار.

فنظرتُ صوبها في دهشة وأضفت:

- أي قطار؟ ألن تقضينَ معي ليلة أو ليلتين، سنتنزه في الأسكندرية، ستدهشكِ بجمالها الفطري!

- أتيتُ إلى هنا لأتمتع بساعة أو ساعتين معكِ يا غاليتي، ومن الغلاظة أن يجدني عليٌّ في بيته هنا أيضًا، فلا ينقصني صفعة منه رغم أنه مهذب إلى حدٍّ بعيد.

(قالتْها دلال وفي صوتها خفة وطرافة)، فأجبتُها وقد التقطتُ نبرة الابتهاج:

- لا عليكِ، ستقف حنين حبيبته بينكِ وبين صفعته، فلا يسددها نحوكِ أبدًا، لن يجرؤ.

- أعتذر منكِ صغيرتي، فلدي مهمة عاجلة في القاهرة تحتاج إلى كثير من الوقت والمجهود، دونها سأشعر بمرارة خسارة عمري هباءً، اطمأني لن يكون لقاؤنا عابرًا ولن يكون الأخير، فلا يمكنني أن أكُف عن حبكِ ولن تنقطع الصلة بيننا يومًا، فقط أريد أن أستعيدني وأحقق توازنًا أراه بارقة أمل قد سُنحت لي، حلم راودني كثيرًا وسيتحقق أخيرًا بعد طول انتظار، فلتذكريني في صلواتكِ حبيبتي.

- لما لا تُخبريني به إذن، فكلي شوق وقد عزفتِ ببراعة على أوتار فضولي!

- ليس بعد، لكنني أعدكِ بمفاجأة سارة.

قبلتني دلال واحتضنتني بحرارة وغادرتني بنفسٍ غير التي أتتني بها، فقد جاءتني بنفسٍ بالية وروحٍ ذاوية وتركتني باسمةً هادئةً وكأنها أبصرتْ الحياة من زاوية أخرى حين لم تجد بي حنقًا أو غضاضةً عليها، يظلمها كثيرًا من يرميها بالجنون، وأقول الحق: فقد سعدتُ جدًّا حين فهمتُ أن دلال وجدتْ ما يبعث بحياتها الأمل، يبدو أن وسيلة ما أو غاية ما قد أعادتها للحياة ثانيةً وهاهي تُثبت أنها في يقظة تامة وأنها ليست مُخدَّرةً ولم تعد امرأةً ممزقة..

لم تكن المراسلات بيننا يسيرة ولا سهلة بالحد الذي تستغرقة ضغطة على سهم الإرسال في تطبيق الواتس آب، كان الأمر أعقد من ذلك بمراحل، فربما تصل رسالتي لزياد في وقت لا يتمكن فيه من تشغيل جهاز الجوال الخاص به، أو أن يكون رصيده من الاشتراك في شبكة الإنترنت قد نفذ ولم تمدهم شمس بمزيد من بطاقات شحن الجوال، أو أن زوج شمس العزوزي ليس حارسًا مناوبًا على الزنزانة التي تجمع زياد ومعتصم، ففي أوقات وهي كثيرة كانت الرسائل تنقطع بيننا أيامًا، أو يكون جوال زياد على الوضع الصامت فلا يسمع إشعار استلام رسالة جديدة ولا يراها إلا حين يخلد الحُراس في سبات عميق فيمكنه حينها تشغيل الصوت، كما أنه ولسبب لعين لا أفهمه كانت خدمة الرسائل الصوتية لا تعمل على جوال زياد معظم الوقت، مشكلة تقنية لا أستوعبها لكنها حرمتني سماع صوته، أتأمل شاشة هاتفي عشرات المرات في الدقيقة الواحدة وكلي رجاء أن تحتضن حروفه عينيَّ، وأتوهَّم أنه اهتز بمكالمة أو برسالة منه فيهنأ لي يومي ويطيب، فاللانتظار جنونه وألمه المُبرح، لكن الفراق أسطورة عذابنا أنا وزيادي وجزء من دراما أعمارنا نتقبله بصبر وسننتصر عليه يومًا ما، يُدهشني أني بتُ أنظر للأمور بهذه البساطة

والعقلانية رغم ذاك الرصيد الضخم من الحرمان وعوالم الحاجة والشوق واللهفة المكبوتة داخلي، وأخشى أن تنفجر في لحظة فتلتهمني وأغدو ذكرى شاحبة!

أمسكتُ جوالي وشرعتُ أسطر حروفًا أحسها نارًا تتأجج في صدري، ليستْ مجرد سطور ولا خواطر متشابكة متلاحقة، لكنها أحاسيسي، لا شيء يمكنه نزعها من على جلدي، فقد سُجلت عليه.

حبيبي زياد:

اليوم عيد ميلادي الخامس بدونكَ، و لا شيء يمكنني أن أطلبه من الله سواكَ، دعوتُه كثيرًا بلسان متصوف وقلب منفطر وجوارح ورعة أن لا ينتزعكَ مني وأن يرُدكَ لي قريبًا، لا أعلم كيف، فقط أعلم يقينًا أنه قادر على أن يجمعنا بين طرفة عين وانتباهتها، إن غيابكَ أرهقني، أرهقني كثيرًا، دام لي قلبكَ سكنًا وضميركَ منزلًا وعقلكَ مأوى........

كل عام وأنا حبيبتك.

أرسلتُ رسالتي تلك فجر يوم عيد ميلادي وانتظرتُ فربما تأتي نسائم الصباح بالفرحة.

obeikan.com

عاليا، يا حب العمر كله:

ألملم نفسي بهدوء كلما سنحتْ الفرصة لأكتب لكِ وأنوء بحروفكِ حين تصلني عن مأساتي وفجيعة حرماني منكِ وأنا أتمزق، أمتثل يوميًّا لأوامر الحراس حتى لا أبدو مشاغبًا فتتشوه صورتي في عيونهم وتضيع عليَّ ثقتهم بي وأُحرم من النزهة التي يسمحون لنا بها كسجناء في فناء السجن حينها فقط ألتقي بمعتصم، وأتزود منه ببطاقة شحن الرصيد فيمكنني حينها مراسلتكِ، فقد احتدم الشجار بين معتصم وسجين آخر هنا، رجل عصبي المزاج، سليط اللسان، تقاتل الرجلان بضراوة فعوقبا بالسجن المُشدد لفترة ليست بالقصيرة، إلا أن انضباط معتصم وسلوكه السابق شفع له عند مدير السجن، وهو عاقل متزن فبات يسمح له بالتنزه كل فترة في فناء السجن فنلتقي.

آسف على الإطالة، أردتُ ألا أُحرم منكِ أبدًا ولا أنقطع عنكِ ابدًا فيُعاندني القدر وتُعاندني الظروف وتقسو علينا، فهل رأيتِ لعنة أقبح من ذلك؟!

حين تأتي ذكرى ميلادكِ وأنا غائب عنكِ أشعر أن قدرتي على الصبر تشوهتْ وأن طاقتي تشتَّتْ، وأن نبع الانتظار في أعماقي قد تعكر، فيصير الدم في عروقي يغلي ويحرق ويخرب

اتـزاني وتـدق الطبـول الحزينـة في أفقـي وتنتحـب مزاميـر عمـري، وتتلوى سنواتي وتسقط عندها آمالي مقهورةً وأتساءل في حيـرة أنـا هنا وأنتِ هناك، فمتى للكاف أن تسقط؟!

كـــــل عـــــــام وأنـــــتِ حبيبتي.

استمتعي جيدًا بعيد ميلادكِ، استمتعي من أجلي، أحبكِ.

قضتْ خالتي صفاء النهار كله تحضر صنوفًا جديدةً مختلفـةً بمناسبة عيـد ميـلادي، أول ذكـرى لميـلادٍ تحضره معـي، أرادتـه متميزًا إلى حدٍّ بعيد، كما أنه أول عيد ميلاد لي وقد أصبحتُ كاتبة ولي رواية تُحقق نجاحًا مقبولًا بل سخيًّا إلـى حـدٍّ كبيـر، تـشاركها حنين وقد تلطختْ ملابسها ببعض بقع الصلصة وربمـا الكاكـاو أيضًا، كان المطبخ يضج بأصناف تبدو من رائحتها أنها شـهية، لـم يجرؤ عليٌّ على الاقتراب من ساحة المعركـة ولا التـضحية بنفسه إن هو أتلف صنف من الأصناف التي تشارك حنين في إعـدادها أو تذَوقها قبل السماح له بذلك، لكنه وقـف يراقبهـا ويُمطرهـا بوابـل من نظراته المشتاقة دومًا فسمحتْ له بالاقتراب ففعل على الفور.

كانت حنين تحـب رائحـة العجين النيئ في القوالـب وحيـن تفعل الخميرة فعلتهـا وينتفخ العجين تبـدو" نينـو"- كمـا يـدللها عليّ – في سعادة بالغة وكأنها تستنشق عبيـر أجمـل الزهـور، بينمـا

يعشق عليٌّ رائحة السكر المحروق المُعد لتزيين الكريم كراميل وكأنهما مراهقان يتشاجران أو يتسابقان في التهام الجديد من الأصناف بحجة اختبار مذاقها، تضحك خالتي صفاء من قلبها وتتورد خدودها من اندفاع الدم إليهما من فرط السعادة.

اتصال جميل آتاني من عدنان وزهرة وغنات يوسف الصغير وهمهماته تخترق المسافات، حديثنا تغشاه الضحكات والأمنيات السعيدة والمباركات، ثم تأتي رنة هاتف حنين لتخترق سعادتنا، لم يكن يدور في أنفسنا أي هاجس لكدرٍ قريب، وجدنا حنين تُجيب هاتفها وقد ازدرد وجهها فجأة وكأن الدم غلى في عروقها، أو أن معركةً حربيةً مفاجئةً نشبت في كل الاتجاهات من حولها، أسرعتْ إلى شقتها ملقيةً بهاتفها الخلوي على الطاولة المجاورة دون اكتراث، أسرعتُ أنا وعليّ خلفها وكلنا استفهام وتساؤل، وخالتي صفاء تحاول اللحاق بنا، وحنين قد علا صدرها وهبط وتسارعتْ أنفاسها بينما تتسابق الدموع على الانهمار من عينيها ولا يسعها التفوه بكلمة وكأن الكلمات ماتت على لسانها!

اقترب منها عليّ ولفتها إليه في شجاعة ونظر في عينيها بتوسلٍ قائلًا:

- حنين، ماذا جرى؟

لم تجبه سوى بشلالاتٍ منهمرةٍ من دموعها الساخنة، دنا منها أكثر ووضع يده على كتفها يحتضنها وهي ترتعد في خوف وحسرة وقالت:

- لقد ماتت أمي من ساعة.

تملكنا جذعٌ وذعرٌ، احتلنا الاضطراب، وتلعثمتْ الكلمات على لساني بينما احتضنها عليّ بشدة وجسدها يرتجف ويهتز، اقترب منها أكثر وربت على كتفيها، استسلمتْ حنين لأحضان عليّ ودفنتْ وجهها في صدره بعنف وعيناها مغرورقتان بدمع الفقد فإذا به يهوى بشفتيه على رأسها فيقبله بشغفٍ واحتواء، فلعل رقته تمتص حزنها ولوعتها.

ثلاثة أعوام قضتها السيدة يسرا، والدة حنين حبيسة المصحة النفسية رغم رفضها الشديد للبقاء هناك والابتعاد عن فلذة كبدها، في بداية مرضها لم تكن تعاني سوى بعض الاضطرابات الذهنية والعصاب والسهاد الدائم، وعدم النوم لأكثر من ثلاث ساعات في اليوم والليلة، الأمر الذي تطور فيما بعد ليصل بها إلى "متلازمة كابجراس"، وفي الشهور الأولى من مرضها كان زوجها عادل الراوي يزورها منفردًا على فترات متباعدة لا يرى منها خلال زيارته سوى حقد عينيها على وجهه، ولعناتها التي تُطلقها

نحوه كلما رأته، انقطع الرجل تدريجيًّا عن زيارة زوجته ونعتها بالجنون فقد كانت تخيفه، في حين واظبت حنين على زيارتها بانتظام حتى استحالت عشرتها مع أبيها في منزل واحد، وفي آخر زيارة لوالدتها وقبل أن تقرر حنين الانتقال إلى الأسكندرية جلستْ قرابة الساعتين في غرفة الانتظار تحمل نفسها قلقًا يشع بريقه من عينيها، تنتظر أن تسمح حالة والدتها بالزيارة، وبعد محاولاتٍ من الطبيب المباشر والمشرف على حالاتها جاءتها أمها بوجه غير الوجه، جلستْ أمامها في حديقة المصحة وعلى الأريكة المقابلة جلستْ حنين تنفيذًا لتعليمات الطبيب الذي أصر على وجود تلك المسافة الفاصلة بين الأم وابنتها.

كم كانت أمها فيما مضى تكره أن يفصل بينهما شيء، لكنها الآن أصبحت لا تؤمن إلا بالفواصل والمسافات، لم تكن والدتها على ما يرام أبدًا وكأنها قادمةٌ من عالم آخر، عالم التشرد واللامبالاة، لا تكاد تثق إلا بالممرضة المصاحبة لها والتي أصرتْ على وجودها حتى في تلك اللحظات التي تخصها هي وابنتها، تمنت حنين حينها لو أنها قادرة على تعرية ذهن أمها والكشف على شبكة أعصابها المتشابكة والتى كانت فيما مضى تنبض دومًا بحبها لوحيدتها ولهفتها عليها، تمنت لو أنها عرافة

ذات قدرةٍ عجيبة على قراءة المستقبل وفك رموز الماضي لتعرف ما يجري وما سيكون، أرادتْ اتصالًا وثيقًا ومباشرًا بوالدتها حتى لو كان اتصالًا من العالم الآخر!

ورغم كل الحيرة والقلق إلا أن عينيّ أمها ما زالت عميقة، يغمرها حنو كبير لم تفسده تلك الهالات الرمادية الوقحة التي تتوسد أجفانها، سألتْها مرارًا:

- ما بكِ يا أمي؟ هل تريدين إخباري بشيء؟

وبهدوء وضعتْ يدها على كف أمها في حنان، تبحث عن إجابةٍ وتفسير لتيهٍ تراه في وجهها، لم تُجب يسرا بكلمات مفهومة، فقط تنهدت بعمق وابتسمت فجأة وكأنها خرجت للتو من كهف خانق!

هرعتْ حنين بعدها إلى الطبيب المعالج تسأل وتستفسر وتجادل الرجل فيما رأتْ، لم يحل الرجل ألغازها، ولم يُسهب في شرح مرض والدتها، محاولته كلها تكدست في إطار طمأنتها وكسب ثقتها، لكنها سألْتهُ في عصبية:

- هل قمتم بنتف ذاكرة أمي؟ هل أحرقتم أعصابها؟

لم تستفزه نبرتها المُهينة المُتهمة له بالتآمر على مريضته، بل ابتسم في هدوء قائلًا:

- حين آتتْ السيدة يسرا إلى هنا كان رأسها مُحتلًّا بملايين من إشارات الاستفهام، تصرفاتها البشرية مختلة وإدراكها للخطر مضطرب، ساخطة على كل شيء، لا تذكر من حياتها سوى العامين الأخيرين، لا تستجيب للعقاقير ولا تُجيب على أسئلة ولا تتكلم إلا نادرًا، فقط تحتج وتصرخ، أعصابها مثارةٌ دومًا، كثيرة البكاء، متقلبة المزاج، تزورها أحلام مُرعبة مُتكررة وأرقٌ مزمن، تعاني من اكتئاب ذهاني وتزورها ميول انتحارية بين الحين والحين لذا استوجبتْ حالاتها البقاء في المصحة، والتدخل العلاجي السريع بمضادات الاكتئاب وكذلك العلاج بالصدمات الكهربائية.

إن حالتها صعبة ولكنها ليستْ مُستحيلة، لقد صارحتُ والدكِ سيادة اللواء من اليوم الأول أن حالات الاكتئاب الذهاني قد لا تستجيب للعلاج لعدة مرات بالرغم من إمكانية حدوث تحسن مؤقت، لكن للأسف هذا التحسن يتبعه تدهور الحالة (انتكاس) مع احتمالية إقدام المريض على الانتحار، وقد وقَّع والدكِ مشكورًا على إقرار بأحقية المصحة في اختيار العلاج المناسب لحالة السيدة يسرا، كما وقَّع أيضًا على معرفته بالآثار الجانبية التي قد تترتب على العلاج بالصدمات الكهربائية، مثل: فقدان الذاكرة على المدى القصير وهذا تحديدًا هو ما رأيتِهِ أنتِ

obeikan.com

اليوم، تأكدي آنستي أننا لا ندخر وسعًا لشفاء والدتكِ ولكنها إرادة السماء، ونتمنى ألا تتطور الأمور وتزداد سوءً.

شريط الذكريات الذي استعادتهُ حنين وعرضتهُ أمامنا كان مؤلمًا للحد الذي انهارتْ معه دفاعاتها ولم تعد قادرة على تحمل المزيد من الألم، للأسف تطور الاكتئاب ولازمتها " كابجراس" اللعينة الخطيرة، لم تغفر حنين لوالدها إيداعه لزوجته ورفيقة دربه وأم ابنته مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، ورأت الأمر حماقةً لاذعة وإهمالًا جسيمًا، بل رأته جريمةً نكراء أكبر من جريمته التي ارتكبها في حقها هي منذ سنوات، ربما تغفر له حنين يومًا تآمره عليها وتمكين رامز من تسديد طعنة نافذة إلى قلبها السلس، لكنها لن تغفر له قطعًا ما فعله بوالدتها، أدركتْ حنين بالتجربة أن عبارة " الزواج عهدًا لا ينفصم " ليست أكثر من مقولة حمقاء، وأن "الحب" كلمة مضحكة هزلية، وطوال ثلاث سنوات كانت تلك التجارب والذكريات تُلجم عقلها وتُحدد دائرة بصرها، وتُشحن أجواءها بالخيبة والغربة والخوف من مواجهة معتقداتها، تهرب وتهرب وتهرب بألف وسيلة، وتركض دون أن تهدأ يرافقها حقدها على الرجال وكراهيتها لهم ونفورها منهم.

obeikan.com

التفتتْ نحو عليّ قائلة:

- رحلتي في نفق الضياع طالتْ ولا ذنب لك لتُسدد فواتير إقامتي هناك، أرى في وجهك تعبًا وحيرة، أفهم أنه لا حاجة لكَ لتشاركني دربي ولا لتتحمل سخافاتي فلا شيء يربطنا ولا وعود قد قطعناها معًا.

- حنين، صدقتِني أو لا.. فأنتِ لا تدرين كيف أحبك، أُقسم أني أتمزق من أجلكِ، قلبي معلق بأصابعكِ تحركيه كيفما تشائين، أسير معكِ إلى أين؟، لا أعرف، لا دليل، لا علامة، لا نهاية، ولا أسئلة، ولا يهمني العالم كله، أنتِ فقط من تَعنيني، أرفع رأسي إلى السماء الشاسعة كل فجر وأتمنى لو أن نجومها صارت حروفًا لأكتُب لكِ بها عهد يقين أنكِ وحدكِ استوليتي على تاريخي وقدري وكياني، كوني لي يا حنين فأنا لا حاجة لي بالعيش دونكِ، وإن كان الحبُ قدرًا فأنتِ دون نساء الأرض جميعًا قدري الجميل رغم شراسته، الرقيق رغم صعوبته، اسمحي لي أن أكون معكِ، مرافقًا في كل خطوة، فحبكِ قد تغلغل في نفسي، أعماقي تتوقُ إلى بصمتكِ القوية على قدري، أتوقُ إلى أن يكون لغرامي بكِ تلك القوة التي تُطهر روحكِ من كل خيانة، وتُشفي قلبكِ من كل غدر وتُزيل من نفسكِ كل أثر لظلم وخيبةِ

obeikan.com

رجاء، فدونكِ أنا - يا حنين- نغمة شاذة نشازًا لا أُذن ستلتقطني ولا نوتة ترسمني.

- عليّ، في غمرة الضياع وليالي التوهة وصدر السماء العاري من الرحمة لم أجد قط غير صدركَ يحميني وغير صبركَ ليحتويني، ولم أكُن لِأحبُك لولا أنكَ بنيتَ لي بيتًا في قلبك، ثلاثة أعوام كاملة وأنا حبيسة حقدي وصدِّي ومرارة خيبتي وحُطام تجربتي وخسارتي المفجعة، ثم آتيتَ أنتَ فمحوتَ كل شيء بصبركَ وحنانكَ وإقبالكَ عليَّ دون أن أعدكَ بشيء ودون أن أصنع من أجلكَ شيء وفشلتُ أنا، أعترف لكَ أني فشلتُ في تجاهلكَ وفشلتُ في أن أحيا دونك، في كل ليلة وفي عمق الليل كان الماضي يُهاجمني ويقرع طبوله فيهدم أعصابي، ويُفتت أي بادرة حب تكاد تتشقق في نفسي الصلبة نحوك فيطيش معولي هدمًا لكل غاية ولكل بصيص أمل ليستمر تحفُظي وليستحيل قلبي خرابًا قبل بزوغ الشمس، فأُهاجمكَ صباحًا من جديد وأنا أكثر شراسة، فقدرتي على كبت مشاعري كانت هي كل قدرتي على البقاء حية، لم أكن أدري حين حضرتُ إلى هنا هربًا من ماضٍ يقتلني، راحلةً عن مصائب تجربة ملعونة تتلاعب بي أني أُقحم نفسي من جديد في تعويذة حب رقيقة طرقتْ باب قلبي

الموصد بلطف وصبر، رأيتكَ مؤمنًا بي، متمسكًا بفرصة أحيا أنا معها من جديد، تُلاحقني نظراتك الحانية أينما اتجهتُ، كلما زاد صدي لكَ زاد حبكَ لي، أي طاقة تلك التي تملكها يا علي؟! وأي أمل ذاك الذي يرعاكَ! تنبهتُ ذات يوم أن لنبض قلبكَ صدًى أسمعه في أرجاء صدري فعجزتُ عن مقاومتكَ وتجاهلكَ، وبتُ أسأل لماذا ينفطر قلبكَ من أجلي وأنا أعاملكَ بكل هذا الجفاء؟! سامحني يا أفضل الرجال، سامحني....

- نينو، لم أكن بحاجة لاعتذاركِ ولستِ أنتِ من يطلب الغفران، الأمس واليوم وغدًا ولسنوات كثيرة مهما طالتْ سأظل أتسكع أمام قلبكِ لأطلب الدخول، فأنتِ في نفسي حقيقة لا يساورها شك وعدل لا يقبل المساومة، ما أقسى التجارب حين تطعنا بنتائجها في ظهورنا فلا شيء يبقى حينها إلا شعور بالضعف والعجز ينخر عظامنا ويصهر قلوبنا، فلا نرى في الدروب سوى الظلام والكره، لكني أحببتكِ بقوة ودون إرادتي،فلا خيرة لنا في الحب، وأقسم لكِ أني لن أتركَكِ أبدًا ما دمتُ حيًّا، فأنتِ كل ما لي وكل ما أحيا من أجله.

أطلق عليٌّ قسمه وقد زاد اقترابه من حنين وأضحى حديثه همسًا، أمسك بكتفيها وظلتْ هي أمامه وعيناها متعلقتان بشفتيه

تتابع ما يخرج من بينهما وقد أغرورقتْ عيناها العسليتان بالدموع، وكأن أعماقها المتحجرة قد تفتتْ وانصهرتْ وباتَ عليّ هو كل ما بقي لها في الوجود، وقعتْ نظراته عليها فوجدها تنتفض وترتجف وتتشبث بيديه وتتساءل:

- وماذا بعد أن تحصلَ عليَّ؟ هل يمكنكَ القذف بي فجأة في الهواء؟

فإذا به يرفع رأسها نحوه وفي عينيه كل الحب قائلًا:

- أظلم نفسي إن أنا تركتكِ يومًا وحينها أقتُليني غير آسفة، فأنتِ موشومةٌ في قلبي، وحياتي دونكِ ليل أسود لا شروق له وأنا لا أحب السواد يا حنين.

ثم هوى على شفتيها بقبلةٍ حارةٍ عميقة وطافتْ بهما رؤى حالمة إلى فردوس السعادة، وكأن وفاة والدتها رغم فجيعته كان السيف الذي قطع كل القيود التي لطالما كبلتْ حنين لتستقر أخيرًا في أحضان رجلٍ وشم الحرف الأول من اسمها على صدره وفوق قلبه مباشرةً!

كم غيَّر الحب حنين وبدَّلها! أصبحتْ امرأةً أخرى، امرأةً كاملة، تركتْ خلفها كل سنواتها الباهتة ذات الخريف الذائب الألوان حين أحبها رجلٌ خُلق من رجولة كاملة خالصة لا يشوبه

غرور وكبرياء وتعنت، ولا يُنقص الاعتراف بالحب من رجولته شيء بل يزيده ثقةً وثباتًا، تمكنتْ معه حنين من التخلص من سفينتها القديمة المُتهالكة وغدت تشق بسلاسة طريقها في بحر الحياة وهي تُسيطر بثقة متناهية على دفة حياتها، فدار دولاب الدفة بارتياحية ودارتْ حياتها معه وتشابكتْ فروع شجرتها وتداخلتْ مع شجرة عليٍّ، وكلاهما حريصٌ كل الحرص على هذا التشابك والتداخل.

وها هي الأيام والشهور والسنون تمر ولا شيء يُرضيني أو بالأحرى يُسعد أعماقي في ظل غياب زياد، فدونه كل سعادة ناقصة وكل جميل مُشوه، وكلما تطرق الحديث عنه يشملني سكونًا وتوشك الدموع أن تفر من مُقلتيَّ وأجاهد في حبسها، أتطلع إلى صورته التي سكنتْ جوار سريري، يا للسنوات الخمس الطوال التي أطفأتْ بلهيبها أي معنى للأمل ومحت بقسوتها أي طعم للتفاؤل، فما أوجع الألم حين يستوطن العجز القلب! وحين تتراكم الأشواق في وكر الروح!

أجدُ في رسائلنا بعض غايتي ولا أملك غيرها منفذًا، أتفحصها وأراجعها حتى حفظتها عن ظهر قلب، أنسجُ بها حولي

obeikan.com

شرنقة أحتمي بها من كل يأس وأكتفي بها عن كل ونس، فيغزوني يقين أن الله سيحدث بعد ذلك أمرًا.

جاء الصيف وازدحمت الأسكندرية بالباعة المتجولين والمصطافين وضجت جوانبها بضجيجهم وصخبهم وانفلات بعضهم، فالأسكندرية مدينة تُغتصب صيفًا دون أي وازع من ضمير، يسير بعض مصطافيها حُفاة لا يرتدون سوى ألبستهم الداخلية البيضاء وتنتشر على رصيف شاطئها ملاءتهم وتكتظ مجالسهم بأواني الطعام وحلل المحشي والمعكرونة دون خجل من جمالها الذي يُسلب عنوة، يجري الصبية بين أرجل المارة عابثين بما تصل إليه أكفهم الصغيرة، ضاق صدري ووجدتُ الصيف مزعجًا، مثيرًا للعبث والفوضى في عروس البحر المتوسط!

جاءتني دعوةٌ لطيفة من دلال لزيارتها في القاهرة، أخبرتني أنها في حاجةٍ لي وأنني بلا شك سأجدُ تسليةً لديها ولا بد لي من الحضور إلى القاهرة والنجاة بنفسي من هوس الصيف في مدينة ساحلية، استأذنتُ خالتي صفاء في أسبوع كامل أغيبُ فيه، لا لشيء إلا لرغبتي في تلبية دعوة دلال والوقوف على آخر مستجدات الحياة معها، كما أني لم أكن لأُغضبها إذا ما اعتذرتُ عن قبول دعوتها ولو من باب التغيير.

تقلبتُ طوال الليل في فراشي، أنسج حواراتٍ لطيفةً وأرتبُ ردودًا ودودةً إذا وجدتُ دلال مقهورةً حزينةً أو بائسةً موجوعةً تفتقد السكينة والراحة كما كان حالها في آخر لقاء جمعنا حين زارتني منذ شهور، غفوتُ من كثرة التفكير، أيقظتني أمي صافي في الوقت المناسب لألحق بالقطار السريع المتجه إلى المحروسة، أرسلتْ دلال رسالةً صوتية على هاتفي تخبرني بعنوان ستستقلبني فيه وتعتذر عن حضورها شخصيًّا إلى المحطة لظرفٍ طارئ، لم يكن الوصول إلى العنوان بالأمر العسير رغم بعد المسافة التي تفصله عن محطة مصر، وجدتُني أنظر مباشرةً إلى الفيلا الصغيرة التي تقع جغرافيًّا في العنوان المُرسل، استوقفني ما رأيته وما عايشتُه هناك، لقد تبدلتْ دلال النجار إلى دلال أخرى، صارتْ امرأةً جديدة، لقد كرهتْ ترف الحياة وانغماسها في أمور الزواج والطلاق وتعدد الرجال على عتبة عُمرها، باعت دلال كل ممتلكاتها ومصاغها، حتى شقة الغورية لم تنجو من البيع، اشترتْ دارًا أنيقةً ذات طراز معماري فريد، نائيةً نوعًا في إحدى ضواحي القاهرة الجديدة لها حديقة واسعة بها كراسي خشبية مريحة تخُصها دلال بنفسها بالكثير من العناية والتنسيق رغم أن حرارة الصيف تستعر في ازدياد، أرادتْ الابتعاد عن جوف المدينة وكأن

زلزالًا أتى على كل بقاع الأرض فطواها عدا تلك الدار الجديدة، أخبرتني بزهو أنها قضتْ قرابة الشهرين في تنسيق الحديقة وإزالة الأعشاب والحشائش حتى ذهب عنها ذاك المنظر الموحش الذي كانت عليه حين اشترتها.

"دار الرحمة للأيتام".. شعورٌ بالرهبة تملكني وقشعريرةٌ سرت فيَّ حين رأيتُ اليافطة تصطف فوق البوابة الرئيسية للفيلا، لا أرى دلال التي عرفتُها فيما مضى، أراها الآن عذبة، ذات وجنتين نضرتين ممتلئتين تتوسطهما غمازات مثيرة، رأيتُها مشرقة وكأن ضوء الشمس ينعكس على عينيها فتلمعان ببريق جميل، بريق الأمان، بريق الوصول إلى غاية رسمتْ البسمة وحفرتْ الرضا على وجهها فصار بديعًا، استعادتْ دلال في تلك الدار ما فقدته من سعادة قبل عشرة أعوام أو يزيد، استمعتُ بشغف لحديث خرج من دلالٍ جديدة عرفتها في زيارتي للقاهرة وهي تُرَكِّب بيديها بعض كراسي الأطفال البلاستيكية الملونة، فتحشر قضبانها في الأماكن المخصصة لتستقيم أرجل الكرسي وتحمل القاعدة بثبات.

: أنا لستُ دلال، المرأة التي كُنتها من قبل، لم أعد جامحةً أخشى الرفض وأرهب الفقد، تخلصتُ وبملء إرادتي من زجاجة

obeikan.com

النبيذ التي كانت تغضبكِ حين تتوسط طاولة طعامي باستمرار في السنوات الأخيرة، ولم أعد أُعاني من الأرق وغالبًا لا تزورونني نوبات الصداع التي كانت، ألم تلاحظي يا عاليا أني استعدتُ بعضًا من وزني الذي فقدته في الشهور السابقة، لقد تخلصتُ من خراب داخلي أصابني وتلبَّس بي عشرين عامًا، سنوات كريهة مرتْ لم تترك لي سوى الألم والوحشة والفراغ، كانت حياتي صحراء جرداء لا ماء ولا رواء، حياة رتيبة إطارها الملل والسأم وعنوانها الشهوة وحب الذات، في محبسي أثناء نظر القضية، اختليتُ بنفسي وتأملتُها جيدًا فلم أجد إلا سرابًا، وجدتُ عمري يتسرب ويتسلل وأعوامي تهرب وتتوالى دون غاية ولا هدف، أتظاهر بالسعادة والثبات والاقتناع بكل خطوة أخطوها وأنا أحترق وهمًا.

: لا تكوني بتلك القسوة يا دلال، ولا تُعنفي نفسكِ وتجلديها.

: لم أجلد نفسي يا عاليا، صدقيني ولا أُعنفها، أنا فقط تفحصتُها وأردتُ أن أتذوق للسعادة طعمًا حقيقيًّا قبل حلول الأجل، بحثتُ داخلي فوجدتُني امرأةً محرومة، حرمتُ نفسي بنفسي من الشيء الذي خُلقت لأجله، حرمتُ نفسي من الأطفال وبترتُ عنقود أمومتي داخلي قبل أن ينبتَ في رحمي أي جنين،

خوفي من الرجال وجزعي من تقلب أمزجتهم، واحتقاري رفضهم لإناثهم وهروبهم منهم بمرور الزمن، أو بفعل التعود والرتابة، أو بدعوى الملل جعلني أتهرب من أمومتي وأهرب منها لاهثةً وراء تحقيق ما تخيلتُه سعادة، حين تزوجتُ عزيزًا ودخلتُ بيته ورأيتكِ هناك أقسم أني أحببتكِ من الوهلة الأولى، ووجدتني أدعو الله أن يُقربني منكِ وأنا التي كنتُ لا أدعو إلا نادرًا ليس بطرًا ولا استغناءً بل خجلًا، وليقيني أني أحقر من أن يستجيب الله لي، وشاءتْ الأقدار أن نقترب وأن تتوائم أمواجنا فوجدتُ شعوري بالحرمان يزيد وأنا أنظر إلى وجهكِ النقي وأتمتم داخلي: " كم أنا غبية! كم أنا تعيسة! "، تمنيتُ لو أن الزمن عاد بي سنوات للوراء فأول ما سأحرص عليه هو تلبية نداء الطبيعة النقية داخل كل أنثى، وسأحرص على البنين والبنات، ولكن ما أسخف الأمنيات حين لا نملك معها إلا العجز، لذا وفور حصولي على البراءة نفضتُ عن كاهلي غبار الندم والحرمان وقررتُ أن أستخدم قوةً تحصلتُ عليها جراء استنشاق الماضي الأليم، وسعيتُ قدر جهدي وطاقتي لأحصل على هذه الدار الواسعة وتلك الحديقة التي آسرتني، لم أتردد برهةً في شرائها ولقد أنهى المحامي الخاص بي كل الإجراءات اللازمة لتصير داري النائية

الجديدة دارًا للايتام كما ترينها الآن، ففي الطابق العلوي خمس غرف نوم غير غرفتي وهي الأصغر، تُطل جميعها على الحديقة، الغرف كبيرة ونظيفة يملؤها أثاث جديد عملي وأنيق رغم بساطته، غرفتان زرقاوان اللون للصبية وغرفتان ورديتان اللون للصبايا وغرفة واسعة للأمهات البديلات اللاتي فضَّلن الإقامة معي هنا هربًا من ضجيج الحياة وصخبها، ولا أخفيكِ سرًّا فلقد ساعدني عدنان كثيرًا، وكم أنا فخورة بنفسي إذ استطعتُ أن أكتسبه صديقًا وسندًا! كما أوصتْ بي زهرة لدى دار الأيتام الذي تربتْ فيه وقضتْ به سنوات طفولتها وصباها، تحدثتْ إلى مديرة الدار عني بجميل الكلام وساعدني اتصالي بها واستفدتُ من خبرتها الكثير، ومنذ أربعة أشهر حضر عدنان وزهرة لزيارة القاهرة ومشاهدة داري عن كثب، وحين اطمئن عدنان لمقصدي وتأكد من جدية الأمر وصدق نواياي قدمني إلى السيدة "دولت الباز".

أردفتُ مستفهمة:

: دولت الباز عضو مجلس الشعب عن دائرة الضاهر؟ أتذكرها جيدًا فلطالما كان عدنان طالبًا مميزًا نجيبًا عند زوجها الأستاذ عبد الرحمن، كان مدرس أول اللغة العربية في مدرسة عدنان الثانوية.

أُومأتْ دلال مُجيبة وهي تبتسم:

– نعم، مدام دولت سيدة لطيفة للغاية واتصالاتها واسعة ولقد ساعدتني في اجتياز كثير من الأمورالروتينية المعقدة من خلال اتصالاتها بمعارفها في وزارة الشئون الاجتماعية ومجلس الطفولة والأمومة، والآن ينام في دار الرحمة سبع بنات وثلاث أولاد في عمر الزهور و ربما حملتْ الأيام القادمة لنا المزيد ممن يحتاجوننا ونحتاجهم.

ولا أنكر الشعور بالخوف الذي تملكني في البداية، عندما كنتُ أذهب للفراش في أخر اليوم وبعد أن أطفئ الأنوار أبدأ في محاسبة نفسي محاسبةً عسيرةً على كل فعل وقول وكل التفاتة وانتباهة، هل أخطأتُ اليوم في شيء؟ هل نسيتُ شيئًا؟ هل أهملتُ أمرًا؟ هل آذيتُ طفلًا بكلمة أو بتصرف دون قصد؟ هل؟ وهل؟ لكن الرهبة أخذت تزول على مر الأيام حين رأيتُ ابتسامة الرضا والسعادة تطفو على وجوه أطفالي وضحكاتهم تقهقه هنا وهناك في جنبات الدار، ذهب خوفي وذاب وحلَّ محله اطمئنانٌ ورضا وبهجة ما عرفتهم فيما مضى، أجلس في ركن ظليل في حديقة الدار، أتسلى بقراءة القصص لأطفالي، وحين انتهي نتناقش كثيرًا ونلعب كثيرًا، نأكل ونشرب دون أن أكترث لوزني أو

أُسارع إلى الميزان لتأتيني قراءته فتُأكد رشاقتي فاطمئن، أو تصفعني بزيادة بعض الجرامات فيتبعها عقابًا قاسيًّا أُصدره في حق جسدي وأحرمه من أي طعام ما عدا الجبن القريش والتفاح وأُلزمه بتجرع كؤوس من شوربة الكُرنب البغيضة لأيام متتابعة حتى أفقد ما جنيتُ من جرامات وأعود عنوانًا للرشاقة، أتمايل كغصن البان.

اكتشفتُ أني لكي أشفى من إحباطي وأتقبل حياتي بصدر منشرح كان عليَّ أن أصنع لنفسي عالمي الجديد المليء بمشاعر جديدة نقية لتُنتِج ذكرياتٍ جديدةً تتناغم في رأسي فتمحو ما سبقها، وها قد وجدتُ ما أردتُ، هنا مع أطفالي استمع إلى أغانٍ جديدة أحفظها فلا تهيج ذاكرتي بصور أكرهها عن نفسي، دلال القديمة لم تعد تنفعني فلقد صنعتُ من نفسي أخرى جديدةً أفضل كثيرًا، لقد زادتْ سعادتي وتضاعفتْ حين انضم إلى أسرتي طفل جميل ضمه قسم البوليس حديثًا إلى داري وأطلقوا عليه اسم "حمزة"، كم هو جميل رغم ضآلته وهُزاله حين جاءني، وجده إمامُ المسجد الواقع خلفنا حين ذهب ليؤذن الفجر، عمره أيام لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة، كاد الرجل يُصعق، لكنه تجَلَد وتماسك وحمل الرضيع إلى قسم الشرطة فلم يجدوا معه

ما يستدلوا به على ذويه، هجره والديه أو إحداهما لا أعلم، كل ما أعرفه أني أصبحتُ أكرس حياتي وقادم سنواتي لتربية أطفالي والعناية بهم، والوقوف على تعليمهم خير تعليم وإسعادهم قدر استطاعتي، ألا يستحق هؤلاء الملائكة أن أهجُر سفهي و أُودع ترفي من أجلهم؟ لقد منحوني الحياة التي حُرمتُ منها والسعادة التي فقدتُها، أحبهم جميعًا على حدٍّ سواء، وأخصُّ حمزة ببعض الرأفة لصغر سنه الآن، استبقيه في ركن خاص في قلبي وسأعيش أسعد أيامي حين يخطو أول خطواته وحين يُناديني: مـامـــا..

سُررتُ كثيرًا من أجل دلال، من أجل ما انتهى له حالها وإن كنتُ أراها بدايةً جميلةً لقصتها لا نهاية سعيدة، فهنا وفي هذه الدار أفرغتْ دلال أمومتها وعواطفها، وحققتْ ذاتها الجميلة مثلها.

"أكتب إليك الآن يا زياد، **من** دارها التي تشرق عليها شمس الحاضر تحمل مع أشعتها الكثير من نسائم الرحمة والتفاؤل، أسابيع طويلة قضيتُها هنا وكنتُ قد خططتُ ألا أغيب عن الأسكندرية أكثر من أسبوع واحد إلا أن سلامًا نفسيًّا أسرني هنا وغيَّر حساباتي، ففي دار الرحمة لا أشعر مللًا ولا سأمًا، مدرسة رياض أطفال أمامي هنا، عشراتُ الصرخات العفوية العذبة

تنبعث فجأة ثم تعود وتهدأ فترة ثم تعاود الانبعاث من جديد، تدلِلهم دلال وتهدهد مشاعرهم بصبر عميق لا أعرف مصدره، الوجوه بريئة الخبث، تتصنع الهدوء والالتزام ثم تعاود الانفلات في جمال لا يقاوم، دلال تبني نفوسهم حجرًا حجرًا في هدوء وتؤدة، تمسح عنهم ذكرياتهم المتعبة وتعيد ترتيب أولوياتهم من جديد، تغرس في نفوسهم بذور الحب والصدق والخير وتنزع عنهم ما زرعتْهُ فيهم تجاربهم القاسية في أيامهم الخوالي، تتجول في أنحاء الدار بنشاط وهمة تغلفهما ارتياحية كبيرة وعاطفة جياشة، وكأنها أعادتْ اكتشاف نفسها من جديد، وانصهر ألمها وزال عنها تمامًا حين أحبتْ أطفالها وبادلتها تلك القلوب البريئة الحب بالحب دون شرط أو قيد يُشاركنها مربيات فُضليات، في وجه كل امرأة منهن عالم عجيب متماوج من الأحاسيس التي لا أستطيع التعبير عنها!!

فقط أجد أن في مناجم أعماقهن كنوزًا لا حدَّ لغِناها وتفردها..

اللون الأبيض يُغلف المكان، الجدران بيضاء والملاءات بيضاء، طاولة الطعام الكبيرة بيضاء، طقم من الجلد الأبيض الوثير وُضِع في صالة الدار لاستقبال الضيوف والزوار، بالطو

أبيض راقي ومريح ترتديه العاملات في الدار فوق ملابسهن، أحس بارتياح كلما فتحتث عيناي صباحًا في ذاك المكان الأبيض.

أظن أن أرملة عزيز الطوبجي وجدتْ ضالتها المنشودة في ضاحية القاهرة الجديدة، يحل عليها المساء وجسدها منهك من اللعب واللهو ورعاية الأطفال، تغمض عيونها المضيئة وترتمي في أحضان فراشها فتغوص في سبات عميق دون أقراص منومة ولا مسكنات، تضم رأس الصغير حمزة إلى صدرها وتستنشق عبير طفولته، وتهمس في أذنه بنعومة وحنان: أحبكَ يا صغيري، وأعرف أنكَ تُحبني.

ثم تقبَّله على جبينه وتمسح عليه بآيات من القرآن الكريم حتى يخلدا إلى النوم معًا في سهول القمر..

فترة طويلة قضيتُها مستمتعةً في دار الرحمة مضتْ وكأنها غمضة عين، رغم إشفاقي على خالتي صفاء من وجودها في بيتنا لفترات طويلة وحيدةً، فقد كُلّف عليّ بمهمة عمل جديدة تقتضي سفره خارج البلاد لستة أسابيع على الأقل، وتردد في قبولها إشفاقًا على خالتنا صفاء من وحدةٍ يتركها فيها إذا رحل، إلا أنه وجدها - وبما عُرف عنها من إيثار - تشجعه على قبول المهمة

obeikan.com

وتحثه على ألا يضيعها من يده، مؤكدةً له إن ثقة روؤسائه فيه قيمة يجب أن يُقدرها وميزة يجب ألا يفرط فيها، كما أن نجاحه في الحياة أمر يُسعدها أكثر من سعادتها بقربه منها، وأن وحدتها ليست موحشةً تمامًا فحنين في الجوار وسوف تؤنسها وتستعين بها على الوقت لحين عودتي أنا من القاهرة وعودته هو من فرنسا، أما حنين (فتاة القهوة) كما تُسميها خالتي صافي فاستجابتْ بصمت للأمر وتماسكتْ أمام عليٍّ قدر المستطاع، وأصرتْ على توديعه في المطار، لم يفلت منها الزمام إلا حين قبَّل شقيقي رأسها فانهارتْ حصونها ورمتْ نفسها في أحضانه وبكتْ بحرارة، وكاد عليّ أن يمزق تذكرة الطيران ويعود أدراجه معها إلا أنها قالت وعينيها تتلألأن بالدموع:

: إن كنتَ تحبني حقًّا فعليكَ اللحاق بطائرتك الآن، وسأنتظركَ هنا بعد اثنين وأربعين يومًا وأرجو ألا يطول غيابكَ، فأنا أعشق القهوة التي تصنعها لي بمزاجٍ عالي، مزيجكَ الفريد من البن واللبن والقرفة والشيكولاتة لا يُجيده غيرك، فلا تتأخر.

: ستفتقدينَ قهوتي فقط؟ ماذا عن سندوتشات المربى بالحلاوة، ألن تفتقديها؟!

تلك المناوشات اللذيذة التي تستمتع حنين وهي تحكيها لي

كانتْ مبلغ سعادتها، تخبرني باعتزاز أن عليًّا يحبها وأنها يمكن أن تقضي حياتها كلها معه، حتى في أوقات خلافاتهما العابرة لا يسمح لنفسه أبدًا بإيلامها أو جرح مشاعرها أو حتى إغضابها، أقصى ما يمكن أن يفعله هو أن يحتد قليلًا ويتهمها أنها

" مفترية" ثم يقطب حاجبيه كالطفل، فتُسرع إليه وتطبع قبلةً حانيةً على وجنته فيصير بين يديها طفلًا تُحركه فطرته ومشاعره، حنون عليّ، حنون جدًّا وهذا ما تحتاجه حنين حقًّا، فأي أنثى مهما كانت قوتها لا يمكنها مقاومة رجل حنون، فالرجل الحنون رزق كبير.

لم تكن مجرد كلمات مرَّت سريعًا تلك التي قالتها حنين بعد عودتها من المطار مودعةً شقيقي، بدتْ في أول المكالمة شاردة الذهن، مرتبكةً، فكرتُ في طريقة لأكسب انتباهها فقلتُ:

: هل اتضحت لكِ مشاعركِ نحو عليّ، أم أن الأمر ما زال مُبهمًا بالنسبة لكِ؟

جاءني صوتها مُجيبًا في استرخاء:

- لا أعرف متى ولا كيف حدث ذلك؟وجدتُ نفسي فجأة أحبه بل أعشقه، وبقدر حبي له بقدر خوفي عليه من تنمُري وغضبي حين تجتاحني الذكريات، أقسم أني أقاوم خيباتي لأعيش

هانئة، أمسح أثر سقوطي كي لا يتعثر عليّ بها، أريد أن أبرهن لنفسي قبل أي شخص آخر أن الحياة على ما يرام، أميل إلى التفاؤل وتطوق نفسي إلى السعادة لكن لا أقدر عليها، ولا أريد أن أتخذ عليًّا مدخلًا لها بل أريد أن أمنحه أنا السعادة التي يستحقها، كانت أيامي قبله تمضي في طريقها المرسوم، وقد استقر الصمت والفتور والجفاف في حياتي الخاصة حتى يئِستُ مني، حاضري كغدي لا فرق لديَّ، لكن عليًّا استطاع وببساطة النفاذ إلى داخلي رغم اضطرابي ورغم أني قاومته بشدة، وكثيرًا ما تساءلتُ ترى ماذا سيكون أمري معه وأمره معي؟ كل ما يُقلقني ويفسد عليَّ سعادتي هو خوفي وحيرتي فلقد فطنت أن الأحباء يرحلون عنا حين نُصبح أشد احتياجًا لهم، أشد تمسكًا بهم، وأشد رغبةً فيهم عن أي وقت مضى؟ أليس ذلك صحيح يا عاليـــا؟

أغلقتُ الخط وانتهتْ مكالمتي الطويلة مع حنين وقد انتقلتْ تساؤلاتها إلى رأسي ووجداني، عجزتُ صدقًا عن الرد عليها، لا أملك جوابا على ذلك السؤال المؤلم، هي محقةٌ إلى حدٍّ كبير، حتى أنا وزياد كانت سنواتنا السابقة مشحونةً بالمشاغل اللذيذة والآمال الوردية، كنا قبل سفره إلى الخليج في خير حال رغم كل شيء، نلتقي كلما سمحت الظروف، كانت أبهج أيامنا

وأكثرها دفئًا وعذوبة، ما أزال أذكر اندهاشه حين قابلني أول مرة في دكان جدي العجوز وعرف أنني شقيقة صديقه عدنان فقد عقّب قائلًا:

- لا تشبهينَ عدنان، ملامحكما مختلفة لكن أرواحكما متطابقة.

حين أحببتُ زيادًا بدأتُ في بناء أعماقي من جديد وبدأتْ حروفي تتنفس من رئتيه، تلتصق أحلامي بأحلامه لتُغذي أرواحنا وتدفعنا لتحمل قسوة أيامنا، أكذب إذا قلتُ: إنني حينها نسيتُ أحزاني وخيباتي في أبي ومعاناتي في داره، ومأساة الصرة، وفضيحتنا في الحارة وضربات الخرطوم التي تنهال على جسدي الصغير لأتفه الأسباب، لكن حبي لزياد منحني القوة لكي أُغرق كل ذلك في أعمق أعماقي بعدما كانت سدًّا تحول بيني وبين أي سعادة.

كان حب زياد لي وغرامه بي يمنحني طاقةَ نور أُعيد بها شحذ بطاريات دفاعاتي، يمسح دمعاتي إذا ما انهمرتْ على وجهي بسبب أي تصرف يُصدره عزيز الطوبجي نحوي، أو جرّاء أي انتهاك لحقوقي وآدميتي في بيته فإذا بلمسته الحانية تغمرني بهدوءٍ محببٍ وسكينةٍ غالية، وكأنه سحابة تندف ثلجًا شفافًا يبلل عطش روحي ويُحيل قيظي ولهيبي إلى خريف حنون.

أعلم من رسائله أنه يتألم بصمتٍ واعتزاز ولا يملك سوى كلمات يقدمها لي من عالمه خلف الأسوار، عجزُنا عن اللقاء لسنوات عجاف مضتْ وأخرى قادمات لم يفقدنا قدرتنا على التواصل، لا يُعجزنا الفراق عن التفاهم والتناغم واللقاء، لقاء الأرواح خلف حدود المادة والمنطق.

أُؤمن أنا أن وجوده في دنياي نصرًا ويؤمن هو أن وجودي في دنياه عطاء!

" أعلم اني لا أملك سوى صبراً قليلًا بعدما نفذ مني الكثير، لكني أملك إيماني بأن الله لا يُعسر أقداري إلا ليُيسرها"..

– كانت تلك رسالة زياد الأخيرة لي منذ أسبوعين، حين أخبرني أنه سيتوقف عن مراسلتي لفترة لا يعلمها إلا الله، فقد صدرتْ أوامر بنقله إلى سجن آخر، ولا يعرف ظروفه في ذاك المقر الجديد ولا كيف سيكون حاله هناك خاصةً أن معتصم العزوزي لن يُنقل معه، تعاهدنا أن تكن دعوانا منذ ذلك الحين وحتى يفعل الله أمرًا كان مقضيًّا دعوة واحدة تتردد في قلوبنا.

(اللهم صبرًا لا ينفذ)، تلك هي دعوانا كلما أشرقتْ شمس يوم جديد وكلما غربتْ نفس ذات الشمس كل مساء..

(أنا منكِ وإنتِ مني)...... عبارة ترددتْ على مسامعي بصوت أعرفه جيدًا وأعشقه جدًا، إنه زيـــاد، كان هنا إلى

جـواري، اسـتيقظتُ مـن نـومي أردد عبارتـه دون توقـف، أشـعر بنبضات قلبي تتسارع وأنفاسي تتهدج، أسرعتُ أُمسك هاتفي المحمول من تحت الوسادة التي بجانبي، طار عقلي من الفرح ورقص قلبي من السعادة، تزينتْ شاشة الهاتف بإشارة إلى رسالة على الواتس آب من رقم دولي جديد، كم أعشق الأخضر حين يلمع مُعلنًا عن قدوم الخير المنتظر، التقطتْ عيوني أحرف الرسالة تتلمس حرارتها.

" لطالما كنتِ لي كل شيء وما زلتِ لي كل شيء، أشتاق إليكِ شوق مغترب جردته غربته من كل شيء سواكِ، لي قلب واحد أنتِ وطنه، ولي عمر واحد أنتِ أمله، لكِ أنتِ تولد كلماتي وتنتحر في فراقكِ عباراتي، فهلَ دعوتِ الله لي أن يُبلغني ملاذي يا أجمل سنواتي؟! أحبكِ يا غاليتـي".

فأجبتُ برسالة فورية: غياب رسائلك يفرض على كَوني أن يرتدي ملابس الحداد، حتى روايتي الجديدة تبدو حروفها يتيمة وكلماتها مبتورة، لم أعُد قادرةً على أن أسطر فيها حرفًا، فقد تاقت لكَ روحي واشتاقتْ إليك عيناي.

استيقظتُ على صوت دلال الدافئ توقظني حاملةً كوب

الحليب المُحلى بالعسل كعادتها الجميلة، يبدو أني خلدتُ إلى النوم تحتضن يدي هاتفي المحمول الذي غدا قطعةً حديديةً صامتةً لا حياة فيها، يحتاج إلى احتضان الشاحن لبطاريته الصماء، تم الأمر واستسلمتُ لأحاديث دلال الصباحية وهي توزع العمل اليومي على العاملات بالدار وتوصيهن الالتزام بمواعيد إطعام الأطفال، والانتباه جيدًا عند شراء صنوف الخضر والفاكهة الطازجة ومراعاة شروط الجودة العالية في كل ما يُقدم للملائكة الصغار، ثم التفتْ اليَّ قائلةً:

- أجد في نفسي رغبة لشراء اللحوم بنفسي اليوم، هل ترافقينني يا عاليا؟

كنتُ أعرف أن دعوتها صريحة وكافية لأرافقها، ولم يكن أمامي سوى أن أمضي إلى حيث تريد دلال التي لم أعد أملك أن أرفض لها طلبًا أبدًا، فحين يكون الطلب نابعًا من قلب محب فلا نملك معه سوى الإستجابة.

سألتني عما تحتويه رسائل زياد الجديدة وكأنها فطنتْ بغريزتها الحاذقة أن ثمة رسائل وصلتني البارحة، إلا أنها أخبرتني قائلةً:

- لا فطنة في الأمر، عرفتُ من غلالات الكحل التي طليتي بها عينيك هذا الصباح، فعاليا لا تضع الكحل إلا حين تكون

سعيدة، وعاليا لا تسعد إلا حين تأتيها رسائل الحبيب زياد، الأمر منطقي جدًّا، فهل من جديد؟

أخبرتُها أن لا جديد يحمله لنا القدر وتخبئه لنا الأيام غير قسوة متزايدة ومحنة تشتد ولا أمل لدينا في انفراجة قريبة، السجن الجديد الذي نُقل إليه زياد الأوضاع فيه ليست على ما يرام؛ إذ أن حراسه متشددون على نحو كبير ولم يعد في إمكانه استخدام المحمول لمراسلتي، فما كان بالأمس أمرًا استثنائيًّا ربما تجود به علينا الظروف ثانية أو لا تجود، فقد أنقذ زياد طبيب السجن من موت محقق حين دفعه بعيدًا عن المكان الذي كان يُصلي فيه قبل أن تسقط فوق رأسه نجفة جديدة لم يكن الكهربائي قد ثبتها كما يجب وتأكد من صلاحيتها على خير وجه، شكره "د. فرحان خان"، الطبيب الهندي كثيرًا وأراد أن يكافأه وسأله مرارًا عما يريد، وكيف يُمكنه أن يرد له جميل صنيعه، فقد منحه حياةً ثانية، كان زياد في غاية الحرج ولم يشأ أن يُثقل على الطبيب أو أن يطالبه بما ليس في الإمكان، ولولا إصرار د. خان والقسم الذي أطلقه وهو يضع إحدى يديه على رأس زياد وممسكًا بالأخرى حنجرته (حركة انفعالية عاطفية يقوم بها الهندي عند القسم بحياة مُحدِثَه أو عند القسم والوعد بتنفيذ ما يُطلب منه) ما تجرأ زياد

على طلب شيء، وأخيرًا استجمع شجاعته وتحرر من حرجه وطلب من الرجل أن يسمح له بإرسال رسالة واتس آب إلى رقم دولي، وافق د. خان ورحب بالأمر، هذا كل ماكان.

: لا تقلقي عاليا، فالحياة تتبدل أسرع مما نتخيل، لعل الغد يحمل لكما بطاقة خروج من نفق لا تريان الآن له نهاية.

وهكذا صارتْ أحاديث دلال هادئةً رزينةً يتخللها صبرٌ وإيمانٌ عميق وتفاؤلٌ أعمق، تُقدِّم الأحسن وتتوقع الأفضل دون دليل أو إشارة، تستطيع الاحتفاظ بابتسامتها وإشراقتها واتزانها النفسي طوال اليوم مهما كانت الأعباء والشواغل، لا أعتقد أن شيئًا أصبح بمقدوره تحطيمها ولا كسر نفسها وإرادتها..

كنتُ قد قررت العودة إلى الأسكندرية مدينتي التي كان حبها قرارًا اتخذته بكامل وعيي وإرادتي حين وطأتْ قدماي أرضها مع عليّ منذ سنوات قليلة، فالشوق إلى اليود والبحر وأمي صفاء وعم ربيع يحركني، أفتقد حنين وغلبتها وعليّ ومناوشاته، الكل يستحق العناق، العناق الطويل.

كان لدلال رأيٌ آخر، أرادتْ استبقائي إلى جوارها والاحتفاظ بي لمدة أطول، فقد يكون في أعماق المرء ما لا يمكن نبشه بالثرثرة لكن يمكن التعبير عنه بحزمة من التصرفات، فكلما

obeikan.com

شرعتُ في العودة إلى إسكندريتي تستبقيني دلال بحجة حاجتها لي، شعرتُ برغبة عارمة في الفرار من إحراج أشعر به كلما هممتُ إخبارها برغبتي في الرحيل، لكن توسلات الأطفال لي بالبقاء كان طوق نجاتها في كل مرة، تعلم أني أحببتهم جدًّا ورغمًا عني سأبقى إن هم طالبوني بذلك، لقد قررتْ دلال إعادة ترتيب وتهيئة إحدى الغرف المغلقة في الطابق الأرضي من الدار، كانت قد أغلقتها سابقًا لعدم حاجتها لها، فلا غرض مميز يُمكنها استغلال تلك المساحة من أجله، لكنها قد حرصتْ أخيرًا على إضافة مكتبة خشبية أنيقة ذات رفوف كبيرة ملونة مع طاولات أنيقة إلى تلك الغرفة كبيرة المساحة، فموقع الغرفة مميز جدًّا، تطل مباشرةً على الحديقة التي أينعت وأزهرت، أنهكنا العمل ورحلات البحث المستمرة عن كل ما يمكنه إضافة لمسة جمال إلى المكتبة، زيارات صباحية إلى أشهر مكتبات الأطفال لشراء أفضل الكتب والقصص وأدوات الرسم وكراسات التلوين وغيره، مجهودٌ متواصل لشهرٍ كامل تكلل بالنجاح حين احتشدت كتب الأطفال الملونة على الرفوف وتراصت في جمال لا تُنكره عين في معظم أرجاء قاعة القراءة كما أسمتها "ماما دودي".

(هكذا يناديها أطفالها)، ما عدا ركنًا صغيرًا في زاوية الغرفة أسمته دلال "ركن الكبار"، رأيتُ "حين تبكي الطيور" روايتي

الأولى تتوسطه وعلى جانبيها مجموعة منتقاة بعناية من أفضل الكتب والروايات الكلاسيكية والعالمية، بات ركنها الخاص، تعرفه جيدًا كما تعرف أصابعها، إنه كنز يستهوي عشاق الأدب، ركن خصصته دلال لقراءاتها الشاسعة، تفضل ديستوفيسكي وتعشق يوسف إدريس، صارتْ تقرأ كثيرًا، كثيرًا جدًّا، بل إنها تحتفظ بما يروق لها من أفكار وجُمل ومفاهيم في دفتر خاص تُدون فيه ما يلفتُ انتباهها بنظام شديد وهيمنة كاملة على كل سطر، تغيرتْ دلال وتغير عالمها ونظامها بل أستطيع أن أقول: تغير قلبها أيضًا وامتلأ حنانًا فياضًا لم أره من قبل حين صارت "دار الرحمة" دارًا تصدح بالأمل وتفوح منها رائحة الحياة، إن ومضات السعادة في عيني "ماما دلال " تليق حقًّا بها!.

هاتفتُ أمي صفاء لأعتذر لها مجددًا عن عدم عودتي في آخر الأسبوع كما وعدتُها من قبل، لم تنزعج ولم تلح في عودتي، بل استقبلتْ تأجيلي في هدوء مريب، وكأنها تريد أن تخلو إلى ذاتها بعض الوقت، لم أشعر بالريبة تجاهها بل شعرتُ بسعادة واطمئنان حين أخبرتني أنها نزلت للعمل مع عم ربيع في جنة الفردوس، لا طلبًا للمال، بل تنفيذًا لطلبه واقتراحه الذي لطالما

قدمه لها كلما زارته لتبتاع الأسمدة الخاصة أو مستلزمات العناية بنباتات الزينة التي أغرقتْ بها الشرفة وآرجاء المنزل فزادته جمالًا وسحرًا وأناقة، سعدتُ جدًّا من أجلهما معًا، ربما وجدا عزاءً من نوعٍ خاص لوحدتهما يتيحه لهما وجودهما معًا، فيالا روعة تلك العاطفة المتبادلة التي يقدمها لك شخص متألم مثلك! إنها العاطفة التي تُلهي القلوب عن الحزن والفراق، عن تفاهة الحياة وانكماش الأمل والرغبة في غدٍ جديد، ربما تلهيهما الصحبة ووحدة الألم عن حفرة الأرض الموحشة التي قذف فيها القدر الست فردوس حبيبة ربيع وتوأم روحه، وعن تلك الدوامة الفارغ فوها التي ابتلعت محمود سلَّام حب العمر لخالتي صفاء وابتلعت معه سعادتها، ربما وجدا في صحبتهما عزاءً عن ضياع لذة الحياة وعن وجعٍ دفين يعانق أرواحهما، لكنه يُطل بوضوح من عيونهما الحائرة في عالمٍ يبحثان فيه عن سعادةٍ غابت وأملٍ شاخ، يرفعان أشرعتهما وهما على يقين واعٍ أن الرياح قد ماتت منذ زمن بعيد، إنه القدر الذي يأبى إلا ان يقسمهما على اثنين، نصف غائب وآخر حاضر، فلا الغائب يعود ولا الحاضر قادر على الاستمرار دون نصفه الغائب، فما الخسارة من تقارب نصفين حاضرين بشراعين كسيحين في يخت الحياة المُتخم

obeikan.com

بالعوز والفقد والحاجة؟! ما الضير من ذلك؟! فأرواحهما لم تعد تحتمل كل هذا التعب.

ربما يجدان في صداقتهما عزاءً عن أسئلة مُلحدة مُميتة تتفاقم في دواخلهما لتبعدهما عمدًا وقسرًا عن الاستمتاع بحياة يعيشاها رغمًا عنهما، ربما يهتمان يدًا بيد وكتفًا بكتف وجرحًا بجرح وفقدًا بفقد بالاستمرار في كونٍ خلا عليهما وغدا باردًا حزينًا كليلة شتاء طويلة ومملة.

أسعدني جدًّا قبول صافي للعمل مع ريعو، ولِمَا لا والبحث عن السعادة حق مشروع لكل من هو نابض قلبه.

استيقظتُ صباحًا وكلي شوق إلى فنجان قهوة أرشفه بهدوء وعلى مهل في حديقة الدار، فلقد هزمني صداع قاس البارحة وحرمني النوم إلا لسويعات قليلة متقطعة أجهدتني، نزلتُ إلى المطبخ فرأيتُ دلال وحُسنية الطباخة الماهرة المسئولة عن طهو وإعداد الطعام وحوار يومي لا يختلف: "ماذا نطبخ اليوم؟ "، ارتباك مؤقت في أجوبة حسنية يعود إلى حرصها الدائم على إرضاء السيدة دلال التي باتت تقرأ كثيرًاعن صنوف جديدة، وتأخذ ما تقرأ على محمل الجد وتستعر بها الهمة، وتطلب من حُسنية التنويع والتجديد في الوجبات المُقدمة للأطفال مع كامل

الحرص على أن يجذبهم شكل ولون ما يُقدم لهم، مع وجوب اقتران جمال الشكل بروعة المذاق لتبقى شهيتهم مفتوحة ويقبلون بسعادة على تناول وجباتهم، لكن يبدو أن وجودي في المطبخ غيَّر مجرى الحديث، ومضتْ حسنية ترص صواني الفطور على مائدة الطعام ولنؤجل التفكير في الغداء الآن.

جلستُ على الأرجوحة في الحديقة أمسك فنجان قهوتي بحرص ومع أول رشفة آتاني صوت عم ربيع قلقًا عبر هاتفي المحمول، ليس من عادته الاتصال بي في مثل هذا الوقت لكنه قال:

- عاليا، آسف على إزعاجكِ، لكن الأمر مقلق.

- لا داعي للاعتذار عماه، ماذا عندك؟

- لم تأتِ السيدة صفاء إلى المشتل منذ ثلاثة أيام، هاتفتُها حينها فأخبرتني أن وعكة صحية طارئة أصابتها لكنها بسيطة، عرضتُ عليها أن أرافقها إلى طبيب لكنها رفضت.

- أي وعكة تقصد؟ كنتُ أحادثها أول أمس ولم تخبرني شيئًا!!

- لا أعرف التفاصيل، لكني أهاتفها منذ صباح الأمس ولا تُجيب، أرجو أن تكون بخير.

شيء في حديث عم ربيع أقلقني، لما لم تخبرني خالتي صفاء بمرضها ولما لم تخبرني حنين أيضًا، أتراها لم تزورها أو تطمئن عليها خلال اليومين الماضيين، هاتفتُ حنين لعلها تذهب إلى شقتنا وتستطلع الأمر، لكن الكسلانة لم تُجب على الهاتف، كعادتها تطيل السهر إلى ساعات متأخرة من الليل تشاهد فيلمين أو ثلاث من أفلام هوليود التي تعشقها، آه يا حنين، أرجو أن تجيبي وترحمي فضولي وتُنهي قلقي لكن دون جدوى، قمتُ مهرولة لأرتب حقيبتي وأرتدي ملابسي، رأتني دلال فتبعتني تتساءل عما جرى؟

- إن شاء الله خير يا عاليا، اطمئني، سآتي معكِ.

رفضتُ أن تصحبني دلال إلى وجهتي، لن تتمكن من ترك أطفالها وشئون دارها، فغيابها عن الدار يُقلقها.

قاطعتها قائلةً:

- ليس من الحكمة أن تتركي الدار للأمهات البديلات، سأذهب فورًا إلى الأسكندرية وسأتصل بكِ، وسنرتب أمر زيارة لكِ مع الأطفال لقضاء أسبوع والاستمتاع بالشاطئ ولكن ليس الآن، أرجوكِ، فالأمر مُربك للغاية.

دار في رأس دلال الكلام فاقتنعتْ وتراجعتْ عن موقفها قائلةً:

obeikan.com

- أُلطف يا رب.

توجهتُ إلى محطة رمسيس أكتم مخاوفي، لا أتوقف عن الاتصال بحنين التي لم تُجب، عشرات من علامات الاستفهام تنبض داخلي فتستوقفني، لن أسامح نفسي إن أصيبتْ خالتي صفاء بمكروه، متى يصل القطار إلى الأسكندرية؟ متى؟ بدأ القطار يهتز وكشطت عجلاته القضبان عائدةً بي إلى مسكني، يتقدم صوب غايتي بسرعة تشهد لها السيدة الراكبة إلى جواري لكني شعرتُ أن القطار بطيء وكأنه يمتحن صبري، لكنه مضى قُدمًا على أي حال وبدا لي الطريق أطول مما كان عليه.

أسندتُ رأسي إلى نافذة العربة ورحتُ أنظر إلى البيوت والحقول والمساحات التي تجري أمامي كصور متعاقبة وعبثًا حاولتُ التركيز في اللاشيء لعل الخوف يهدأ، لكنه تصاعد فأطبقتُ جفوني بقسوة آملةً أن يُرغمني ذلك على الاستسلام لحُسن الظن، عاودتُ الاتصال بعم ربيع لعله وصل إلى خالتي صفاء كما اتفقنا، لكن يبدو أن العدوى قد أصابته فلم يعُد يُجيب على اتصالاتي هو أيضًا مما زاد توتري وتصاعدتْ في رأسي الهواجس السوداء تشطره، تمزقني مخاوفي، إنها ساعات خطيرة، هل تركتني خالتي صفاء كما تركتني أمي من قبل؟ كان الجحيم

عندي أن أُحرم أم زياد، إنها قطعة أصيلة منه، نبتَ من رحمها وترعرع على صدرها وتفتحت عوالمه من خلال عينيها، أحببتها حين رأيتها للمرة الأولى وأحببتها أكثر حين عاشرتُها، لقد أصبحتْ قطعةً مني وأنا جزءٌ منها، آراها تبتسم دومًا مهما كان ألمها ولوعتها، تعجبتُ لصمتها في البداية وربما استهجنته لبعض الوقت حتى اعتدته وأدركتُ ما وراءه، فوجدته سكينةً، فهمتُ هدوءها فوجدته فضيلةً، عاشرتها فوجدتها حلوةَ الحديث، رقيقةَ القلب لا تفارق البسمة وجهها ولا الدعاء شفتيها، كريمة النفس، مهذبة الفكر ومنضبطة السلوك، أشتاق إلى لمستها الحانية على جبيني كل صباح حين توقظني ومثلها مساءً حين أجلس في فراشي أكتب أو أقرأ قبل النوم، يا للمتعة العجيبة التي أحسها حين تلتقط مشطي لترتب شعري وتهندمه! وبمرور الأيام بتُّ أشعر بقوة الوصل بيني وبينها، ألمح في قسماتها حزنًا ولوعةً تشعرني نحوها حنينًا من نوع خاص.

كم تمنيتُ أن أعوضها عن غياب وحيدها بما يخفف لوعتها ويُذهِب حزنها، ولكن هيهات!! كيف لي أن أواسيها بما لا أستطيع مواساة نفسي عنه؟! اندفعتُ نحوها بقوة شوقي إلى زياد واندفعتْ هي نحوي بقوة الحنان الذي يجيش في صدرها، أيعقل

أن تكف الحياة عن حرماني ممن أحب أم أنها ستبخل عليَّ وتحرمني ثانيةً؟ عالقةٌ أنا بين مخاوفي وقدري ولا أقدر إلا على الانتظار، وجدتُني أبكي وأبكي، لا يمكن إلا أن تكون هذه دموعي، إنها تُبلل يدي، ما أوحش دنياي إن غابت شمس أمي صفاء في أعماق الفراق السحيقة بلا نهاية!

أخيرًا وصل القطار، حاولتُ السيطرة على مشاعري وملامحي معًا وأنا أضع نفسي في التاكسي الذي طالبتُ سائقه الإسراع إلى السيوف، ابتسم الرجل وقدَّر لهفتي، أخبرته أن أمي مريضة وعليَّ اللحاق بها، تعاطف مع مطلبي وأسرع مبتعدًا إلى حيث أريد، ارتديتُ نظارتي الشمسية لا لشيء سوى رغبتي في إخفاء عينيَّ المتورمتين من كثرة البكاء، كم من الوقت قطعه الرجل ليبلغ غايتي لا أعلم، لم أرغب في المرور بالمشتل عند عم ربيع، لم ألتفت ورائي بل تصنعتُ عدم المبالاة وانصرفتُ صوب عمارتنا مباشرةً أهرول، أبطأتُ من خطواتي عند باب شقتنا، توقفتُ لحظةً ربما أتشبثُ ببعض صبر تعلمته من خالتي صفاء وبعض من حسن الظن تعلمته من عم ربيع، وضعتُ المفتاح في المزلاج وأنا أردد على مسامعي (سيكون كل شيء على ما يرام)، بدتْ لي الأشياء على وضعها، الشقة مرتبة ونظيفة، لا شئ يُقلق، ناديتُ:

- أمي..أمي، لقد عدتُ، أين أنتِ؟

توجهتُ إلى غرفتها فلم أجدها، في المطبخ أيضًا، طرقتُ باب الحمام لكن لا من مجيب!

وقفتُ مندهشةً تحت الساعة الكبيرة التي تتوسط جدار الصالة، متعطلًا عقلي عن العمل، أبحث في دهاليزي عن إجابة لسؤال يقهرني: أين ذهبتْ خالتي صفاء؟ هل وصل إليها عم ربيع فوجدها مستلقيةً في فراشها لا تقوى على الحركة؟ أم أنها سقطتْ على الأرض ولم تقوى على النهوض؟ أم أن شيئًا خطيرًا أصابها فأسرع بها إلى المستشفى؟ هل أدركها هو أم أدركها غيره؟!

هممتُ إلى الخروج من الشقة دون أن أدري أو أقرر إلى أين سأذهب، غايتي أن أفِرَّ من مخاوف تزداد، اتجهتُ إلى الباب فإذا بي أسمع مُفتاحًا وأرى المزلاج يُدار، جال بخاطري أن خالتي صفاء قد عادت من حيث كانت وأني سأراها مُرتدية ثوبها الأخضر الذي تُفضله تدخل الشقة تحمل معها أكياس الفاكهة كعادتها في هذه الساعة من النهار، سأسألها عن حالها ولِمَا لم تتصل بي منذ الأمس ولِمَا لا تجيب على اتصالاتي، سأسألها كثيرًا حتى لو ضاقتْ بأسئلتي، حتى لو وضعتْ يدها على فمي لتُنهي حديثي، لكن الداخل لم يكن خالتي صفاء، ما إن طالعتُ وجهه واستجمعتُ

ملامحه حتى فغرت فاهي وعينيَّ معًا: زيـــاد؟!

و بـلا وعـي أو إرادة وجـدتني في أحـضانه وبـين ذراعيـه ثـم استجمعت نفسي ورفعتُ رأسي نحو وجهه: كـيــف؟! هل أنتَ زياد حقًا أم أنكَ طيفه؟!

: آسـف عـلى إزعاجـكِ حبيبتـي، أرجـوكِ قـولي إنـكِ غيـر غاضبة مني.

لعنتُ في سري مُفرداتي الشحيحة وقُدرتي المحدودة على التعبير، كـأني فقـدتُ النطـق، أكـاد أسـقط، قـدماي تتجمـدان في مطرحهما، مشاعر كثيرة مختلفة، جياشة، غير قابلة للتفسير ولا للفهم طافتْ بي، لا أُميز شيء مما أمر به، علق بصري بزياد، وتعلَّقـتْ تفاصـيل روحـي بتفاصـيل تلـك اللحظـة بـشدة كـي لا تتسرب من ذاكرتي، كي لا تذهب ولا تنعدم فأعود أنا دونها إلى حالة العدم التي كنتُها منذ غياب زياد عني ولـسنوات احترقـتْ لياليهـا وأيامهـا داخلـي أصـارع التيـه وحـدي، أطلقـتُ لـدموعي العنان، صرختُ وأنا أبكي: إزعاجي؟ غاضبة؟ كيف أغـضبُ مـن روحي يا روحي؟!

مسح على شعري وهمس في أذني: أحبكِ ولا أرى للحب معنى إلا عينيكِ، الآن فقط استعدتُ روحي يا أغلى الناس، فكم

تمنَّيتُ أن أدفع نصف عمري لأراكِ ثانية ولو للحظة واحدة ثم أموت بعدها، "فكل مُشتاق يعقوب ولكل يعقوب يوسف قلبه".

ثم أمسك كفي ووضعها على خده فوجدتُه مُبلل بالدموع، قبَّل باطن كفي قائلًا: آسف على كل خيبة أصابتكِ بسببي وكل وجع طالكِ من أجلي.

ضمني زياد إلى قلبه مُجددًا وهو يقول:- ابقِ هنا فلعل حضنًا صادقًا يروي ظمأ سنين.

: حبيبي، لقد عاهدتكَ أن أنتظركَ حتى نهاية العمر، أتدري، كنتُ أتوق شوقًا للموت إن كان في الموت لقاؤنا، لا تعتذر أبدًا فقد منحني حُبك سببًا لوجودي.

تأملتُه كثيرًا وتأملني أكثر، تحسَّستُ وجهه وكأنني أستعيد ذاكرتي وتحسس وجهي بأنامله كأنه يستعيد ملامحي، ووجدته يقول: أصبحتِ تُشبهينني، أليس كذلك؟

أجبتُ: يُقال أن العشاق يتشابهون.

:لم أنساكِ يومًا ولم تتسرب ملامحكِ من ذاكرتي فكأنكِ حُفرتي هناك، تشبثتْ بكِ كل جوارحي وتغللتِ إلى أغواري، ولأجلكِ ومن أجل هذه اللحظة قاومتُ اليأس كثيرًا، ولولا عشقي لكِ لتفحَّمتْ أعماقي.

كان زيادي يبكي، يبكي أمامي بكل حواسه، تنضحُ قسماته بعذابات سنوات الوحدة والفراق، لم نستطع أن نقول شيئًا لكننا تعانقنا أعمق وأعمق وتسلل عطره إلى خلاياي وتسرب عطري إلى أنسجته، فقد ظلتْ دواخلنا تغلي لسنوات عجزتْ كلمات وقواميس العالم أجمع أن تُعبر عنها فتجمَّلنا بالصمت، وما أحلى الكلمات التي لا نقولها حين يعجز الحرف عن التعبير عن مشاعرنا وانفعالاتنا، وما أجمل لقاء حب يأتي على جمر الشوق بعد أعوام من الفراق!

لقاء يكتم فيه الحب أنفاسه تحت وطأة الحنين وعذاب السنين ونزف الأنين! لكنه لقـــــاء يُدرِكهُ الوجدان، تشهد عليه جوارحنا و أجسادنا و أنفاسنا المُلتهبة!

في الصباح استيقظتُ على شعاع شمس أبيض دافئ اخترق نافذتي مُباشرة إلى قلبي، تشابكت داخلي الأحلام وانعقدت في عقلي الآمال، أيُعقل أن يكون ما رأيتُه حلمًا؟ مجرد حلم، ألم يكن زياد هنا، تلفتُ حولي فزعة أستدرك ذاكرتي وأمتحنها أن تتراص في مُخيلتي صور الأمس وتفاصيل حديث من القلب دار بيننا، أتذكَّر كل كلمة، كل نظرة، كل همسة وكل لمسة، نعم

obeikan.com

تأكدتُ الآن، زيادي كان هنا معي، انتبهتُ أكثر واعتدلتُ في سريري، رأيتُ صافي تضع شرشف صلاتها الأبيض فوق رأسها، نهضتُ من مخدعي فإذا بها تُنهي صلاتها وتنظر نحوي بوجهها الذي صار قمرًا يبتسم، احتضنتني قائلة: صباحكِ نور وسرور يا ست البنات.

جاءتني أغنية بصوت أنثوي تتردد من سماعة صوتية ثبتها عليٌ من قبل في الطرقة الصغيرة التي تتفرق عنها غرف النوم ليأتينا الصباح بصوت ليلى مراد التي يعشقها، قلتُ: أليست هذه فيروز؟ أجابت خالتي: نعم هي.

فأردفتُ: إذن لم يكن ما رأيتُه حلمًا، زياد هنا، فالصباح عنده يعني فيروز، أما علي فصباحه يعني بنت مراد.

أسرعتُ إلى باب الغرفة أفتحه وأهرول إلى الصالة أُنادي: زياد، حنين أين أنتما...؟

كنتُ مندفعة بعض الشيء فما حدث البارحة أفقدني السيطرة على نفسي، أرهبني أن يكون ما أعيشه خيالًا نسجَتْهُ حولى لهفتي وغرابة ذهني، وما أقبح أن يكون سرابًا يركله الواقع بقدمه فأفيقُ لاهثة الأنفاس وأعود إلى أحزاني أبكيها وأكتبها على الورق ثم أُمزقها وأنا قاب قوسين أو أدنى من الجنون!

obeikan.com

انفتح باب الشقة ودلفت منها حنين يتبعها زياد، وقعت عيناي عليهما فانبعث في نفسي إحساسًا دافئًا بالسعادة الخصبة، اقتربتُ من حنين واحتضنتها بقوة وعمق، غُصْتُ في حضنها وقلتُ بصوت متهدج وبحروف ترتعش فرحًا: شكراااا يا نينو، شكرًا يا أغلى الناس، لقد أحييتيني من جديد، كم أحبكِ.

احتضنتني أكثر وأردفتْ مُبتسمة: لا داعي للشكر، فالوهج الذي أراه في أعينكما الآن لا ثمن له.

جاءنا صوت خالتي صفاء من المطبخ: حنين، أرجوكِ تعالِ ساعديني، فلا يمكنني إفساد البيض مثلكِ!!

: حسنًا حسنًا، سأفسدُ البيض والجبن وكل ما تصنعين يا صافي.

قبَّلتْ حنين وجنتي وأسرعتْ صوب المطبخ تقول: انتظري خالتي، فسأصنع لكم البيض المقلي بطريقتي الخاصة وببهاراتي الملعونة.

انسحبتْ نينو إلى المطبخ فإذا بزياد يسحبني نحوه، يجلس قرب النافذة الكبيرة ويُجلسني على فخذه، تسرب عبيره إلى خياشيمي، احتضنته ووضعتُ رأسي على كتفه، تغلغل كفه في شعري، تعبث أنامله الحانية في خصلاته وقال: خمسة أعوام وعشرة أشهر وثلاث أيام مجموع أيام الغربة كلها، أيام لم يكن

obeikan.com

لي فيها صديق سوى الليل في دروب السماء، تلك أعوام عشتُها بنفسٍ بالية، نبتَ فيها الصقيع مع أهدابي في ليالِ الشتاء وتبخَّر فيها قلبي من قسوة العجز في ليالِ الصيف، غربتي عنكِ صحَّرت وجداني وأفقدتني القدرة على الألم، ما بقى مني في تلك الأيام الخوالي إلا حلاوة الروح أو الترنح بعد الذبح، حتى شملتني عناية الله وتجلَّت رحمته في خطاب سلَّمني إياه محام خاص جاء لزيارتي، أدهشني وصوله إلى السجن من أجلي، فهو رجل قانون من أصحاب الصيت العالي هناك، كنت حينها قد نُقلتُ إلى السجن الجديد منذ شهرين وقد تملك مني اليأس وبؤس الوحدة لتعذُّر التواصل والمراسلات بيننا، فاجأني خطاب حنين جدًا حتى أني قرأتُه مرتين أو ثلاث في وجود المُحامي وقرأتُه بصوت مسموع عشرات المرات حين عُدت إلى زنزانتي، لم أصدق ما انتوتْه حنين من أجلنا، أدهشني جميل شعورها نحوكِ وحبها الصادق لكِ، رأتْ أن سعادتكِ غاية تهون من أجلها كل وسيلة، لقدحطمتْ تضحيتها قيود وحدتي وأعادتني إليكِ، آلافًا مُؤلّفة سدَّدتها عني فأسقطتْ الدية وأُطلق سراحي لأعود طائرًا إلى فردوسي المنشود، لم يكن بوسعها أن تتركنا نموت ببطء شديد ونحن على قيد الحياة، لم يستغرق الأمر سوى شهرين فقط، فقد

رتبتْ الأمر كله بمساعدة الماهر جدًا عدنان الذي اتصل بالسفارة المصرية هناك وتواصل مع ذاك المحامي البارع وأخرج المشهد الذي رأيتِيه أمس بكل براعة، اتصل بي بعد تسلُّمي خطاب حنين فأخبرتُه اعتذاري عن قبول مبلغ الدية مع امتناني الشديد لجميل صنيعها وروحي تتقطع أوصالًا، فلم يكن بوسعي تصديق الأمر أو قبوله ببساطة، لكنه لم ييأس وتكررتْ اتصالاته، قضيتُ أيامي أقاوم وأقاوم أكذوبة الكرامة ونعرتها، فهل يُمكنني حقًا أن أحرم نفسي لقائكِ يا أعز الناس؟ ثم زارني المحامي ثانية وجاءني على هاتفه اتصالها بشخصي، كم كانت حنين راقية عذبة حين حادثتني، لم أستطع مقاومة حُجتها وبيانها وقوة إقناعها، ابتسمتُ حين عقَّبتْ على رفضي قائلة: بدأتْ الشكوك تساورني حيال رغبتكَ الحقيقية في الزواج من عاليا، أنت مُحق، أعرف كم هي مزعجة،لكن لا عليك فبغيابكَ عنها تبدد إزعاجها وتأدبتْ، لقد أهلكها الفراق يا زياد وإن لم تعُد فبالتأكيد ستتبخرعاليا عن قريب...صمتٌ ساد مكالماتنا لبرهة، فوجود اسمك في جملة مفيدة يُلجمني، ثم أردفتْ حنين بجدية وصوتها محموم: أرجوك فكر بالأمر، دعنا ننهي هذه المأساة ونغلق باب الدمار، فوعودُنا نخالفها مع الأيام وأحلامنا نتنازل عنها مع السنين ومشاعرنا

تتغير، كل شيء يتغير حتى نحن لا نبقى كما كنا أبدًا، فلا تؤذي قلبكَ وقلب عاليا بدافع العزة والترفُع عن قبول عرضي، واعتَبر أني رسولُ ربي إليكَ جاءكَ من السماء ليُعيدكَ إلى حيث تكون، إلى حيث تنتمي، أريدُ أن أُعيدكَ إلى عاليا، فهل توافق؟.

سكَّنت كلماتها قلبي وقد أضناني الهوى وأحرق الشوق سلطاني، فكلنا في الحب كريشٍ في مهب الريح، لا سلطان لنا على أنفسنا ولا سيطرة لنا على قلوبنا، يُسقِط العشق كل هيمنة للعقل حين يمسَّنا الهوى، رأيتكِ حينها أمامي فسرى النبض بي وانبعثتْ بي حرارة الحياة وأفلتَ مني زمام المقاومة من فرط العشق وأوشكتُ أن أجِن لهفة وأن أذوب شوقًا.

احتضنتُ فارسي أكثر، فحضنه كبير كالكون، عميق كالمحيط، أغمضتُ عيني بين متعة الإحساس ونشوة الواقع، تشبعتُ به، فمرَّت بي رجفة استقرار وأنا مُتعلقة بتلابيبه قائلة: اشتاقتْ إليكَ عيناي.

من قال أن القوة مُرادف القسوة والصبر مُرادف العجز، كل ما أخبرنيه زياد وكل ما فعلته نينو من أجلي جعلني أُوقن أن القوة تكمُن في قلب تهشَّم ومازال يُعطي، إنه قلب حنين!!

حنين أعطتنا جميعًا درس العمر، حين علَّمتنا أن الحب

الحقيقي ليس لأولئك الذين يُشبهوننا بل لأولئك الذين يُكملوننا، وأن العائلة ليست تلك التي يربطها وحدة الدم أو عُقدة الرحم بل ثمة أشخاص لا يجمعنا بهم جذور ولا سيقان هم لنا كل شيء، وأن الحياة معركة تلو معركة وأنه لن يتحقق لنا في أيٍّ منها انتصار إلا بمن حولنا، فالأوتار تعزف مُجتمعة فتنطلق أعذب الأنغام، وأن حكايا العشق لا نهاية لها، هي فقط تُكتب من جديد ببداية جديدة، بصيغة جديدة وبقلم جديد.

ما قدمتْهُ لي صديقتي هو لطف الله وصبغة رضاه ومكافأته على صبر اشتعلت جذوته في صدورنا حين حُفر الألم هناك، تلك الرائعة التي ما إن تسلَّمت نصيبها الشرعي من ميراث والدتها إلا وشرعت تفكر دون هوادة في إزاحة الستار الأسود عن حياتي المبتورة الناقصة دون حب العمر، وبدون الحد الأدنى من الأنانية و بمنتهى التفاني وإنكار الذات أرادت حنين أن تمنحني قطعة السكر التي تجعل لحياتي طعمًا، فما الذي يعنيه الحب غير ذلك؟ وما الذي تحويه الصداقة غير ذاك؟ طلبتْ معونة عدنان واستشارته، فهو أقدر الناس على مساعدتها فيما انتوتْ، تشهد له حكمته ورجاحة عقله، أزاحتْ عليًّا من المشهد ليس لعيب فيه أو

نقيصة، بل لأنها لم ترغب في إحراجه أو إحراجي، استغلتْ فرصةً ذهبية قدَّمها لها القدر دون تخطيط حين أُختيرعليٌ لتمثيل شركته في صفقتها خارج البلاد، رأتها إشارة من الله ومباركة لما قررتْه فابتهجتْ وامتلأتْ نفسها تفاؤلًا.

تواطأت مع كل الأطراف التي احتاجتها ليُقضى الأمر في سرية تامة دون علمي ودون علم خالتي صفاء، فربما يفشل الأمر لأي سبب خارج عن سيطرتها فتهترأ أرواحنا ويُهلكنا الألم من جديد، فما أبشع موت أملٍ أحيا في قلوبنا الفرحة بلقاء عن قريب ثم يتبخَّر الأمل ويتحطمٍ على صخرة الواقع أو عتبة الظروف، استعانتْ بعم ربيع لإخراج مشهد النهاية وإحضاري إلى الأسكندرية لتُزلزلني المفاجأة، استغلتْ قدرة دلال اللامتناهية في الاحتفاظ بي هناك في دار الرحمة حتى يتم المُراد، اختبأ فريق عملِها خلف أعذار مُصطنعة يتجملون بالكذب اللذيذ مُتصرفين بدهاء شديد حتى تمَّ لهم ما أرادوا، فمن يُحب يُحارب في سبيل غايته، فلا شيء أجمل من أن تُهدي السعادة لروح اشتاقت إليها..

قد يرى البعض أن ما فعلته حنين حين أنفقتْ من أموالها آلافًا كثيرة لتسد الفجوة النارية التي تفصل صديقتها عن حبيب العمر ليس طبيعيًا أبدًا ولا بفطري على الإطلاق لكني وغيري

أيضًا نراه أمرًا طبيعيًا ناضجًا جدًا بفعل وحدة الألم والحب، فلِمَا يصعُب علينا استيعاب التضحية، فالعلاقات الإنسانية لا ضمانات فيها إلا الصدق، فالصدق ميزة لا يُمارسها إلا كل قلب سليم، والصادق لا يستعظم شيئًا مهما بلغتْ قيمته، ولكل صادق أُسلوبه الخاص والمُتفرد ليُبرهن على حبه وصدقه وإنسانيته، وقد مارست حنين إنسانيتها معي وبعثت في حياتي اللذة وأضمرت فيها النيران بعد أن كادت تتجمد بثلوج الفقد!!

انقضتْ فترة غياب عليٍّ في فرنسا، وعاد سالمًا يحمل شوقًا غائرًا وحنينًا فائضًا لحنين وكأنه فارقها دهرًا حين غاب عنها لأسابيع، رأتْهُ نينو فاستجمعتْ روحها بفرح ولملمتْ فوضويتها وكأنها قد اكتفتْ منها، دموع مجهولة غطَّتْ وجهها الملائكي حين عاتبها عليٌّ على استقصاءها له من خطتها الجُهنمية لإعادة زياد، تظاهرتْ أنها لا تعي عتابه، أدركتْ أنها مهما قدَّمتْ له من تبريرات فلن تُجدي معه، كانت عاجزة عن ممارسة الكذِب معه، اعترفتْ له أن لا شيء كان بإمكانه إثناءها عما أرادتْهُ، وأنها خشيتْ أن يُراجعها عليٌّ أو يُزيِّن لها الاحتفاظ بالإرث باعتباره شيئًا منطقيًا، أو تأخذه العِزة فيرفض الأمر كليًا كما رفضه زياد في البداية، أحستْ بكثير من الخجل وهي تُبرر و تشرح، ثم ارتجف صوتها وهي تقول: آسفة حبيبي.

أقبل عليٌّ عليها يُحركه كبتُ حبيبٍ مشتاق قضى ألف عام في صحراء الانتظار، ها هي أنثاه الجميلة، قطته البرية تُعلن حبها له و تُصرِّح به، الآن غدتْ قادرة على التصريح بالحب، تُصر هذه المرة على أن تحيا الحب أو تموت دونه، تصرُ على أن تملك كل شيء أو لا شيء، سئِمتْ بُرودها وخلعتْ عنها عنادها و تحفُظها و قفزتْ إلى صدره لا يُقسرها ماض على أن تقول بفصاحة عينيها: أُحبكَ علي، وأخاف أن يسحقني الحب.

أحستْ بيده القوية تُحيط خصرها تضُمها إلى صدره، صارتْ نظراته تُعانقها، أنفاسه تُطمأنها، ثم هوى بشفتيه المحموتين على شفتيها الدقيقتين يُمطرهما بالقُبلات وقلبه يضُّج بالحنين، كل ما فيه يُناديها بحرارة و كل ما فيها يدعوه بشوق، كلاهما دافئ كنيران المعبد، كلاهما يريد أن يضيع في جغرافيا الآخر..

بعد ثلاث سنوات:

امتلأ البيتُ حركة متصلة، جميعنا في نشاط، نتحرك في همَّة لإعداد مائدة الإفطار، نتسابق في رشاقة و خفة لِيُتم كلٌ منا المُهمة المُوكلة إليه، فقد أوشك آذان المغرب أن ينطلق في إجلال فها هو شعاع الشمس يغيب مُعلنًا انتهاء يوم آخر من أيام رمضان المُعظم.

واجتمعنا كعادتنا عقب الإفطار في الصالة نتدفأُ بالصُحبة و ننتعش باللَّمة، أما خالتي صافي فكانت تجلس في الشرفة تحمل على شفتيها ابتسامة هادئة كنسمة العصاري اللطيفة بجانبها طاولة صغيرة تحمل فنجانين من الشاي الأخضر، يجلس قُبالتها عم ربيع وقد استقرتْ فوق رأسه طاقية بيضاء خفيفة أحضرتها له دلال العام الماضي عند عودتها من العمرة، يطل من وراء نظارته الجديدة ليقرأ النرد و يحرك قواشيط الطاولة حسبما تستقر، يتحجج كثيرًا و بأعذار واهية إذا ما غلبتْهُ خالتي صفاء فيضع ساقًا على ساق و ينطلق يتفاخر بأنه مُعلم ماهر، فهو من درَّبها وعلَّمها كيف تلعب طاولة عادة ومحبوسة، ولاعجب أن تنتصرعليه تلميذته فقد أخلص في تعليمها.

تنطلق ضحكاتهما من القلب تُسري عنهما خريف العمر، فقد وجدا في صداقتهما راحة لأرواحهما المُلتاعة فَقدًا وفي التقائهما سندًا ودعمًا، فوحدة الحال قادرة على تخدير ألم الفراق، أعشقُ أن أراهما يتجولان معًا على شاطئ البحر يلوذانِ ببعضهما البعض من فراغ كاسر أراد إعلان سطوته على أعمارهما، تقاسيم صبر جميل ظهرتْ على وجوههما فزادتهما حُسنًا وبهاءً، نظمنا لهما حفلًا بسيطًا هادئًا كحياتهما تمامًا احتفالًا

بـذكرى مولـدهما، فلقـد اكتـشفنا مُـصادفةً أنهـما مـن مواليـد ذات الشهر، صـافي جـاءتْ إلـى الـدنيا في كذبـة إبريـل أمـا ريعـو فوصـل كوكبنا العامر في أخره لكنه سبقها بعشر سنوات تقريبًا.

وعلى طرف الأريكة تجلس دلال وفي يـدها ريمـوت التلفـاز لكنها لا تشاهده، فهـي لا تنفـك تـضع هاتفهـا الجـوال علـى أذنهـا تُحـادث حـسنية أو أمـاني أو أي مـن الأمهـات البـديلات في دار الرحمة لمتابعة الأمور و الوقوف على المستجدات أول بـأول، لا يشغلها شيءٌ البته عن متابعـة أحـوال الأطفـال حتـى وإن كانـت في إجازة سريعة لأُسبوع واحـد تقـضيه معنـا بعـد طلبـي وإلحـاحي، فهـي لا تنـسى الاطمئنـان علـى أحـوال هـذا وذاك، كـما لا يفوتهـا تذكير المُشرفات بمواعيد أدوية المـريض مـن أطفالهـا لا قـدر الله أو مواعيد تطعيمات بعضهم أو غير ذلك مـن أحـوال تـشغل قلـب أي أم مُحبة مُخلصة لصغارها.

تراقب حمزة بعينيها اللتين لا تنفكان عن مُتابعته أينـما كـان، فالصغير منهمك باللعب مع يوسف ابن عـدنان وكـأنهـما صـديقان عزيزان منذ نصف قـرن علـى الأقـل، يفهـم كـلٌّ منهـما لغـة الآخـر وأدواته، ينصبان شباكهما و فخاخهما بحنكة للإيقـاع ببابـا عـدنان ليلعـب معهـما والمـسكين حتـمًا لا يملـك إلا أن يستـسلم لرغبـة

الـصغيرين قبـل أن تتـصاعد ضـربات أقـدامهما علـى الأرض كمظاهرة احتجاج واضـحة، فتُسارع زهـرة الجميلـة لمشاركتهما المظاهرة فلا أحد يستطيع استعمال عدنان كزهرة، وحدها تعـرف شيفرته، و مازالتْ تـشعر بكثير مـن الخجـل إذا اقـترب منهـا أمـام الصغيرين وخطف قُبلة يتصبر بها ويتقوت بها على مجهـود جبار يلزمـه لملاحقـة الفـأرين الهـاربين المُختبئـين هنـا أو هنـاك، المتُحفزينْ دومًا للإجهازعليه في أي لحظة.

أما حنين فكانت قد استقرتْ برأسـها على كتف عليٍ فـوق الأريكة ترفع قدميها الصغيرتين على كرسي منخفض وضعه عليٌ لها لتتمدد في وضع مريح، تتأبط ذراعه وكفيهما مُتعانقين، يـرفض علي أن يتحرك، يجلس ثابتًا كالتمثال حتى لا يُزعج أميرته النائمـة فتستيقظ، لكن نينو تثاءبتْ والتفتتْ نحوه بعيونها الطفوليـة تتأكـد من وجوده إلى جوارهـا فابتسمتْ وعـاودتْ النـوم ثانيـةً، ملتهبٌ علي بالاهتمام بنينو، يحيا معها عالمًـا بـلا زيـف وتحيـا معـه عـالم بلا خوف، تضع يدها على بطنها المُنتفخة، فبعد أقـل مـن شـهرين سيصل مولودهما الأول، أقصد توأمهما الأول كما أكد الطبيب.

أمـا أنـا فكنـتُ في المطبخ أراقبُ زيـادي وهـو يـصنع كعكـة التوت المفضلة لجميعنـا، كانـتْ قامتـه مـشدودة كـالرمح، صـدره

obeikan.com

عريض كحقل مفروش بالزهور، حقل أقفزُ عليه بحُرية فتصير كل فصولي ربيعًا، أركضُ في سعادة بين جنباته، سعادةُ امرأةٍ عاشقةٍ لرجل يعشقها، رجل يقول لي بفصاحة " أُحبكِ " كما لم يقُلها رجلٌ لامرأةٍ من قبل، رجلٌ يقول لي دومًا "أنتِ صباحي و مسائي، نعيمي وعذابي"، فأُسارع أُلقي بنفسي بين يديه وأقول:- قلبي الصغير قد أُغرق في حُبكَ غرامًا، فمَن في حب الجنة قد يُلامُ؟!..

ما أروع الحب و ما أقساه!، فالحب الحقيقي ربما يُمزقنا ليُعيد صياغتنا من جديد، ربما يُولِّد المسافات بيننا لكنه يُبقينا قريبين، قالها أديب نوبل من قبل في رائعته ثرثرة فوق النيل "إنك إذا استعملتَ الحب يومًا في جملة مفيدة فستنسى حتمًا الخبر إلى الأبد".

فهمنا و أدركنا و بعد طول عناء و ليال فراق حملتْ لنا شقاءً أن لكل حب وقته ليُزهرَ فيه، وذاك لم يكن وقتنا..

ثلاث سنوات الآن ومنذ أن أهدتني حنين أغلى ما في حياتي، حين استعادتْ لي زيادي وأنا في صحو كامل و إبداع لا ينضب، لا أكفُ عن الكتابة يومًا واحدًا، تتفتح براعم كلماتي فوق السطور، و تتدفق داخلي شلالاتٌ من الأفكار أُسارِع بتدوينها على أوراقي المبعثرة هنا وهناك، بينما يحنو زياد على صغيرتنا

"رؤى" و يرعاها أشد رعاية إذا ما تلبَّثتْ بي روح الكتابة و زارني الإلهام، فلا أنفك أُسجل خواطري و أُفرغ كل مايدور في طاحونة عقلي، لا أكفُ عن الرغبة في إيصال صوتي إلى الآخرين، قناعاتي بالحب وإيماني بقوته السحرية يُحركاني، حتى حين فاجأني المخاض و مزقتني آلام الوضع، شددتُ على يد زياد و طالبتهُ أن يحضر ورقة و قلم ليُسجل ما يعتمل في داخلي، فللألم روعة وقدسية تجعلنا نرى الأشياء من منظور مختلف أكثر قربًا وأكثر عُمقًا، عُدنا بعدها إلى بيتنا يحمل زيادي رؤى نائمة وديعة في مهدها وأحمل أنا أوراقي أقرأُها بشغف، وكأنني لستُ أنا من سجلها ولم تنشق حنجرتي لتُخرجها و ستظل ذكرى ميلاد رؤى أروع ذكرى، فها هو الناشر يُبلغني بحصول روايتي الثانية " رؤى و عرائس السكر " على جائزة الدولة التقديرية!.

أتساءلُ إن لم تكن شمس رؤى قد أشرقتْ على حياتنا هل كان من الممكن أن تقع عيوننا على هذا المشهد الرائع؟!.

أؤمن أن للعشق وعد و رؤى يُجددان الزمان و يكسران حدود المكان فتجتاح أرواحنا نشوةٌ تروينا بلذة لقاء لا نهاية له.

قالوا عن الحب

❤ ثلاثة لا يمكننا إخفاؤها:

الكحـــة، الفقر، الحب.

عباس محمود العقاد

❤ بموت الحب في الأرض ينتهي العالم.

توفيق الحكيم

❤ بالحب وصلتُ إلى نفسي وبالحب عرفت الله.

إيليا أبو ماضي

❤ الحب هو أعلى قمة في جبل الحكمة.

قاسم أمين

❤ الحب سعادة ترتعش.

جبران خليل جبران

❤ الحب أقوى العواطف لأنه أكثرها تركيبًا.

سبنسر

❤ الحب في الأرض بعضٌ من تخيُلنا، لو لم نجده عليها لاخترعناه.

نزار قباني

obeikan.com

♥ الحب في مفهومه الحقيقي عطاء بلا تحفظات ولا حسابات يُقابله غالبًا عطاء مماثل إن لم يزد عنه من جانب الشريك المُحب.

عبد الوهاب مطاوع

♥ مأساة الحب تتلخص في أن الرجل يريد أن يكون أول من يدخل قلب المرأة، والمرأة تريد أن تكون آخر من يدخل قلب الرجل.

بيرون

♥ أنت في العشرين تستطيع أن تُحِب، وأنت في الثمانين تستطيع أن تُحَب، هناك دائمًا مناسبة لاشتعال البرق.

فرانسواز ساغان

obeikan.com

أما أنا فأقول:

إن الحب هو ذاك الذي يبقى في ذهنك كل الوقت قريبًا كان أو بعيدًا، يملك من قلبك الكثير بل يملك قلبك كله، بنبضه وشرايينه وأوردته فاحرص عليه حرصك على نفسك، فالحب لا يستأذن قبل أن يدخل قلوبنا إنما هو إعصار لذيذ يجتاحنا دون استئذان، يسكُن أرواحنا دون إرادة منا، يحتل تفاصيلنا وتتشبع به خلايانا فلا تشيخ أبدًا روح يسكنها الحب، فالحب شريعة، نجده في كل الأديان، لكن الحب نفسه لا دين له!

رشا شمس

٢٠١٧م

obeikan.com

الكاتبة في سطور

♥ كاتبة وقاصة مصرية، قضت سنوات طفولتها و مراهقتها في أطهر بقاع الأرض، مكة المباركة، عرفها القراء حين صدر لها مجموعة قصصية كاملة بعنوان (**قلوب واجفة**)، كانت الأكثر مبيعًا ضمن إصدارات دار الشهد للنشر والتوزيع في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٧م.

♥ حاصلة على بكالريوس في علم الميكروبيولوجي من جامعة عين شمس بتقديرعام جيد جدًا، كانت تعمل أثناء دراستها الجامعية كصحفية في مؤسسة أخباراليوم.

♥ حاصلة على دبلومة في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها من جامعة كامبريدج ١٩٩٧م، تتلمذ على يديها مئات الأجانب العاشقين للغة العربية وفنونها وآدابها.

♥ حاصلة على دبلومة في الأدب المقارن وعلوم الدراما من جامعة كامبريدج عام ٢٠٠٠م.

♥ شاركتْ في ترجمة بعض روائع من الأدب العربي للغاتٍ

obeikan.com

أخرى، فلقد شاركت في ترجمة "ثلاثية نجيب محفوظ" إلى الإنجليزية و الألمانية و الأسبانية.

♥ في عام ٢٠٠٨م حصلتْ على دبلومة في الإرشاد النفسي و آليات ضبط و تعديل السلوك من جامعة عين شمس.

♥ نُشِرلها عدة مقالات عن الإسلام، نشأته وانتشاره، آدابه وعلومه في عدد من الصحف و المجلات الأجنبية بالإضافة إلى مقالات ودراسات أدبية عن عمالقة الأدب العربي.

♥ عضو مؤسس لمبادرة "نساء مُبدعات للعمل الأدبي" مع دار الشهد للنشر و التوزيع، تلك المُبادرة معنية بتقديم المواهب والأقلام الأدبية المُميزة من كافة آرجاء الوطن العربي والتي قدَّمت ثلاثة مجموعات قصصية غاية في التميز و الاختلاف خلال العام الأول للمبادرة وهم "وعد الروح " و "نون النسوة" و"رؤى حالمة".

♥ مُنسق إعلامي و محرر أدبي و عضو لجنة القراءة بدار الشهد للنشر والتوزيع.

♥ تُشارك في معرض دبي الدولي للكتاب ٢٠١٨م بمجموعة قصصية من العيار الثقيل بعنوان (تنهُدات حارة) من إصدار دار جُميرا للنشر و التوزيع.

obeikan.com

♥ تعشق القراءة و الأدب، وتربية الطيور و خاصةً العصافير و الكناريا، تهوى ركوب الخيل و الاسكواش، الموسيقى و تفضل "البيانو" و"الناي"، عاشقة للنادي الأهلي و منتخب مصر لكرة القدم.

♥ تعشق السفر و أمنيتها الغالية هي زيارة أكبر عدد من عواصم العالم و المدن المشهورة بالفن و المتاحف و المكتبات العملاقة و ترجو أن يمّن الله عليها بالصلاة في المسجد الأقصى ذات يوم.

الرابط المباشر لحساب الفيس بوك الخاص بي:

https://www.faceboo.com/rshams1

o b e i k a n . c o m

الفهرس

إهداء.. ٣

أخبروني أنكَ ٧

و اشتاقت إليك عيناي ٩

قالوا عن الحب.....................................   ٣٣٤

الكاتبة في سطور ٣٣٧

obeikan.com